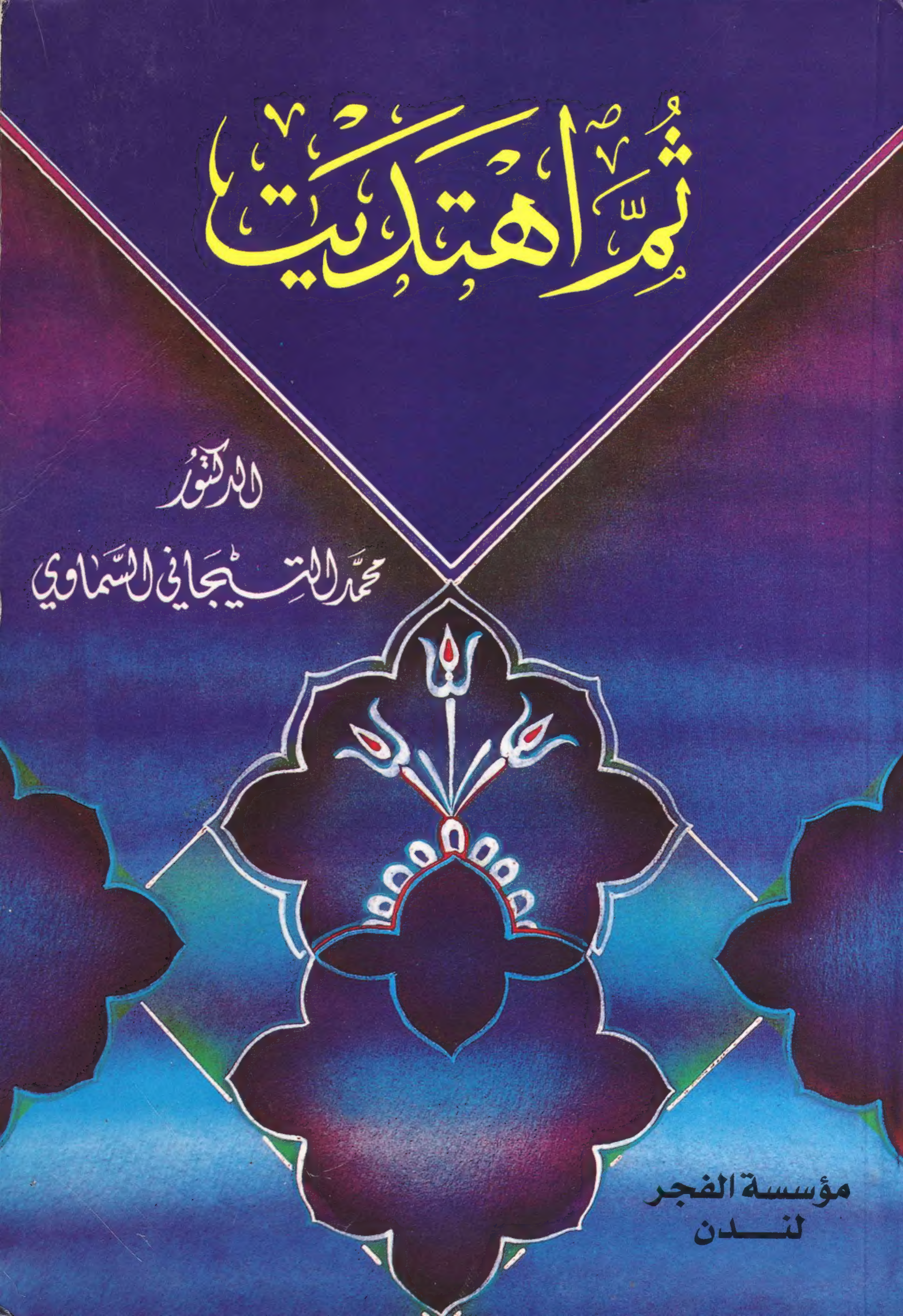


ثم اهتديت
الدكتور
محمد التيجاني السماوي
مؤسسة الفجر
لنـــدن


ثم اهتديت

بسم الله الرحمن الرحيم

وإني لغفار لمن تاب وءامن وعمل صالحا ثم اهتدى

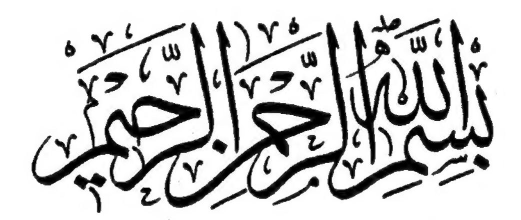
صدق الله العظيم



الدكتور محمد التيجاني السماوي

مؤسسة الفجر

لندن



الطبعة الرابعة
١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م

الاهداء

كتابي متواضع لا تكلّف فيه ، هو قصة رحلة ، قصّة اكتشاف جديد ، ليس اكتشافاً في عالم الاختراعات التقنيّة أو الطبيعيّة ، ولكن في دنيا المعتقدات في خضم المدارس المذهبية والفلسفات الدينيّة .

ولّما كان الاكتشاف يعتمد أوّلاً على العقل السليم ، والفهم القويم الذي ميّز الانسان عن بقية المخلوقين .

فإنّني أهدي كتابي إلى كل عقل سليم ، يمحّص الحق فيعرفه من بين ركام الباطل ، ويزن الأقوال بميزان العدل فيرجّح كفّة المعقول ، ويقارن الكلام والأحاديث فيتبيّن المنطقي من المعسول ، والقويّ من المهزول ، قال تعالى : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوُ الألباب** ﴾[1]

إلى كل هؤلاء أهدي كتابي هذا، راجياً منه سبحانه وتعالى ؛ أن يفتح بصيرتنا قبل بصرنا ، وأن يهدينا وينوّر قلوبنا ويرينا الحقّ حقّاً لا غبار عليه فنتّبعه ، ويرينا الباطل باطلاً لا لبس فيه فنجتنبه ، ويدخلنا في عباده الصالحين إنّه سميع مجيب .

محمد التيجاني السّماوي

---

(1) سورة الزمر 39 : 17 ـ 18 .



بسم الله الرحمن الرحيم

ديباجة

الحمد لله ربّ العالمين ، الذي خلق الانسان من سلالة من طين ، فجعله في أحسن تقويم ، وفضّله على سائر المخلوقين ، وأسجدَ له ملائكته المقرّبين ، وكرّمه بالعقل الذي يبدّل شكّه باليقين ، وجعل له عينين ، ولساناً وشفتين وهداه النجدين ، وأرسل له رسلاً مبشّرين ومنذرين؛ لينبّهوه ويمنعوه من ضلالات إبليس اللعين ، وعهد إليه أن لا يعبد الشيطان لأنّه له عدّو مبين ، وأن يعبد الله وحده ويتّبع صراطه المستقيم ، على بصيرة وإيمان وعلم يقين ، وأن لا يقلّد في عقيدته الأصحاب والأقربين والآباء الأولين ، الذين اتّبعوا من قبلهم بلا أدلة واضحة ولا براهين ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين ﴾[1] .

وصلوات ربي وسلامه وتحياته وبركاته على المبعوث رحمة للعالمين ، ناصر المظلومين والمستضعفين ، ومنقذ البشرية من ضلالة الجاهلين ، إلى هداية المؤمنين الصالحين ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله نبيّ المسلمين ، وقائد الغرّ المحجّلين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين اصطفاهم الله على سائر المخلوقين ، ليكونوا قدوة

---

(١) تضمين من سورة فصلت : الآية 33 .

المؤمنين ، ومنار العارفين وعلامة الصّادقين المخلطين وأوجب مودّتهم في القــرآن الكـريم ، بعــد أن أذهب عنهم الـرجس وجعلهم من المعصومين ووعد من ركب سفينتهم ، بالنجـاة ومن تخلّف عنهم كان من الهالكين ، وعلى أصحابه الكرام الميامين ، الذين نصروه وعزّروه ووقّروه وباعوا أنفسهم لنصرة الدّين ، وعرفوا الحقّ فاتبعوه بيقين ، وثبتـوا بعده عـلى المنهاج القـويم ولم يغـيّروا ولم يبـدّلـوا وكـانـوا من الشـاكـرين ، فجـزاهم الله خيـرا عن الاسلام والمسلمـين ، وعــلى التابعين لهم والسـائرين عـلى هديهم إلى يـوم الدّين ، ربي تقبّـل مني فـأنت السميـع العليم ، واشرح لي صـدري فـأنت الهــادي إلى حقّ اليقـين ، وأحلل عقدة من لسـاني فأنت واهب الحكمـة لمن تشاء من عبادك المؤمنين ، ربِّ زدني علماً وألحقني بالصالحين .

لمحة وجيزة عن حياتي

لا زلت أذكر كيف أخذني والدي معه إلى مسجد الحيّ الذي تقام فيه صلاة التراويح في شهر رمضان ، وكان عمري يومئذٍ عشر سنوات ، وقدّمني إلى المصلينّ الذين لم يخفوا إعجابهم بي .

كنت أعلم منذ أيّام أنّ المؤدّب[1] رتّب الأمور لكي أشفع[2] بالجماعة ليلتين أو ثلاثاً ، وجرت العادة أن أصلّي خلف الجماعة مع مجموعة من أطفال الحي وأنتظر وصول الامام إلى النصف التّالي من القرآن الكريم أي إلى سورة مريم ، وبما أنّ والدي حرص على تعليمنا القرآن في الكتّاب[3] وفي البيت خلال حصص ليليّة يقوم بها إمام الجامع وهو من أقاربنا مكفوف البصر يحفظ القرآن الكريم ، وبما أنّي حفظت النّصف في تلك السنّ المبكرة أراد المؤدّب أن يظهر فضله واجتهاده من خلالي فعلّمني مواقع الركوع من التلاوة وراجعني عدّة مرّات ليتأكّد من فهمي . . . بعد نجاحي في الامتحان وإنهاء الصلاة والتلاوة بالجماعة على أحسن ما كان يتوقع والدي والمؤدّب ، اندفع نحوي الجميع مقبّلين ومعجبين وشاكرين المعلّم الذي علّمني ، ومهنّئين والدي . والكلّ يحمد الله على نعمة الاسلام ، وبركات الشيخ .

---

(1) المؤدب : هو معلم القرآن .

(2) أشفع : أصلّي التراويح ، سمّيت صلاة التراويح للاستراحة بين كل ركعتين ، وسمّيت أيضاً صلاة الاشفاع لأنّها تشفع يوم القيامة لمن يقيمها ، كما يروي ذلك أهل السنّة .

(3) الكتّاب : هي المدرسة القرآنية التي يتعلم فيها الأطفال حفظ القرآن الكريم .

وعشت أياماً سوف لن تمحى عن مخيّلتي ، لما لقيته بعد ذلك الحدث من إعجاب وشهرة تعدّت حارتنا إلى كل المدينة ، وطبعت تلك اللّيالي الرمضانية في حياتي طابعاً دينياً بقيت آثاره حتى اليوم ، ذلك أنّي كلّما اختلطت عليّ السبل أحسست بقوّة خارقة تشدّني وترجعني إلى الجادّة ، وكلّما شعرت بضعف الشخصية وتفاهة الحياة رفعتني تلك الذكريات إلى أعلى الدرجات الروحية ، وأوقدت في ضميري شعلة الايمان لتحمّل المسؤولية .

وكأن تلك المسؤولية التي حمّلنيها والدي ، أو بالأحرى مؤدّبي لامامة الجماعة في تلك السنّ المبكّرة ، جعلتني أشعر دائماً بأنّني مقصّر عن أن أكون في المستوى الذي أطمح إليه أو على الأقل المستوى الذي طلب منّي .

لذلك قضيت طفولتي وشبابي في استقامة نسبيّة لا تخلو من لهو وعبث يسودهما في معظم الأحيان البراءة وحبّ الاطّلاع والتقليد ، تحوطني العناية الالهية لأكون متميّزاً من بين أخوتي بالرّصانة والهدوء وعدم الانزلاق في المعاصي والموبقات .

ولا يفوتني أن أذكر: أنّ والدتي رحمها الله كان لها الأثر الكبير في حياتي ، فقد فتحت عيني وهي تعلّمني قصار السور من القرآن الكريم ، كما كانت تعلّمني الصلاة والطهارة وقد اعتنت بي عناية فائقة لأنّي ابنها الأوّل ، وهي ترى إلى جانبها في نفس البيت ضرّتها التي سبقتها منذ سنوات عديدة ، ولها من الأولاد من يقارب سنّها ، فكانت تتسلّى بتربيتي وتعليمي ، وكأنّها تتبارى في سباق مع ضرّتها وأبناء زوجها .

كما أنّ اسم التيجاني الذي سمّتني به والدتي ؛ له ميزة خاصّة لدى عائلة السّماوي كلّها التي اعتنقت الطريقة التيجانيّة وتبنّتها ، منذ أن زار أحد أبناء الشيخ سيدي أحمد التيجاني مدينة قفصة قادماً من الجزائر ، ونزل في دار السماوي ، فاعتنق كثير من أهالي المدينة خصوصاً العائلات العلمية والثريّة هذه الطريقة الصوفية وروّجوا لها ، ومن أجل اسمي ؛ أصبحت محبوباً في دار السماوي التي يسكنها أكثر من عشرين عائلة ، وكذلك خارجها ممن لهم صلة بالطريقة التيجانية ، لذلك كان كثير من شيوخ المصلّين الذين حضروا تلك

اللّيالي الرمضانية التي ذكرتها ، يقبّلون رأسي ويديّ مهنّئين والدي قائلين له :

هذا فيض من بركات سيدنا الشيخ أحمد التيجاني ، والجدير بالذكر ؛ أنّ الطريقة التيجانية انتشرت بكثرة في المغرب والجزائر وتونس وليبيا والسودان ومصر وأنّ معتنقي هذه الطريقة متعصّبون نوعاً ما ، فهم لا يزورون مقامات الأولياء الآخرين ، ويعتقدون بأنّ كل الأولياء قد أخذوا عن بعضهم بالتسلسل ما عدا الشيخ أحمد التيجاني ؛ فقد أخذ علمه مباشرة عن رسول الله (ص) رغم تأخّره عن زمن النبوّة بثلاثة عشر قرناً . ويروون بأنّ الشيخ أحمد التيجاني كان يحدّث : بأنّ رسول الله (ص) جاءه يقظة لا مناماً ، كما يقولون : بأنّ الصلاة الكاملة التي ألّفها شيخهم أفضل من أربعين ختمة من القرآن الكريم .

وحتى لا نخرج عن الاختصار ، نقف عند هذا الحدّ من التعريف بالتيجانية ، ولنا عودة إليها إن شاء الله في موضع آخر من هذا الكتاب .

ونشأت وترعرت على هذا الاعتقاد كغيري من شبّان البلد ، فكلّنا مسلمون بحمد الله من أهل السنّة والجماعة ، وكلّنا على مذهب الامام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، غير أنّنا منقسمون في الطرق الصوفية التي كثرت في شمال إفريقيا ؛ ففي مدينة قفصة وحدها هناك التيجانية ، والقادرية ، والرحمانية ، والسّلامية ، والعيساوية ولكل من هذه الطرق أنصار وأتباع يحفظون قصائدها وأذكارها وأورادها التي تقام في الحفلات والسهرات بمناسبة عقد القران ، أو الختان ، أو النجاح ، أو النذور . ورغم بعض السلبيات ، فقد لعبت هذه الطرق دوراً كبيراً في الحفاظ على الشعائر الدّينية واحترام الأولياء والصالحين .



الحج إلى بيت الله الحرام

كان عمري ثمانية عشر عاماً عندما وافقت الجمعية القومية للكشافية التونسية على انتدابي للمشاركة في المؤتمر الأول للكشافة العربية والاسلامية الذي أُقيم في مكّة المكرّمة ، ضمن مجموعة تتكون من ستة أشخاص من كامل الجمهورية التونسية ، ووجدت نفسي أصغر أعضاء البعثة سناً ، وأقلّهم ثقافة ؛ إذ كان اثنان منهما من مدراء المدارس ، والثالث أُستاذاً بالعاصمة ، والرابع يعمل في الصحافة ، والخامس لم أعرف وظيفته غير أنّي علمت أنّه أحد أقرباء وزير التربية القومية في ذلك العهد .

كانت رحلتنا بطريق غير مباشر ، فقد نزلنا في أثينا عاصمة اليونان ، حيث أمضينا فيها ثلاثة أيام ، ومنها إلى عمّان عاصمة الأردن ، التي مكثنا فيها أربعة أيام وصلنا بعدها إلى السعودية ، حيث شاركنا في المؤتمر وأدّينا مناسك الحج والعمرة .

كان شعوري وأنا أدخل بيت الله الحرام لأوّل مرّة لا يتُصوّر ، وكان قلبي كأنّه يحطم الأضلاع ـ التي تحوطه ـ بدقّاته العنيفة ، يريد الخروج ليرى بعينه هذا البيت العتيق الذي طالما كان يحلم به ، وفاضت الدّموع حتى ظننت أنّها لن تتوقف ، وخيّل إليّ أنّ الملائكة ـ تحملني فوق الحجيج لأصل إلى سطح الكعبة المشرّفة ، والبّي نداء الله من هناك : لبّيك اللّهم لبّيك هذا عبدك جاء إليك ، وقد استنتجت وأنا أسمع تلبية الحجيج ؛ أنّ هؤلاء قضوا أعمارهم

وهم يتجهّزون ويعدّون العـدّة ويجمعون الأمـوال للمجيء ، أمّا أنـا فكان مجيئي مفاجئاً على غير استعداد منّي ، وأذكر أنّ والدي عندما رأى تذاكر الطائـرة وتيقن من سفري إلى الحجّ بكى وهو يقبّلني مودّعاً قائلاً: هنيئاً لك يا بني لقـد أراد الله أن تحجّ قبلي وأنت في هٰذه السنّ ، فأنت ولد سيدي أحمد التيجاني ادع الله لي في بيته أن يتوب عليّ ويرزقني حجّ بيته الحرام .

لـذلـك ظننت إنّ الله هـو الـذي نـاداني ، وأحـاطني بعنـايتـه وأوصلني إلى ذلـك المقامِ الـذي تموت الأنفس دون الـوصول إليـه حسرة ورجـاء ، فمن أحقّ بـالتلبيّة منّي فكنت أبـالـغ في الـطواف والصـلاة والسعي ، وحتّى في شرب مـاء زمزم ، والصعود إلى الجبال ؛ حيث تتسابق الوفود للوصـول إلى غار حـرّاء فوق جبل النور ، فلم يسبقني إليه غير شابّ سوداني فكنت (ثاني اثنين) وتمرّغت فيه وكـأني أتمرّغ في حجـر الرسـول الأكرم (ص) وأشمّ أنفـاسه ، يـا لها من صـور وذكريات تركت في نفسي أثراً عميقاً لن يمحى أبداً !!

عناية ربّانية أُخرى ، جعلت كل من يراني من الوفـود يحبّني ويطلب عنـواني للمـراسلة ، وقـد أحبّني رفـاقي الـذين احتقـروني في أوّل لقـاء جمعنـا في تـونس العـاصمة لـترتيب السفر ، وأحسست ذلـك منهم وصبرت ، لعلمي مسبّقـاً بأنّ أهـل الشمال يحتقـرون أهل الجنـوب ويعتبرونهم متخلّفـين ، وسرعان مـا تغيّرت نظرتهم خلال السّفر والمؤتمر والحجّ ، وقد بيّضت وجوههم أمام الوفود ، بما كنتُ أحفظه من أشعار وقصـائد ، وبمـا أحرزتـه من جوائـز في المسابقـات التي أُقيمت بـالمناسبـة ، وقد عـدت إلى بلادي ومعي أكـثر من عشرين عنوانـاً لأصدقـاء من مختلف الجنسيات .

كـانت إقامتنـا في السعوديـة خمسة وعشرين يـومـاً ، كنّـا نلتقي فيهـا بعلماء ونستمـع إليهم في محاضراتهم ، وقـد تـأثّـرت ببعض المعتقـدات الـوهـابّيـة التي أعجبت بها وتمنّيت أن يكون المسلمـون عليها ، وظننت في تلك الفـترة ، أنّ الله اصطفاهم من بين العباد لحـراسة بيتـه الحرام ، فهم أطهـر وأعلم خلق الله على وجه الأرض ، وقد أغناهم الله بالبـترول ، ليتمكّنوا من خـدمة الحجيـج ضيوف الرحمن والسهر على سلامتهم .

وعند رجوعي من الحجّ إلى بلادي ، كنت مرتدياً اللّباس السعودي بالعقال وفوجئت بالاستقبال الذي أعدّه لي والدي ، فكانت جموع من النـاس محتشدة في المحطّة ، يتقدمهم شيخ الطريقة العيساوية ، وشيخ التيجانية ، وشيخ القادريـة بالطبول والبنادير[1] .

وطافوا بي شوارع المدينة مهلّلين ومكبّرين ، وكلّما مررنا بمسجد أوقفوني على عتبته بعض الوقت ، والناس من حولي يتسـابقون لتقبيـلي ، وخصوصـاً الشيوخ المسنّين فقد كانوا يلثمونني وهم يبكون شوقاً لرؤية بيت الله ، والـوقوف عـلى قبر رسـوله وهم لم يعتـادوا رؤية حـاج في مثل عمـري ، كما لم يـروا هـذا في قفصـة قبلي .

وعشت أسعد أيام حياتي في ذلك الوقت ، وقد جاء إلى بيتنا أشراف المـدينة وكبراؤها يسلّمون مهنّئين وداعين ، وكثيراً ما يُطلب منّي قراءة الفاتحة مع الـدّعاء بحضرة والـدي ، فكنت أخجل حينـاً وأتشجّع أحيـاناً ، وكانت والدتي في كل مرّة ، تدخل بعد خـروج الزّائـرين ؛ لاطلاق البخـور والتعاويـذ لحمايتي من شرّ الحاسدين ، ودفع كيد الشياطين .

وأقام والدي ثـلاث ليال متـواليات للحضرة التيجـانية ، يـذبح في كـل يوم كبشاً للوليمة . وكان الناس يسـألونني عن كـل كبيرة وصغـيرة ، وكانت أجـوبتي كلّها تنطوي على الكثير من الاعجاب والاطراء للسعوديين ، وما يقومون به لنشر الاسلام ونصرة المسلمين .

ولقّبني سكّـان المدينـة (بالحـاج) فإذا أطلق هـذا الاسم فهو لا ينصرف إلاّ إليّ. وأصبحت بعد ذلك معـروفاً أكـثر، وخصوصـاً في الأوساط الـدينية كـ (جماعة الاخـوان المسلمـين) فكنت أطـوف في المسـاجـد ، وأنهى الناس عن تقبيـل الأضرحة والتمسّح بالأخشاب ، وأحاول جهدي إقناعهم بأن ذلـك شرك بالله ، وأزداد نشاطي توسّعاً ؛ فكنت ألقي الدروس الدينية في المساجد يوم الجمعة قبل

---

(1) البنادير : مفرده بندير ؛ وهو طبـل مثل الـدفّ يستعمله الصوفيـة للمدائح والأذكار والشـطح ، ويقال انّ سيدي عبد السلام الأسمر أول من استعمله ، وقد نزل بنديره من السماء ؟ !

خطبة الامام ، واتنقل من جامع أبي يعقوب إلى الجامع الكبير ، لأنّ صلاة الجمعة تقام فيهما في أوقات مختلفة .

فبينما تصلّ الأولى وقت الظهر ، تقام الثانية وقت العصر ، وكثيراً ما كان يحضر تلك الحلقات التي أقيمها يوم الأحد ، أغلب تلاميذ المعهد الثانوي الذي أدرّس فيه مادّة التكنولوجيا والمبادىء التقنية ، وكانوا يعجبون لهذا ويزدادون حبّاً وتقديراً ؛ لأنّي أعطيتهم من وقتي الكثير ، لأزيح عن أفكارهم تلك الغيوم التي لبّدها بعض أساتذة الفلسفة الملحدين والمادّيين والشيوعيين وما أكثرهم ! ، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر موعد تلك الحلقات الدّينية ، ومنهم من يأتي إلى البيت ، فقد اشتريت بعض الكتب الدّينية والتهمتها بالمطالعة ، حتى أكون في مستوى الاجابة عن الأسئلة المختلفة ، وفي تلك السنّة التي حججت فيها ملكت أيضاً نصف ديني ، فقد رغبت والدتي رحمها الله في تزويجي قبل موتها ، وهي التي ربّت كل أولاد زوجها وحضرت زواجهم ، فكانت أمنيتها أن تراني عريساً ، وقد أعطاها الله ما تتمنّى وأطعت أمرها في الزواج من فتاة لم أرها من قبل ، وحضرت ميلاد ابني الأول والثاني ، وفارقت الحياة وهي عنّي راضية ، كما سبقها والدي رحمه الله قبل عامين وقد حجّ بيت الله الحرام وتاب توبة نصوحاً قبل وفاته بعامين .

ونجحت الثورة اللّيبية في تلك الظروف التي يعاني فيها المسلمون والعرب من هزيمة النكبة في حربهم ضدّ إسرائيل ، وطلع علينا ذلك الشاب قائد الثورة ، وهو تكلّم باسم الاسلام ، ويصلّي بالناس في المسجد ، وينادي بتحرير القدس . وقد استهواني ، كما استهوى أغلب الشباب المسلم في البلاد العربية والاسلامية، ودفعنا حبّ الاستطلاع إلى تنظيم رحلة ثقافية إلى ليبيا ، وجمعنا أربعين رجلاً من رجال التعليم ، حيث قمنا بزيارة إلى القطر الشقيق في بداية الثورة ، ورجعنا من هناك معجبين بما رأينا ، مستبشرين بالمستقبل الذي رجونا أن يكون في صالح الأمّة العربية والاسلامية في كل المعمورة .

طوال السنوات المنصرمة ، كانت الرسائل مع بعض الأصدقاء متواصلة والأشواق متزايدة، وقد توطّدت علاقتي مع نخبة منهم ألحّوا عليّ أن أزورهم، فأعددت العدّة ، ورتّبت الأمور للقيام برحلة طويلة تستغرق عطلة الصّيف التي

تدوم ثلاثة أشهر ، وكان التخطيط يمرّ بليبيا عن طريق البرّ ، ثم إلى مصر ومنها إلى لبنان عبر البحر ، ثم إلى سوريا والأردن فالسعودية ، وهي المقصودة لأداء العمرة وتجديد العهد مع الوهابية ، التي روّجت لها كثيراً في أوساط الشباب الطالبي ، وفي المساجد التي يكثر فيها الأخوان المسلمون .

وتعدّت شهرتي حدود مدينتي إلى مدن أخرى مجاورة ، فقد يمرّ المسافر فيصلّي الجمعة ، ويحضر تلك الدروس ويتحدّث بها في مجتمعه ، ووصل الحديث إلى الشيخ إسماعيل الهادفي صاحب الطريقة الصوفية المعروفة بمدينة توزر عاصمة الجريد ، ومسقط رأس أبي القاسم الشابيّ الشاعر المعروف .

وهذا الشيخ له أتباع ومريدون في كامل الجمهورية التونسية وخارجها وخصوصاً في الأوساط العمّالية بفرنسا وألمانيا .

وجاءتني منه دعوة لزيارته ، عن طريق وكلائه في قفصة ، الذين كتبوا إليّ رسالة طويلة يشكرونني فيها على ما أقوم به لخدمة الاسلام والمسلمين ، ويدّعون أنّ ذلك لا يقرّبني من الله قيد أنملة ، ما لم يكن عملي عن طريق شيخ عارف ، وعلى الحديث المشهور عندهم : (من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان) ويقولون أيضاً : (لا بدّ لك من شيخ يريك شخوصها ، وإلاّ فنصف العلم عندك ناقص) ويبشروني بأنّ (صاحب الزمان) ويقصدون به الشيخ اسماعيل ، قد اصطفاني من بين الناس لأكون من خاصّة الخاصّة .

وطار قلبي فرحاً لهذا الخبر ، وبكيت تأثّراً لهذه العناية الربّانية التي ما زالت ترفعني من مقام سام إلى ما هو اسمى ، ومن حسن إلى ما هو أحسن ، لأنني اتّبعت في ما مضى من حياتي سيدي الهادي الحفيان ؛ وهو شيخ متصوف يحكى عنه عدّة كرامات وخوارق ، وصرت من أعزّ أحبائه ، كما صاحبت سيدي صالح بالسّائح وسيدي الجيلاني ، وغيرهم من أهل الطرق المعاصرين . وانتظرت ذلك اللّقاء بفارغ الصّبر ، ولمّا دخلت بيت الشيخ ، كنت أتفرّس الوجوه بلهفة وكان المجلس مليئاً بالمريدين ، وفيهم مشايخ يرتدون لباساً ناصع البياض ، وبعد مراسم التحية ، خرج علينا الشيخ إسماعيل وقام الجميع يقبّلون

يده باحترام فائق ، وغمزني الوكيل ؛ بأنّ الشيخ هو ذا ، فلم أبد حماساً ، لأنّني كنت منتظراً غير الذي رأيت ، وقد كنتُ رسمت له صورة خيالية حسب الكرامات والمعجزات التي رسّخها في ذهني وكيل الشيخ وأتباعه ، ورأيت شيخاً عاديّاً ليس فيه وقار ولا هيبة ، وخلال المجلس قدّمني الوكيل إليه ، فرحّب بي وأجلسني على يمينه وقدّم إليّ الطعام ، وبعد الأكل والشرب بدأت الحضرة ، وقدّمني الوكيل من جديد ، لأخذ العهد والورد من الشيخ ، وهنّأني الجميع بعد ذلك معانقين ومباركين ، وفهمت من خلال حديثهم بأنّهم يسمعون عنّي الكثير ، وقد دفعني هذا الاعجاب ، إلى أن أعترض على بعض أجوبة الشيخ التي كان يلقيها على السّائلين ، وأعلّل رأيي بالقرآن والسنّة ، واستاء بعض الحاضرين من هذا التطفّل ، واعتبروه سوء أدب في حضرة الشيخ ، وقد اعتادوا أن لا يتكلّموا بحضرته إلّا باذنه ، وأحسّ الشيخ بحرج الجالسين ، فأزاح تلك السّحابة بلباقة وأعلن قائلاً : (من كانت بدايته محرقة تكون نهايته مشرقة) واعتبر الحاضرون هذا وساماً من حضرته وسوف يكون أكبر ضمان لنهايتي المشرقة وهنّأوني بذلك ، ولكنّ شيخ الطريقة ذكيّ ومدرّب ، فلم يترك لي المجال مفتوحاً لمواصلة هذا التطفّل المزعج ، وروى لنا قصة أحد العارفين بالله عندما جلس في حلقته بعض العلماء ، فقال له : قم فاغتسل ، وذهب العالم واغتسل وجاء ليجلس في الحلقة ، فقال له ثانية : قم فاغتسل ، وذهب العالم وعاود الغسل كأحسن ما يكون ظنّاً منه بأن الغسل الأول لم يكن على الوجه الصحيح ، وجاء ليجلس ، فانتهره الشيخ العارف وأمره بالاغتسال من جديد ، فبكى العالم وقال له : يا سيدي لقد اغتسلت من علمي ، ومن عملي ، ولم يبق عندي إلّا ما يفتح الله به على يديك .

عند ذلك قال له العارف : الآن أجلس .

وعرفت بأنّي أنا المقصود من هذه القصة ، كما عرف ذلك الحاضرون ، الذين لاموني بعد خروج الشيخ للإستراحة ، وأقنعوني بالسّكوت ولزوم الاحترام بحضرة الشيخ (صاحب الزمان) لئلا تحبط أعمالي ؛ مستدلّين بالآية الكريمة ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له

بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾[1] صدق الله العظيم .

وعرفت قدري وامتثلت للأوامر والنصائح ، وقرّبني الشيخ منه أكثر ، وأقمت عنده ثلاثة أيام ، كنت أسأل خلالها أسئلة عديدة بعضها للاختبار ، وكان الشيخ يعرف ذلك منّي ؛ فيجيبني قائلاً : بأنّ للقرآن ظاهراً وباطناً إلى سبعة أبطن ، كما فتح لي خزانته ، وأطلعني على كرّاسه الخاص والذي فيه سلسلة الصالحين والعارفين مسندة ومتّصلة منه إلى أبي الحسن الشاذلي مروراً بعدة أولياء مذكورين إلى أن يصل السند إلى الامام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي الله عنه .

ولا يفوتني أن أذكر هنا : بأنّ الحلقات التي يقيمونها كانت روحيّة ، إذ يفتتحها الشيخ بقراءة ما تيسّر من كتاب الله المجيد تلاوة وتجويداً ، ثم بعد فراغه ، يبدأ بمطلع القصيدة ويتبعه المريدون الذين يحفظون المدائح والأذكار ، وأكثرها ذمّ للدنيا وترغيب في الآخرة ، وفيها زهد وورع . بعد ذلك يعيد المريد الأول الجالس على يمين الشيخ قراءة ما تيسّر من القرآن ، وعندما يقول : (صدق الله العظيم) يبدأ الشيخ مطلعاً من قصيدة جديدة ، ويشارك الجميع في إنشادها ، وهكذا يتناوب الحاضرون ولو بآية واحدة بشاركون بها إلى أن يأخذ الحال الحاضرين ، فيتمايلون يميناً وشمالاً على رنّات تلك المدائح ، إلى أن ينهض الشيخ وينهض معه المريدون ، فتكون حلقة هو قطبها ويبدأون بذكر اسم الصدر قائلين : آه . آه . آه . آه . والشيخ يدور وسطهم متوجهاً في كل مرة إلى واحد منهم ، حتى يحمي الوطيس ، وتصبح الحركات والشطحات شبيهة بدق الطبول ، ويقفز البعض في حركات جنونية وترتفع الأصوات في نغمة منسّقة ، ولكنها مزعجة إلى أن يعود الهدوء بعد عناء وتعب ، بقصيدة ختامية للشيخ ، فيجلس الجميع بعد ما قبّلوا رأس الشيخ وأكتافه على التوالي ، وقد شاركتهم بعض هذه الشطحات ، محاكياً لهم في غير قناعة منّي ، ووجدت نفسي متناقضاً مع العقيدة التي تبنّيتها ، وهي عدم الاشراك أي عدم التوسّل بغير

---

(١) سورة الحجرات : الآية 2 .

الله ، فسقطت على الأرض جاهشاً بالبكاء ، متحيّراً مشتّتاً بين تيّارين متناقضين ، تيّار الصّوفية ؛ وهي أجواء روحية يعيشها الانسان ، فتملأ أعماقه بشعور الرّهبة والزهد والتقرّب إلى الله عن طريق أوليائه الصالحين وعباده العارفين ، وتيّار الوهّابية الذي علّمني : إن ذلك كلّه شرك بالله ، والشرك لا يغفره الله .

وإذا كان محمد رسول الله (ص) ، لا ينفع ولا يتوسّل به إليه سبحانه ، فما قيمة هؤلاء الأولياء والصالحين بعده ؟ !

وبالرغم من المنصب الجديد الذي نصّبني فيه الشيخ ، إذ أصبحت وكيله في قفصة ، لم أكن مقتنعاً كليّاً في داخلي ، وإن كنت أميل أحياناً إلى الطرق الصوفية ، وأشعر دائماً أنّي أكنّ لها احتراماً ومهابة من أجل أولياء الله والصالحين من عباده ، ولكنّي أكابر وأجادل محتجّاً بقوله تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو ﴾[1] وإذا قال لي قائل : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾[2] أردّ عليه بسرعة كما علّمني علماء السعودية : الوسيلة هي العمل الصالح . والمهم أنّني عشت تلك الفترة مضطرباً مشوش الفكر ، وقد يتوافد عليّ في بيتي بعض المريدين ، فنحيي سهراتٍ منتظمة ونقيم العمارة[3] .

وبدأ الجيران يتذمّرون من الأصوات المزعجة التي تنبعث من حناجرنا بذكر (آه) ، ولكنّهم لا يجاهرون لي بذلك ، غير أنّهم يشتكون لزوجتي عن طريق نسائهم ، ولمّا علمت بذلك ، طلبت من المجموعة أن يقيموا الحلقات في أحد منازلهم ، واعتذرت بأنّني سوف أسافر إلى الخارج لمدّة ثلاثة أشهر . . . وودّعت الأهل والأقارب ، وقصدت ربي متوكّلاً عليه . لا أشرك به شيئاً .

* * *

---

(1) سورة القصص : الآية 88 .

(2) سورة المائدة : الآية 35 .

(3) العمارة : هي الحلقة التي يذكر فيها اسم الصدر في شطحات منتظمة .

الرحلة الموفقة

في مصر

لم تطل إقامتي في طرابلس عاصمة ليبيا ، إلاّ بقدر ما حصلت على تأشيرة من السفارة المصرية للدخول إلى أرض الكنانة .

وقد التقيت بعض أصدقائي هناك فأعانوني شكر الله سعيهم ، وفي طريقي إلى القاهرة ، وهو طريق طويل يدوم ثلاثة أيّام بلياليها ، كنت في سيارة أجرة جمعتني بأربعة مصريين عاملين في ليبيا وعائدين إلى وطنهم ، وخلال السّفر ؛ كنت أحدّثهم وأقرأ لهم القرآن فأحبّوني ودعاني كل منهم للنزول عنده ، وتخيّرت من بينهم من ارتاحت نفسي إليه لورعه وتقواه اسمه أحمد ، وأولاني من الضيافة والقبول ما هو أهل له جزاه الله ، وأمضيت عشرين يوماً بالقاهرة ، زرت خلالها الموسيقار فريد الأطرش في عمارته على النيل ، فقد كنت معجباً به لما قرأته عن أخلاقه وتواضعه في مجلّات مصرية تباع عندنا في تونس ، ولم يكن حظّي منه سوى عشرين دقيقة لأنّه كان خارجاً للمطار ليسافر إلى لبنان ، وزرت الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد المقرىء الشهير وكنت معجباً به أشدّ الاعجاب ، بقيت معه ثلاثة أيّام ، كان النقاش خلالها مع أقاربه وأصدقائه في مواضيع متعدّدة ، وكانوا يعجبون لحماسي وصراحتي وكثرة اطّلاعي ، فإذا تحدّثوا عن الفن غنّيت وإذا تحدّثوا عن الزهد والتصوّف ذكرت لهم أنّي من الطريقة التيجانية والمدنية أيضاً ، وإذا تحدّثوا عن الغرب حكيت لهم عن باريس ، ولندن ، وبلجيكا ، وهولاندا ، وإيطاليا ، واسبانيا ، التي زرتها خلال العطل الصيفية ، وإذا تحدّثوا عن الحجّ ، فاجأتهم بأنّي حججت وإنّي ذاهب إلى العمرة وحكيت

لهم عن أماكن لا يعرفها حتى الذي حجّ سبع مرّات ؛ كغار حرّاء وغار ثور ، ومذبح إسماعيل ، وإذا تحدّثوا عن العلوم والاختراعات ، شفيت غليلهم بالأرقام والمصطلحات ، وإذا تحدّثوا عن السياسة أفحمتهم بما عندي من آراء قائلاً : (رحم الله الناصر صلاح الدّين الأيوبي ، الذي حرّم على نفسه التبسّم فضلاً عن الضحك ، وعندما لامه الناس المقرّبون إليه وقالوا له : كان رسول الله (ص) لا يُرى إلاّ باسم الثّغر ! أجابهم : كيف تريدون منّي أن أتبسّم والمسجد الأقصى يحتلّه أعداء الله ؟ ! لا والله لن أتبسّم حتّى أحرّره ، أو أهلك دون ذلك) .

وكان شيوخ من الأزهر يحضرون تلك الجلسات ، ويعجبون لما أحفظ من أحاديث وآيات ، وما أملكه من حجج دامغة ، فكانوا يسألونني عن الجامعة التي تخرجت منها ، فأفخر بأنّي من خرّيجي جامعة الزيتونة ، وهي تأسست قبل الأزهر الشريف ، وأضيف بأنّ الفاطميين الذين أسّسوا الأزهر انطلقوا من مدينة المهدية بتونس .

كذلك تعرفت في جامعة الأزهر الشريف على العديد من العلماء الأفاضل الذين أهدوني بعض الكتب ، وكنت يوماً ما في مكتب، أحد المسؤولين عن شؤون الأزهر ، إذ أقبل أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة المصرية ودعاه لحضور تجمّع المسلمين والأقباط في أكبر الشركات المصرية للسكك الحديدية بالقاهرة، على أثر أعمال تخريبيّة وقعت بعد حرب حزيران ، فأبى أن يذهب إلاّ وأنا معه ، وجلست في منصّة الشرف بين العالم الأزهري ، والأب شنودة ، وطلبوا منّي إلقاء كلمة في الحاضرين ، ففعلت بكل سهولة ، لما تعودته من إلقاء المحاضرات في المساجد واللجان الثقافية في بلادي .

والمهم من كل ما حكيته في هذا الفصل ، هو أنّ شعوري بدأ يكبر وركبني بعض الغرور ، وظننت فعلاً بأنّني أصبحت عالماً ، كيف لا وقد شهد لي بذلك علماء الأزهر الشريف ومنهم من قال لي : يجب أن يكون مكانك هنا في الأزهر ، وممّا زادني فخراً واعتزازاً بالنفس، أنّ رسول الله (ص) أذن لي في الدخول لرؤية مخلّفاته ، حسب ما ادّعاه المسؤول عن مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة ، وقد

أدخلني منفرداً إلى حجرة لا تفتح إلّا إذا فتحها هـو ، وأغلق الباب خلفي وفتـح الخـزانة وأخـرج لي قميص رسـول الله (ص) ، فقبّلتـه وأراني بعض المخلّفـات الأُخـرى ، وخرجت من عنـده باكيـاً متأثّـراً على عنـاية الـرسول بي شخصيـاً ، وخصوصاً أنّ هذا المسؤول لم يطلب منّي نقوداً ، بل امتنع وأخذ مني شيئاً بسيطاً بعد إلحاحي وهنّاني مبشّراً ؛ بأنّني من المقبولين عند حضرة الرسول الأكرم .

وربّما أثّر هذا الحادث في نفسي ، وجعلني أفكّـر مليّاً عـدّة ليال في مـا يقولـه الوهابيـون ، من أنّ الرسـول مات وانتهى أمـره كغيره من الأمـوات ، فلم أرتح لهذه الفكرة ، بل وتيقنت تفاهة هذا الاعتقاد ، فإذا كـان الشهيد الـذي يقتل في سبيـل الله ليس بميّت ، بـل هـو حيّ يـرزق عنـد ربّـه ، فكيف بسيـد الأولـين والآخـرين ؟ وزاد هذا الشعـور قوّة ووضـوحاً ، مـا تلقيتـه في سـابق حيـاتي من تعاليم الصوفية ، الذين يعطون لأوليائهم وشيوخهم صلاحية التصرّف والتأثير في مجريات الأُمور ، ويعترفون بأنّ الله وحده هو الـذي أعطاهم هـذه الصلاحيـة ، لأنّهم أطاعوه سبحانه ورغبوا في ما عنده ، ألم يقـل في حديث قدسي : ﴿ **عبـدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون** ﴾ .

بدأ الصراع الدّاخلي يتجاذبني ، وأنهيت إقامتي في مصر بعد أن قمتُ خلال الأيـام الأخيرة بـزيارة المسـاجد المتعـددة ، وصلّيت في جميعها من مـالك إلى أبي حنيفـة إلى مسجـد الشـافعي وأحمـد بن حنبـل ، ثم إلى السيـدة زينب وسيـدنـا الحسـين ، كما زرت زاويـة التيجـانيـة ، ولي في ذلـك حكـايـات طـويلة يـطول شرحها ، وقد رمت الاختصار .

* * *



لقاء في الباخرة

وسافرت إلى الاسكندرية في اليوم المقرّر ، حسب حجز المكان في الباخرة المصرية التي تسافر إلى بيروت ، ووجدت نفسي مرهقاً متعباً جسدياً وفكرياً ، وأنا ملقى على السرير المخصص لي ، فنمت قليلاً ، وكانت الباخرة قد أبحرت منذ ساعتين أو ثلاثة ، واستيقظت على صوت مجاوري وهو يقول : يبدو أنّ الأخ متعبٌ .

قلت : نعم أتعبني السفر من القاهرة إلى الاسكندرية ، وقد بكّرت للوصول على الموعد فلم أنم البارحة إلاّ قليلاً .

وفهمت من لهجته أنّه غير مصري ، ودفعني فضولي كعادتي إلى أن أتعرّف عليه ، فعرّفته بنفسي وعرفت أنّه عراقي ، وهو أُستاذ في جامعة بغداد اسمه منعم ، وقد جاء إلى القاهرة لتقديم أطروحة الدكتوراه في الأزهر .

وبدأنا الحديث عن مصر وعن العالم العربي والاسلامي ، وعن هزيمة العرب وانتصار اليهود وكان الحديث ذو شجون ، قلت في معرض كلامي : إنّ سبب الهزيمة هو انقسام العرب والمسلمين إلى دويلات وإلى طوائف ومذاهب متعددة ، ورغم كثرة عددهم ، فلا وزن لهم ولا اعتبار في نظر أعدائهم .

وتكلمنا كثيراً عن مصر والمصريين ، وكنّا متّفقين على أسباب الهزيمة ، وأضفت ؛ بأنّني ضد هذه الانقسامات التي ركّزها الاستعمار فينا ليسهل عليه احتلالنا وإذلالنا ، ونحن ما زلنا نفرّق بين المالكية والأحناف ، ورويت له قصّة

مؤسفة وقعت لي ، عندما دخلت إلى مسجد أبي حنيفة في القاهرة وصلّيت معهم صلاة العصر جماعة ، فما راعني بعد الصلاة ، إلاّ والرجل الذي كان قائماً بجانبي يقول لي في غضب : (لماذا لا تكتّف يديك في الصلاة ؟) فأجبته بأدب واحترام ؛ أنّ المالكية يقولون بالسدل وأنا مالكي فقال لي : (اذهب إلى مسجد مالك وصلّ هناك) فخرجت مستاءاً ناقماً على هذا التصرّف الذي زادني حيرة على حيرتي .

وإذا بالأستاذ العراقي يبتسم ويقول لي : إنّه هو الآخر شيعي .

فاضطربت لهذا النبأ وقلت غير مبال : لو كنت أعلم أنّك شيعي ، لما تكلمت معك . قال : ولماذا ؟ قلت : لأنّكم غير مسلمين ، فأنتم تعبدون علي بن أبي طالب ، والمعتدلون منكم يعبدون الله ، ولكنهم لا يؤمنون برسالة النبي محمد (ص) ، ويشتمون جبرائيل ويقولون : بأنّه خان الأمانة ، فبدلاً من أداء الرسالة إلى علي أدّاها إلى محمد . واسترسلت في مثل هذه الأحاديث ، بينما كان مرافقي يبتسم حيناً ويحوقل[1] أحياناً ، ولمّا أنهيت كلامي سألني من جديد : أنت أستاذ تدرّس الطلاّب ؟ قلت : نعم ، قال : إذا كان تفكير الاستاذ بهذا الشكل ، فلا لوم على عامّة الناس الذين لا ثقافة لهم ! قلت : ماذا تقصد ؟ أجاب : عفواً ولكن من أين لك هذه الادعاءات الكاذبة ؟ قلت : من كتب التاريخ ومّما هو مشهور عند الناس كافّة .

قال : لنترك الناس كافّة ، ولكن أي كتاب تاريخ قرأت ؟ بدأت أعدّد بعض الكتب مثل كتاب (فجر الاسلام) و (ضحى الاسلام) و (ظهر الاسلام) لأحمد أمين وغيرها ، قال : ومتى كان أحمد أمين حجّة على الشيعة ؟ وأضاف : إنّ مقتضى العدل والموضوعية أن تتبينّ الأمر من مصادرهم الأصيلة المعروفة .

قلت : وكيف لي أن أتبينّ في أمر معروف لدى الخاص والعام ؟ قال : إنّ أحمد أمين نفسه زار العراق ، وكنت من بين الأساتذة الذين التقوا به في النجف

---

(1) حوقل ، يحوقل : يكثر من قول : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم .

وعندما عاتبناه على كتاباته عن الشيعة أعتذر قائلاً : إنّي لا أعلم عنكم أي شيء وإنّي لم أتّصل بالشيمة من قبل وهذه أول مرة ألتقي فيها بالشيعة .

قلنا له ربّ عذر أقبح من ذنب فكيف لا تعرف عنّا أي شيء ومع ذلك تكتب عنّا كلّ شيء قبيح ؟ ! ثم أضاف قائلاً :

يا أخي نحن إذا حكمنا بخطأ اليهود والنّصارى من خلال القرآن الكريم وهو عندنا الحجّة البالغة فموقفنا ضعيف لأنّهم لا يعترفون به ، وتكون الحجة أقوى وأبلغ عندما نبيّن خطأهم من خلال كتبهم التي يعتقدونها ، وذلك من باب (وشهد شاهد من أهلها) .

نزل كلامه هذا على قلبي نزول الماء الزلال على قلب العطشان ورأيتني أتحوّل من ناقد حاقد إلى باحث فاقد ، لأنّني أحسست بمنطق سليم وحجّة قويّة ، وما عليّ لو تواضعت قليلاً وأصغيت إليه ! قلت له :

أنت إذاً ممّن يعتقدون برسالة نبيّنا محمد ؟ أجاب : (ص) ، وكل الشيعة مثلي يعتقدون ذلك وما عليك يا أخي إلاّ أن تتحقق من ذلك بنفسك حتى تكون على بيّنة من الأمر ، ولا تظن بإخوانك الشيعة الظنونا (لأنّ بعض الظنّ إثم) وأضاف قائلاً : وإذا كنت فعلاً تريد معرفة الحقيقة وتطّلع عليها بعينيك ويستيقن بها قلبك ، فأنا أدعوك لزيارة العراق والاتصال بعلماء الشيعة وعوامّهم وستعرف عند ذلك أكاذيب المغرضين والحاقدين .

قلت : إنّها أمنيتي أن أزور العراق في يوم من الأيام وأتعرّف على آثارها الاسلامية المشهورة التي خلّفها العبّاسيون وعلى رأسهم هارون الرشيد ، ولكن ؛ أوّلاً : إمكانياتي المادية محدودة وقد رتّبتها لأداء العمرة ، ثانياً : إنّ جواز السفر الذي أحمله لا يسمح لي بالدخول إلى العراق ، قال : أوّلاً عندما قلت لك أدعوك لزيارة العراق فذلك يعني أنّي أتكفّل بتغطية نفقات سفرك من بيروت إلى بغداد ذهاباً وإياباً وإقامتك بالعراق ستكون معي في بيتي فأنت ضيفي ، وثانياً بشأن الجواز الذي لا يسمح لك بالدخول إلى العراق فلنترك ذلك إلى الله سبحانه وتعالى فإذا قدّر لك أن تزور فسوف يكون ذلك حتى بدون جواز سفر ، وسوف نحاول الحصول على تأشيرة للدخول فور وصولنا إلى بيروت .

فرحت كثيراً بهذا العرض ووعدت صاحبي بأن أردّ عليه الجواب غداً إن شاء الله تعالى .

خرجت من غرفة النوم وصعدت إلى سطح الباخرة أتنفّس الهواء الجديد ، وأنا أفكّر تفكيراً جديداً وعقلي شارد في البحر الذي ملأ الآفاق ، وأسبّح بحمد ربّي الذي خلق الأكوان وأحمده ، وأشكره على أن أوصلني إلى هذا المكان وأسأله سبحانه وتعالى أن يحميني من الشرّ وأهله ويحفظني من الزّلل والخطأ ، وسرح تفكيري وأنا أستعرض شريطاً أمام عينيّ للأحداث التي عشتها والسعادة التي تذوقتها من طفولتي إلى ذلك اليوم وأحلم بمستقبل أفضل ، وأشعر كأنّ الله ورسوله يحيطانني بعناية خاصّة ، فالتفتّ صوب مصر التي ما زالت بعض شواطئها تتراءى من حين لآخر مودّعاً تلك الأرض التي فيها قبّلت قميص رسول الله (ص) وهي أعزّ ما بقي عندي من تلك الذكريات التي عشتها في مصر ، وعدت أستعرض كلام الشيعي الجديد الذي أدخل عليّ فرحاً كبيراً لتحقيق حلم كان يراودني منذ صغري ألا وهو زيارة العراق ، تلك البلاد التي رسمها في ذهني بلاط الرشيد والمأمون مؤسس دار الحكمة التي كان يقصدها طلّاب العلوم المختلفة من الغرب أيام ازدهار الحضارة الاسلامية ، أضف إلى ذلك فهي بلاد القطب الربّاني والشيخ الصمداني سيدي عبد القادر الجيلاني الذي ملأ صيته الأقطار كلّها ودخلت طريقته كل قرية وعلت همّته كل همّة فها هي عناية جديدة من الله لتحقيق هذا الحلم ، وبدأت أتخيّل وأسبح في بحر الخيال والآمال حتى نبهني مذياع الباخرة وهو ينادي المسافرين إلى التوجّه للمطعم لتناول العشاء ، ذهبت صوب المكان المذكور فإذا الناس يتزاحمون كعادتهم في كل تجمّع وكل واحد يريد الدخول قبل غيره وكثر الصياح والهرج ، وإذا بالشيعي يمسك بثوبي ليسحبني بلطف إلى الخلف وهو يقول : تعال يا أخي لا تتعب نفسك فسوف نأكل فيما بعد بدون زحمة وقد فتشت عنك في كل مكان ، ثم سألني : هل صليت ؟ قلت : لم أصلّ بعد ، فقال : إذاً تعال نصلّي ثم نأتي للأكل وقد خلص هؤلاء من الزّحام والصياح .

إستحسنت رأيه وصاحبته إلى مكان خال من الناس حيث توضّأت وقدّمته ليصلّي إماماً قصد اختباره كيف يصلّي على أن أعيد صلاتي فيما بعد ، وما إن أقام

الصلاة لأداء فريضة المغرب واسترسل في القراءة والدّعاء حتّى غيّرت رأيي ، وتخيّلت بأنّي مأمومٌ بأحد الصحابة الكرام الذين أقرأ عنهم وعن ورعهم وتقواهم ، وبعد فراغه من الصلاة ، أطال الدعاء ولم أسمع قبلاً هذه الأدعية في بلادنا ولا في البلاد التي عرفتها ، وكنت أطمئنّ وأرتاح كلّما سمعته يصلّي على محمد وآله ويثني عليه بما هو أهله .

بعد الصلاة لاحظت في عينيه أثر البكاء كما سمعته يدعو الله أن يفتح بصيرتي ويهديني .

اتّجهنا إلى المطعم وقد بدأ يخلو من الآكلين ودخلنا فلم يجلس حتى أجلسني وجيء لنا بصحنين من الأكل ، فرأيته يغيّر صحنه بصحني لأنّ نصيبي من اللحم كان أقلّ من نصيبه وأخذ يلحّ عليّ وكأنّي ضيفه ويلاطفني ويروي لي روايات لم أسمعها من قبل تخصّ الأكل والشرب وآداب المائدة .

وأعجبت بأخلاقه ، وصلّى بنا صلاة العشاء وأطالها بالدّعاء حتى أبكاني وسألت الله سبحانه أن يغيّر ظنّي فيه لأنّ بعض الظنّ إثم .

ولكن من يدري ؟ !

ونمت أحلم بالعراق وألف ليلة وليلة ، واستيقظت على ندائه يوقظني لصلاة الفجر ، وصلّينا وجلسنا نتحدّث عن نعم الله على المسلمين .

ورجعنا للنوم ثانية ، ولمّا أفقت وجدته جالساً على سريره وفي يده مسبحة وهو يذكر الله فارتاحت له نفسي واطمأنّ له قلبي واستغفرت ربّي .

وكنّا نتغذى في المطعم عندما سمعنا المذيع يعلن عن اقتراب الباخرة من الشواطيء اللبنانية وسوف نكون في ميناء بيروت بحول الله بعد ساعتين .

سألني : هل فكّرت مليّاً وماذا قررت ؟

قلت : إذا سهّل الله سبحانه الحصول على تأشيرة الدخول فلا أرى مانعاً وشكرته على دعوته .

نزلنا في بيروت حيث أمضينا تلك الليلة ومن بيروت سافرنا إلى دمشق حيث اتّجهنا فور وصولنا إليها إلى سفارة العراق ، وحصلت على التأشيرة بسرعة مذهلة لم أتصورها ، وخرجنا من هناك وهو يهنّئني ويحمد الله على إعانته .

زيارة العراق لأول مرّة

سافرنا من دمشق إلى بغداد في إحدى سيارات شركة النجف العالمية الضخمة المكيّفة وكانت الحرارة تبلغ أربعين درجة مئوية في بغداد ، عندما وصلنا اتّجهنا فوراً إلى بيته في حيّ جميلة ، دخلت البيت المكيّف واسترحت ثمّ جاءني بقميص فضفاض يسمّونه (دشداشة) .

أحضر الفاكهة والأكل ودخل أهله يسلّمون عليّ في أدب واحترام وكان والده يعانقني وكأنّه يعرفني من قبل ، أمّا والدته فوقفت بالباب في عباءة سوداء تسلّم وترحب ، واعتذر صديقي عن والدته بأنّ المصافحة عندهم محرمّة وأعجبت أكثر وقلت في نفسي : هؤلاء الذين نتهمهم نحن بالخروج عن الدّين يحافظون عليه أكثر منّا .

وقد لمست خلال أيام السّفر التي قضيتها معه نبل أخلاق وعزّة نفس في كرامة وشهامة وتواضع وورع لم أعهده من قبل .

وشعرت بأنّي لست غريباً بل وكأنّي في بيتي .

صعدنا في الليل إلى سطح الدار حيث فرشت لنا أماكن للنوم ، وبقيت حتى ساعة متأخّرة أهذي أفي حلم أنا أم في يقظة ! أحقّاً أنّني في بغداد بجوار سيدي عبد القادر الجيلاني .

ضحك صديقي متسائلاً : ماذا يقول التونسيون عن عبد القادر

الجيلاني ؟ ، وبدأت أحكي لـه عن الكرامـات التي تروى عنـدنا وعن المقـامات التي تشيّد في ربوعنـا باسمـه وأنّه قـطب الدّائـرة وكما أنّ محمـد رسول الله (ص) هـو سيد الأنبياء فعبد القادر هو سيد الأولياء وقدمه عـلى رقبة كـل الأولياء وهـو القائـل : (كل الناس يطوف بالبيت سبعاً ، وأنا البيت طائفاً بخيامي) .

وحاولت إقناعه بأن الشيخ عبد القـادر يأتي إلى بعض مـريديـه ومحبّيه جهـرة ويعالج أمراضهم ويفرّج كربتهم ونسيت أو تناسيت العقيدة الوهابية التي تأثّـرت بها من أنّ ذلك شرك بالله ولمّا شعرت بعدم حمـاس صديقي حـاولت إقناع نفسي بأنّ ما قلته لا يصح ، وسألته عن رأيه .

قـال صديقي وهـو يضحك : ثم الليلة واسـترح من التعب الذي لقيتـه في السفـر وغداً إن شـاء الله سنزور الشيـخ عبد القـادر . وطرت فـرحاً هـذا الخـبر وودت لو طلع الفجر وقتئذٍ .

فاستغرقت في نوم عميق .

* * *

عبد القادر الجيلاني وموسى الكاظم

ذهبنا بعد الفطور إلى باب الشيخ ، ورأيت المقام الذي طالما تمنّيت زيارته ، وهرولت كأنّي مشتاق لرؤيته ودخلت أتلهّف كأنّي سوف أرتمي في أحضانه وصديقي يتبعني أينما رحت ، واختلطت بالزوّار الذين يزدحمون على المقام ازدحام الحجّاج على بيت الله الحرام ، ومنهم من يلقى قبضات من الحلوى والزوّار يتسابقون لالتقاطها ، وأسرعت لأخذ اثنتين منها أكلت إحداها على الفور للبركة وخبّأتُ الأخرى في جيبي للذكرى ، صلّيت هناك ودعوت بما تيسّر لي وشربت الماء وكأنّي أشرب من ماء زمزم ، ورجوت صديقي أن ينتظرني ، ريثما أكتب إلى أصدقائي في تونس بعض البطاقات البريدية التي اشتريتها من هناك وتمثّل كلّها صورة مقام الشيخ عبد القادر بالقبّة الخضراء ، وأردت بذلك أن أبرهن لاصدقائي وأقاربي في تونس عن علّو همّتي التي أوصلتني لذلك المقام الذي لم يصلوا إليه .

بعد ذلك تناولنا طعام الغداء في مطعم شعبي وسط العاصمة ، ثم أخذني صديقي في سيارة أجرة إلى الكاظمية ، عرفت هذا الاسم من خلال ما ذكره صديقي لسائق السيارة ، وصلنا إليها وما أن نزلنا من السيارة نتمشّى حتى اختلطنا بمجموعات كبيرة من الناس يمشون في نفس الاتجاه نساءً ورجالاً وأطفالاً ويحملون بعض الأمتعة ، ذكّرني ذلك بموسم الحجّ ولم أكن بعد أعرف وجهة المكان المقصود حتّى تراءت لي قباب ومآذن ذهبية يأخذ أشعاعها بالأبصار ، وفهمتُ أنّه مسجد من مساجد الشيعة لسابق علمي بأنّهم يزخرفون

مساجدهم بالذهب والفضّة التي حرّمها الاسلام ، وشعرت بحرج في الدّخول إليها ، غير أنّني ـ مراعاة لعواطف صديقي ـ اتّبعته من غير اختيار .

دخلنا من الباب الأوّل وبدأت ألاحظ تمسّح الشيوخ بالأبواب وتقبيلها ، وسلّيت نفسي بقراءة لوحة كبيرة كتب عليها (ممنوع دخول النساء السافرات) مع حديث للامام علي يقول فيه : « يأتي على الناس زمان تخرج فيه النساء كاشفات عاريات »[1] . . إلى آخره ، وصلنا إلى المقام وبينما كان صديقي يقرأ إذن الدخول ، كنت أنظر إلى الباب وأعجب من هذا الذهب والنقوش التي تملأ صفحاته وكلّها آيات قرآنية .

دخل صديقي ودخلت خلفه وأنا على حذر تجول بخاطري عدّة أساطير قرأتها في بعض الكتب التي تكفّر الشيعة ورأيت داخل المقام نقوشاً وزخرفة لم تخطر على بالي ودهشت لما رأيت وتصورت نفسي في عالم غير مألوف ولا معروف ، ومن حين إلى آخر أنظر باشمئزاز إلى هؤلاء الذين يطوفون حول الضريح باكين مقبّلين أركانه وقضبانه بينما يصلّي البعض الآخر قرب الضريح ، واستحضرت في خاطري حديث الرسول (ص) وهو يقول : « لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أوليائهم مساجد »[2] .

وابتعدت عن صديقي الذي ما أن دخل حتى أجهش بالبكاء ثم تركته يصلّي واقتربت من اللّوحة المكتوبة للزيارة وهي معلّقة على الضريح .

وقرأتها ولم أفهم الكثير منها بما حوته من أسماء غريبة عنّي أجهلها ، ابتعدت في زاوية وقرأت الفاتحة ترحّماً على صاحب الضريح قائلاً : اللهم إن كان هذا الميت من المسلمين فارحمه فأنت أعلم به منّي .

واقترب منّي صديقي وهمس في أذني قائلاً : إن كانت لديك حاجة فاسأل الله في هذا المكان لأنّنا نسمّيه باب الحوائج ، وما أعطيت أهميّة لقوله سامحني الله ، بل كنت أنظر إلى الشيوخ الطاعنين في السنّ وعلى رؤوسهم عمائم بيض وسود

---

(1) منتخب الأثر ص 426 .

(2) صحيح البخاري ج 1 ص 230 ، صحيح مسلم ج 5 ص 12 ، وفيهما : قبور أنبيائهم .

وفي جباههم آثار السّجود ، وزاد في هيبتهم تلك اللّحى التي أعفوها وتنطلق منها روائح طيبة ولهم نظرات حادّة مهيبة .

وما أن يدخل الواحد منهم حتّى يجهش بالبكاء ، وتساءلت في داخلي أيمكن أن تكون هذه الدموع كاذبة ؟؟ أيمكن أن يكون هؤلاء الطاعنون في السنّ مخطئين ؟ .

خرجت متحيراً مندهشاً ممّا شاهدته بينما كان صديقي يرجع أدراجه احتراماً لئلاّ يعطي المقام ظهره .

سألته : من هو صاحب هذا المقام ؟

قال : الامام موسى الكاظم .

قلت : ومن هو الامام موسى الكاظم ؟

قال : سبحان الله ! أنتم إخواننا أهل السنّة والجماعة تركتم اللبّ وتمسّكتم بالقشور .

قلت غاضباً منقبضاً : كيف تمسكنا بالقشور وتركنا اللّب ؟ .

فهدّأني وقال : يا أخي أنت منذ دخلت العراق لا تفتأ تذكر عبد القادر الجيلاني فمن هو عبد القادر الجيلاني الذي استوجب كل اهتمامك ! ؟

أجبت على الفور وبكل فخر : هو من ذرية الرسول ، ولو كان نبي بعد محمد لكان عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه .

قال : يا أخَ السّماوي هل تعرف التاريخ الاسلامي ؟ .

وأجبت في غير تردد بنعم ! وفي الحقيقة ما عرفت من التاريخ الاسلامي قليلاً ولا كثيراً لأنّ أساتذتنا ومعلّمينا كانوا يمنعوننا من ذلك مدّعين بأنّه تاريخ أسود مظلم لا فائدة من قراءته ، وأذكر على سبيل المثال أنّ الأستاذ المختص في تدريسنا مادة البلاغة كان يدّرسنا الخطبة الشقشقية[1] من كتاب (نهج البلاغة) للامام علي ، واحترت كما احتار عدد من التلاميذ عند قراءتها ، وتجرّأت وسألته إن كان هذا من كلام الامام عليّ حقّاً ، فأجاب : قطعاً ومن لمثل هذه البلاغة

---

(1) نهج البلاغة محمد عبدة ص 33 خطبة 3 .

سواه .

ولو لم يكن كلامه كرّم الله وجهه ، لم يكن علماء المسلمين أمثال الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ليهتمّ بشرحه .

عند ذلك قلت : إنّ الامام علي يتّهم أبا بكر وعمر بأنهما اغتصبا حقّه في الخلافة ، فثارت ثائرة الأستاذ وانتهرني بشدّة وهدّدني بالطرد ، إن عدّت لمثل هذا السؤال ، وأضاف قائلاً : نحن ندرّس بلاغة ولا ندرّس التاريخ ، وما يهمّنا شيئاً من أمر التاريخ الذي سوّدت صفحاته الفتن والحروب الدّامية بين المسلمين ، وكما طهّر الله سيوفنا من دمائهم فلنطهّر ألسنتنا من شتمهم .

ولم أقنع بهذا التعليل ، وبقيت ناقماً على ذلك الأستاذ الذي يدرّسنا بلاغة بدون معانٍ ، وحاولت مراراً عديدة دراسة التاريخ الاسلامي ، ولكن لم تتوفّر عندي المصادر والامكانات لتوفير الكتب ، وما وجدت أحداً من شيوخنا وعلمائنا يهتمّ بها وكأنّهم تصافقوا على طيّها وعدم النظر فيها ، فلا تجد أحداً يملك كتاباً تاريخياً كاملاً .

فلمّا سألني صديقي عن معرفة التاريخ ، أحببت معاندته فأجبته بنعم ولسان حالي يقول : أعرف أنّه تاريخ مظلم مسود لا فائدة فيه ، إلاّ الفتن والأحقاد والتناقضات .

قال : هل تعرف متى ولد عبد القادر الجيلاني ، في أي عصر ؟ قلت : حسب التقريب في القرن السادس أو القرن السابع . قال : فكم بينه وبين رسول الله (ص) ؟ قلت : ستة قرون . قال : فإذا كان القرن فيه جيلان على أقل تقدير ، فيكون نسبة عبد القادر الجيلاني للرسول بعد اثني عشر جدّاً . قلت : نعم ! قال : فهذا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة الزهراء يصل نسبه إلى جدّه رسول الله بعد أربعة أجداد فقط .

أو بالأحرى فهو من مواليد القرن الثاني للهجرة فأيهما أقرب إلى رسول الله موسى أم عبد القادر ؟ .

وبدون تفكير قلت : هذا أقرب طبعاً ! ولكن لماذا نحن لا نعرفه ولا نسمع

بـذكره ؟ قـال : هذا هـو بيت القصيد ، ولـذلـك قلت بـأنّكم ـ واسمح لي أن أعيدها ـ تركتم اللّب وتمسكتم بالقشور ، فلا تؤاخذني وأرجوك المعذرة .

كنّـا نتحدّث ونمشي ونتـوقّف من حين لآخـر حتّى وصلنا إلى منتـدي علمي يجلس فيه الطلبـة والأساتـذة ويتبادلـون الآراء والنظريـات ، هناك جلسنـا وكان يبحث بعينيه في الجالسـين وكأنّـه على مـوعد مع أحدهم ؛ جـاء أحد الـوافدين وسلّم علينا وفهمت أنّه زميله في الجامعة وسأله عن شخص علمت من الأجـوبة أنّه دكتور وسيـأتي عمّا قـريب ، في الأثناء قـال لي صديقي : أنـا جئت بك لهـذا المكان قاصداً أن أعرّفك بالـدكتور المتخصّص في الأبحـاث التاريخيـة وهو أستـاذ التاريخ في جامعة بغداد وقد حصـل على الـدكتوراه في أطـروحته التي كتبهـا عن عبد القادر الجيلاني وسوف ينفعك بحول الله ، لأنّني لست مختصّاً في التاريخ .

شربنا بعض العصير البـارد حتّى وصل الـدكتور ونهض إليـه صديقي مسلّماً عليه وقدّمني إليه وطلب منه أن يقدم إليّ لمحة عن تاريخ عـبـد القادر الجيـلاني ، وأستأذننا في الانصراف لبعض شؤونه .

طلب لي الدكتور مشروباً بارداً وبـدأ يسألني عن اسمي وبـلادي ومهنتي كما طلب مني أن أحدّثه عن شهرة عبد القادر الجيلاني في تونس .

ورويت له الكثير في هذا المجال حتّى قلت : والناس عندنا يعتقدون ؛ بـأنّ الشيـخ عبد القـادر كان يحمـل رسول الله عـلى رقبته ليلة المعـراج عندمـا تـأخّـر جـبريل خـوفاً من الاحـتراق وقال لـه رسول الله (ص) : « قـدمي على رقبتـك وقدمك على رقاب كل الأولياء إلى يوم القيامة » .

وضحك الدكتور كثيراً عند سماعه كلامي وما دريت أكان ضحكه على هـذه الروايات أم كان على الأستاذ التونسي الذي بين يديه ! بعد مناقشة قصيرة حـول الأولياء والصالحين قال : إنّه بحث طوال سبع سنوات سافر خلالها إلى لاهور في الباكستان وإلى تركيا وإلى مصر وبريطانيا وكل الأماكن التي بها مخـطوطات تنسب إلى عبـد القادر الجيـلاني واطّلع عليهـا وصـوّرهـا ، وليس فيهـا أي إثبـات بـأنّ عبد القادر الجيلاني هو من سـلالة الـرسول ، وغـاية مـا هنالـك بيت من الشعر ينسب إلى أحد أحفاده يقول فيه : (وجدّي رسول الله) وقد يحمل ذلك كما قال

بعض العلماء، على تأويل حديث النبي (ص): «أنا جدّ كل تقي» وزادني بأنّ التاريخ الصحيح يثبت أنّ عبد القادر أصله فارسي وليس عربياً أصلاً ، وقد ولد في بلدة بإيران تسمّى جيلان ، وإليها ينسب عبد القادر ، وقد نزح إلى بغداد حيث تعلّم هناك وجلس يدرّس في وقت كان فيه الانحلال الخلقي فاشياً .

وكان الرجل زاهداً فأحبّه الناس ، وبعد وفاته أسّسوا الطريقة القادرية نسبة إليه ، كما يفعل دائماً أتباع كل متصوف ، وأضاف قائلاً : حقّاً أنّ حالة العرب مؤسفة من هذه الناحية .

وثارت في رأسي حمّية الوهابيّة فقلت للدكتور : إذاً أنت وهابيّ الفكر يا حضرة الدكتور فهم يقولون كما تقول ليس هناك أولياء .

فقال : لا أنا لست على رأي الوهابية .

والمؤسف عند المسلمين هو إمّا الافراط وأمّا التفريط ، فأمّا أن يؤمنوا ويصدّقوا بكل الخرافات التي لا تستند إلى دليل ولا عقل ولا شرع ، وأمّا أن يكذّبوا بكل شيء حتّى بمعجزات نبيّنا محمد وأحاديثه ؛ لأنّها لا تتماشى وأهواءهم وعقائدهم التي يعتقدونها وقد شرّقت طائفة وغرّبت أُخرى ، فالصوفية يقولون بإمكانية حضور الشيخ عبد القادر الجيلاني مثلاً في بغداد وفي نفس الوقت في تونس ، وقد يشفي مريضاً في تونس وينقذ غريقاً في نهر دجلة في نفس اللحظة فهذا إفراط ، والوهابية ـ كردّ فعل على الصوفية ـ كذّبوا بكل شيء حتى قالوا بشرك من توسّل بالنبي ، وهذا تفريط لا يا أخي نحن كما قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾[1] .

أعجبني كلامه كثيراً وشكرته مبدئياً ، وأبديت قناعتي بما قال .

فتح محفظته وأخرج كتابه عن عبد القادر الجيلاني وأهدانيه ، كما دعاني للضيافة فاعتذرت وبقينا نتحدّث عن تونس وعن شمال إفريقيا حتى جاء صديقي ورجعنا إلى البيت ليلاً بعد أن أمضينا كامل اليوم في الزيارات والمناقشات ، وشعرت

---

(1) سورة البقرة : الآية 143 .

بالتعب والارهاق فاستسلمت للنوم .

استيقظت باكراً وصلّيت وجلست أقرأ الكتاب الذي يبحث في حياة عبد القادر ، فما أفاق صديقي حتّى كنت قد أتممت نصفه ، وكان يتردّد عليّ من حين إلى آخر داعياً إيّاي لتناول الفطور فلم أوافق حتّى أنهيت الكتاب وقد شدّني إليه وأدخل عليّ شكّاً لم يلبث طويلاً حتى زال قبل خروجي من العراق .

* * *



الشك والتساؤل

بقيت في بيت صديقي ثلاثة أيام استرحت خلالها وفكّرت ملياً في ما سمعته من هؤلاء الذين اكتشفتهم وكأنّهم كانوا يعيشون على سطح القمر ، فلماذا لم يحدّثنا أحدٌ عنهم إلاّ بما هو مزرٍ ومشين ، لماذا أنا أكرههم وأحقد عليهم دون أن أعرفهم ، لعلّ ذلك ناتج من الاشاعات التي نسمعها عنهم من أنّهم يعبدون علياً وأنّهم ينزلون أئمتهم منزلة الآلهة وأنّهم يقولون بالحلول ، وأنّهم يسجدون للحجر من دون الله ، وأنّهم ـ كما حدّثنا أبي بعد رجوعه من الحجّ ـ يأتون إلى قبر الرسول ليلقون فيه القاذورات والنجاسات وقد أمسكهم السعوديون وحكموا عليهم بالاعدام . . . وأنّهم . . . وأنّهم . . . حدّث ولا حرج .

كيف يسمع المسلمون بهذا ولا يحقدون على هؤلاء الشيعة ولا يبغضونهم ، بل كيف لا يقاتلونهم !

ولكن كيف أصدّق هذه الاشاعات وقد رأيت بعينيّ ما رأيت وسمعت بأذنيّ ما سمعت وها قد مضى على وجودي بينهم أكثر من أسبوع ولم أر منهم ولم أسمع إلاّ الكلام المنطقي الذي يدخل العقول بدون استئذان ، بل قد استهوتني عبادتهم وصلاتهم ودعاؤهم وأخلاقهم واحترامهم لعلمائهم حتّى تمنّيت أن أكون مثلهم ، وبقيت أتساءل : هل حقّاً أنّهم يكرهون رسول الله ؟ ! وكلّما ذكرته وكثيراً ما أذكره لاختبارهم فيصيحون بكل جوارحهم (اللّهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد) وظننت أنّهم ينافقون ، ولكن زال هذا الظن بعدما تصفّحت

كتبهم التي قرأت شيئاً منها ، فوجدت احتراماً وتقديساً وتنزيهاً لشخص الرسول لم أعهده في كتبنا ، فهم يقولون بعصمته (ص) في كل شيء قبل البعثة وبعدها ، بينما نقول نحن أهل السنّة والجماعة بأنّه معصوم في تبليغ القرآن فقط ، وما عدا ذلك فهو بشر يخطيء كغيره ، وكثيراً ما نستدلّ على ذلك بخطئه - (ص) - وتصويب بعض الصحابة رأيهُ ، ولنا في ذلك أمثلة متعدّدة بينما يرفض الشيعة أن يكون رسول الله يخطيء ويصيب غيره ، فكيف أصدّق بعد هذا أنّهم يكرهون رسول الله ؟ كيف .

وتحدثت يوماً مع صديقي ورجوته وأقسمت عليه أن يجيبني بصراحة ، وكان معه الحوار التالي :

- أنتم تُنزلون عليّاً رضي الله عنه وكرّم الله وجهه منزلة الأنبياء لأنّي ما سمعت أحداً منكم يذكره إلاّ ويقول (عليه السلام) .

- فعلاً نحن عندما نذكر أمير المؤمنين أو أحد الأئمة من بنيه نقول (عليه السلام) ، فهذا لا يعني أنّهم أنبياء ، ولكنّهم ذريّة الرسول وعترته الذين أمرنا الله بالصلاة عليهم في محكم تنزيله وعلى هذا يجوز أن نقول : عليهم الصلاة والسلام أيضاً .

- لا يا أخي نحن لا نعترف بالصّلاة والسلام إلاّ على رسول الله والأنبياء الذين سبقوه ولا دخل لعلي وأولاده في ذلك رضي الله عنهم .

- أنا أطلب منك وأرجوك أن تقرأ كثيراً حتى تعرف الحقيقة .

- أيّ الكتب اقرأ يا أخي ؟ ألست أنت الذي قلت لي بأنّ كتب أحمد أمين ليست حجّة على الشيعة ، كذلك فإن كتب الشيعة ليست حجّة علينا ، ولا نعتمد عليها . ألا ترى أنّ كتب النّصارى التي يعتمدونها تذكر أنّ عيسى (ع) قال : « إنّي ابن الله » في حين أن القرآن الكريم - وهو أصدق القائلين - يقول على لسان عيسى بن مريم : ﴿ **ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾[1] .

---

(1) سورة المائدة : الآية 117 .

ـ حسناً قلت : لقد قلت ذلك ، والذي أريده منك هو هذا ، أعني استعمال العقل والمنطق ، والاستدلال بالقرآن الكريم والسنّة الصحيحة ، ما دمنا مسلمين ، ولو كان الحديث مع يهودي أو نصراني لكان الاستدلال بغير هذا .

إذاً ، في أي كتاب سأعرف الحقيقة ، وكل مؤلف وكلّ فرقة وكل مذهب يدّعي أنّه على الحق .

سأعطيك الآن دليلاً ملموساً ، لا يختلف فيه المسلمون بشتّى مذاهبهم وفرقهم ومع ذلك فأنت لا تعرفه !

وقل ربّي زدني علماً .

ـ هل قرأت تفسير الآية الكريمة : ﴿ إن الله وملائكته يصلّون على النبيّ يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً ﴾[1] .

فقد أجمع المفسّرون سنّة وشيعة على أنّ الصحابة الذين نزلت فيهم هذه الآية ، جاؤوا إلى رسول الله فقالوا : يا رسول الله عرفنا كيف نسلّم عليك ولم نعرف كيف نصلّي عليك ! فقال : « قولوا اللّهم صلّ على محمد وآل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد ولا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء » قالوا : وما الصلاة البتراء يا رسول الله ؟ قال : « أن تقولوا اللّهم صلّ على محمد وتصمتوا ، وأنّ الله كامل ولا يقبل إلاّ الكامل »[2] .

ولكل ذلك عرف الصحابة ومن بعدهم التابعون أمر رسول الله فكانوا يصلّون عليه الصلاة الكاملة ، حتّى قال الامام الشافعي في حقّهم :

يا آل بيت رسول الله حبّكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الشأن أنّكم ... من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

كان كلامه يطرق سمعي وينفذ إلى قلبي ويجد في نفسي صدىً إيجابياً ، وبالفعل فقد سبق لي أن قرأت مثل هذا في بعض الكتب ، ولكن لا أذكر في أي

---

(1) سورة الأحزاب : الآية 56 .

(2) تفسير ابن الأثير ج 3 ص 507 ، التبيان ج 8 ص 327 .

كتاب بالضبط ، واعترفت له بأننا عندما نصلّي على النبي نصلّي على آلـه وصحبه أجمعين ، ولكن لا نفرد عليّاً بالسّلام كما يقول الشيعة .

قال : فما رأيك في البخاري ، أهو من الشيعة ؟

قلت : إمام جليل من أئمة أهل السنّـة والجماعـة وكتابـه أصحّ الكتب بعـد كتاب الله . عند ذلك قام وأخرج من مكتبته (صحيح البخاري) وفتحه وبحث عن الصفحة التي يريدها ، وأعطاني لأقرأ فيه : حدّثنـا فلان عن فـلان عن علي (عليـه السـلام) . ولم أصـدّق عينيّ ، واستغـربت حتّى أنّني شككت أن يكـون ذلـك هـو صحيـح البخـاري ، واضـطربت وأعـدت النـظر في الصفحـة وفي الغلاف ، ولمّا أحسّ صديقي بشكّي أخذ منّي الكتاب وأخرج لي صفحـة أُخرى فيها : حدثنا علي بن الحسين (عليهما السـلام) ، فما كـان جوابي بعـدها إلاّ أن قلت : سبحـان الله واقتنـع مني بهـذا الجـواب وتـركني وخـرج ، وبقيت أفكّـر وأراجع قراءة تلك الصفحات وأتثبّت في طبعة الكتـاب فوجـدتها من طبـع ونشر شركة الحلبي وأولاده بمصر .

يا إلهي ؛ لماذا أكـابر وأعـاند وقـد أعطاني حجّـة ملموسـة من أصحّ الكتب عندنا ، والبخـاري ليس شيعياً قـطعاً ، وهـو من أئمة السنّـة ومحدّثيهم ، أأسلم لهم بهذه الحقيقة وهي قولهم علـي (ع) ؟ ولكني أخاف من هذه الحقيقة فلعلّها تتبعها حقائق أُخرى لا أحبّ الاعتراف بها ، وقد انهزمت أمام صديقي مـرّتين ، فقـد تنازلت عن قـداسة عبـد القادر الجيـلاني وسلّمت بأنّ مـوسى الكـاظم أولى منـه ، وسلّمت أيضاً بـأنّ عليّاً (ع) هـو أهل لـذلـك ، ولكنّي لا أريـد هـزيمـة أُخرى ، وأنا الذي كنت منذ أيام قلائل عالماً في مصر أفخر بنفسي ويمجّدني علماء الأزهر الشريف ، أجد نفسي اليوم مهزوماً مغلوباً ومع من ؟ مع الذين كنت ولا أزال أعتقد أنهم على خطأ ، فقد تعودت على أنّ كلمة (شيعة) هي مسبّة .

إنّه الكبريـاء وحبّ الذات ، إنّها الأنـانية واللجـاج والعصبية ، إلهي ألهمني رشدي ، وأعنّي على تقبّل الحقيقة ولو كانت مرّة .

اللّهمّ افتح بصري وبصيرتي ، واهدني إلى صراطك المستقيم ، واجعلني من

الـذين يستمعون القـول فيتّبعون أحسنـه . اللّهمّ أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا أتبـاعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

رجع بي صديقي إلى البيت وأنا أُردّد هذه الدعوات فقال مبتسماً : هدانا الله وإيّاكم وجميع المسلمين ، وقد قال في محكم كتابه : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[1] .

والجهاد في هذه الآية يحمل معنى البحث العلمي للوصول إلى الحقيقة ، والله سبحانه يهدي إلى الحق كلّ من بحث عن الحق .

* * *

---

(1) سورة العنكبوت : الآية 69 .

السفر إلى النجف

أعلمني صديقي ذات ليلة بأنّنا سنسافر غداً إن شاء الله إلى النجف ، وسألته وما النجف ؟ قال : إنّها مدينة علمية فيها مرقد الامام علي بن أبي طالب ، فتعجبت كيف يكون للامام علي قبر معروف !

لأنّ شيوخنا يقولون : إنّه لا وجود لقبر معروف لسيدنا علي . وسافرنا في سيّارة عمومية حتّى وصلنا إلى الكوفة ، وهناك نزلنا لزيارة جامع الكوفة ، وهو من الآثار الاسلامية الخالدة ، وكان صديقي يريني الأماكن الأثرية ، ويزوّرني جامع مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ويحكي لي بإيجاز كيف استشهدا ، كما أدخلني المحراب الذي استشهد فيه الامام علي ، وبعدها زرنا البيت الذي كان يسكنه الامام مع ابنيه سيدنا الحسن وسيدنا الحسين ، ورأينا في البيت البئر التي كانوا يشربون منها ويتوضّؤون بمائها ، وعشت لحظات روحيّة نسيت خلالها الدنيا وما فيها لأسبح في زهد الامام وبساطة عيشه وهو أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين .

ولا يفوتني أن أذكر الحفاوة والتواضع اللذين شاهدتهما هناك في الكوفة ، فما مررنا بمجموعة إلاّ وقاموا إلينا وسلّموا علينا ، وكأنّ صديقي يعرف الكثير منهم ودعانا أحدهم وهو مدير المعهد بالكوفة إلى بيته حيث التقينا بأولاده وبتنا عندهم ليلة سعيدة ، وشعرت وكأنّي بين أهلي وعشيرتي ، وكانوا إذا تكلّموا عن أهل السنّة والجماعة يقولون : (إخواننا من السنّة) فأنست بحديثهم وسألتهم بعض

الأسئلة الاختباريّة لأتيقّن من صدق كلامهم .

تحولنا إلى النجف وهي تبعد عن الكوفة حوالي عشرة كيلو مترات ، وما أن وصلنا حتّى تذكّرت مسجد الكاظمية في بغداد ، فبدت المآذن الذهبية تحيط بقبّة من الذهب الخالص ، ودخلنا إلى حرم الامام بعد قراءة الاذن بالدخول كما هي عادة الزوّار من الشيعة ، ورأيت هنا أعجب مما رأيت هناك في جامع موسى الكاظم ، وكالعادة وقفت أقرأ الفاتحة وأنا أشكّ في أن هذا القبر يحوي جثمان الامام علي، وكأنّي اقتنعت ببساطة ذلك البيت الذي كان يسكنه في الكوفة وقلت في نفسي حاشى للامام علي أن يرضى بهذه الزخرفة من الذهب والفضّة ، بينما يموت المسلمون جوعاً في شتى بقاع الدنيا ، وخصوصاً لّما رأيت فقراء في الطريق يمدّون أيديهم للمارة طلباً للصدقة فكان لسان حالي يقول : أيها الشيعة أنتم مخطؤون ، اعترفوا على الأقلّ بهذا الخطأ ، فالامام علي هو الذي بعثه رسول الله لتسوية القبور ، فلِمَا هذه القبور المشيّدة بالذهب والفضّة إنّها وإنّ لم تكن شركاً بالله فهي على الأقل خطأ فادح لا يغفره الاسلام .

وسألني صديقي وهو يمدّ إليّ قطعة من الطين اليابس هل أريد أن أصلّي ، وأجبته في حدّة : نحن لا نصلّي حول القبور ! قال : إذاً انتظرني قليلاً حتّى أصلّي ركعتين ، وفي انتظاره ، كنت أقرأ اللوحة المعلّقة على الضريح وأنظر إلى داخله من خلال القضبان الذهبية المنقوشة ، وإذا به مليء بالأوراق النقدية من كل الألوان من الدرهم والريال إلى الدينار والليرة ، وكلّها يلقيها الزوّار تبركاً للمساهمة في المشاريع الخيرية التابعة للمقام ، وظننت لكثرتها أنّ لها شهوراً ، ولكنّ صديقي أعلمني في ما بعد أنّ المسؤولين عن تنظيف المقام يأخذون كل ذلك في كل ليلة بعد صلاة العشاء .

خرجت وراءه مدهوشاً ، وكأنّني تمنّيت أن يعطوني منها نصيباً ، أو يوزّعوها على الفقراء المساكين وما أكثرهم هناك .

كنت التفت في كل اتّجاه داخل السور الكبير المحيط بالمقام حيث يصلّي جماعات من الناس هنا وهناك ، وينصت آخرون إلى بعض الخطباء الذين اعتلوا منبراً وكأنّي سمعت نواح بعضهم في صوت متهدّج .

ورأيت جموعاً من الناس يبكون ويلطمون على صدورهم ، وأردت أن أسأل صديقي ؛ ما بال هؤلاء يبكون ويلطمون ؟ ومرّت بقربنا جنازة وشاهدت بعضهم يرفع الرّخام في وسط الصحن وينزل الميّت هناك ، فظننت أنّ بكاء هؤلاء لأجل الميّت العزيز عليهم .

* * *

لقاء العلماء

أدخلني صديقي إلى مسجد في جانب الحرم مفروش كلّه بالسّجاد وفي محرابه آيات قرآنية منقوشة بخط جميل ، ولفت انتباهي مجموعة من الصبيان المعمّمين جالسين قرب المحراب يتدارسون وكل واحد في يده كتاب ، فأعجبت لهذا المنظر الجميل ، ولم يسبق لي أن رأيت شيوخاً بهذا السنّ أعمارهم تتراوح ما بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة ، وقد زادهم جمالاً ذلك الزي فأصبحوا كالأقمار ، سألهم صديقي عن (السيد) فأخبروه بأنّه يصلّي بالناس جماعة ، ولم أفهم من هو (السيد) الذي سألهم عنه غير أنّني توقعت أنّه أحد العلماء .

وعرفت فيما بعد أنّه السيد الخوئي زعيم الحوزة العلمية للطائفة الشيعية .

مع العلم بأنّ لقب (السيد) عند الشيعة هو لقب لكل منحدرٍ من سلالة النبي (ص) ، ويرتدي (السيد) العالم أو طالب العلوم الدينية عمامة سوداء ، وأما العلماء الآخرون فيرتدون عمامة بيضاء ويلقّبون بـ (الشيخ) وهناك نوع من الأشراف الذين ليسوا بعلماء فلهم عمامة خضراء .

طلب إليهم صديقي أن أجلس معهم ريثما يذهب للقاء (السيد) ورحّبوا بي وأحاطوني بنصف دائرة وأنا أنظر في وجوههم وأستشعر براءتهم ونقاوة سريرتهم وأستحضر في ذهني حديث النبي (ص) حيث قال : « يولد المرء على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه »[1] وقلت في نفسي : أو يشيّعانه .

---

(1) صحيح البخاري ج 4 ص 144 .

سألوني من أي البلاد أنا ، قلت : من تونس ، قالوا : هل يوجد عندكم حوازت علمية ؟ أجبتهم : عندنا جامعات ومدارس . وانهالت عليّ الأسئلة من كل جانب ، وكلّها أسئلة مركّزة ومحرجة ، فماذا أقول لهؤلاء الأبرياء الذين يعتقدون أنّ في العالم الاسلامي كلّه حوزات علمية ، تدرّس الفقه وأصول الدين والشريعة والتفسير ، وما يدرون أنّ في عالمنا الاسلامي ، وفي بلداننا التي تقدّمت وتطوّرت ، أبدلنا المدارس القرآنية بروضات للأطفال يشرف عليها راهبات نصرانيات ، فهل أقول لهم أنّهم ما زالوا متخلّفين بالنسبة إلينا ؟

وسألني أحدهم : ما هو المذهب المتبع في تونس ؟ قلت : المذهب المالكي . قال : ألا تعرفون المذهب الجعفري ؟ فقلت : خير إن شاء الله ، ما هذا الاسم الجديد ؟ لا ، نحن لا نعرف غير المذاهب الأربعة ، وما عداها فليس من الاسلام في شيء .

وابتسم قائلاً : عفواً . إنّ المذهب الجعفري هو محض الاسلام ، ألم تعرف بأنّ الامام أبا حنيفة ، تتلمذ على يد الامام جعفر الصادق ؟ وفي ذلك يقول أبو حنيفة : (لولا السنتان لهلك النعمان) . سكتُّ ولم أبد جواباً ، فقد أدخل عليّ اسماً جديداً ما سمعت به قبل ذلك اليوم ، ولكنّي حمدتّ الله أنّه ـ أي إمامهم جعفر الصادق ـ لم يكن أستاذاً للامام مالك ، وقلت نحن مالكية ولسنا أحنافاً .

فقال : إنّ المذاهب الأربعة أخذ بعضهم عن بعض ، فأحمد بن حنبل أخذ عن الشافعي ، والشافعي أخذ عن مالك ، وأخذ مالك عن أبي حنيفة ، وأبو حنيفة أخذ عن جعفر الصادق، وعلى هذا فكلّهم تلاميذ لجعفر بن محمد، وهو أوّل من فتح جامعة إسلامية في مسجد جدّه رسول الله ، وقد تتلمذ على يديه أكثر من أربعة آلاف محدّث وفقيه ، وعجبت لهذا الصبي الذكي الذي يحفظ ما يقول مثل ما يحفظ أحدنا سورة من القرآن ، وقد أدهشني أكثر عندما كان يسرد عليّ بعض المصادر التاريخية التي يحفظ عدد أجزائها وأبوابها ، وقد استرسل معي في الحديث وكأنّه أستاذ يعلّم تلميذه ، وشعرت بالضعف أمامه ، وتمنّيت لو أنّي خرجت مع صديقي ولم أبق مع الصبيان ، فما سألني أحدهم عن شيء يخصّ الفقه أو التاريخ إلاّ وعجزت عن الجواب ؛ سألني من أقلّد من الأئمة ؟ قلت :

الامام مالك ! قال : كيف تقلّد ميتاً بينك وبينه أربعة عشر قرناً ، فإذا أردت أن تسأله الآن عن مسألة مستحدثة فهل يجيبك ؟ فكّرت قليلاً وقلت : وأنت جعفرك مات أيضاً منذ أربعة عشر قرناً فمن تقلّد ؟ أجاب بسرعة هو والباقون من الصبية : نحن نقلّد السيد الخوئي فهو إمامنا .

ولم أفهم أكان الخوئي أعلم ، أم جعفر الصادق ؟ ! وبقيت معهم أحاول تغيير الموضوع ، فكنت أسألهم عن أي شيء يلهيهم عن مسائلتي فسألتهم عن عدد سكّان النجف ، وكم تبعد النجف عن بغداد ، وهل يعرفون بلداناً أخرى غير العراق ، وكلّما أجابوا أعددت لهم سؤالاً غيره حتى أشغلهم عن سؤالي ؛ لأنّي عجزت وشعرت بالقصور ، ولكن هيهات أن أعترف لهم وإن كنت في داخلي معترفاً إذ أنّ ذلك المجد والعزّ والعلم الذي ركبني في مصر تبخّر هنا وذاب ، خصوصاً بعد لقاء هؤلاء الصبيان عرفت الحكمة القائلة :

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة   عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

وتصورت أنّ عقول هؤلاء الصبيان أكبر من عقول أولئك المشايخ الذين قابلتهم في الأزهر وأكبر من عقول علمائنا الذين عرفتهم في تونس .

ودخل السيد الخوئي ومعه كوكبة من العلماء عليهم هيبة ووقار ، وقام الصبيان وقمت معهم ، وتقدّموا من السيد يقبّلون يده ، وبقيت مسمّراً في مكاني ، ما إن جلس السيد حتى جلس الجميع وبدأ يحيّيهم بقوله : (مسّاكم الله بالخير) يقولها لكل واحد منهم فيجيبه بالمثل حتى وصل دوري فأجبت كما سمعت ، بعدها أشار عليّ صديقي الذي تكلّم مع السيد همساً ، بأن أدنو من السيد وأجلسني على يمينه وبعد التحية قال لي صديقي : احكِ للسيد ماذا تسمعون عن الشيعة في تونس .

فقلت يا أخي كفانا من الحكايات التي نسمعها من هنا وهناك ، والمهم هو أن أعرف بنفسي ماذا يقول الشيعة ؟؟ وعندي بعض الأسئلة أريد الجواب عنها بصراحة .

فألحّ عليّ صديقي وأصرّ على أن أروي للسيد ما هو اعتقادنا في الشيعة ،

قلت : الشيعة عندنا هم أشدّ على الاسلام من اليهود والنصارى لأنّ هؤلاء يعبدون الله ويؤمنون برسالة موسى (ع) ، بينما نسمع عن الشيعة أنّهم يعبدون عليّاً ويقدّسونه ، ومنهم فرقة يعبدون الله ، ولكنهم ينزلون عليّاً بمنزلة رسول الله ؛ ورويت قصّة جبريل كيف أنّه خان الأمانة حسب ما يقولون ، وبدلاً من أداء الرسالة إلى علي أدّاها إلى محمد (ص) .

أطرق السيد رأسه هنيهة ثم نظر إليّ وقال : نحن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وما عليّ إلاّ عبد من عبيد الله والتفت إلى بقية الجالسين قائلاً ومشيراً إليّ : انظروا إلى هؤلاء الأبرياء كيف تغلّطهم الاشاعات الكاذبة ، وهذا ليس بغريب ، فقد سمعت أكثر من ذلك من أشخاص آخرين ، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم ، ثم التفت إليّ وقال : هل قرأت القرآن ؟ قلت : حفظت نصفه ولم أتخطّ العاشرة من عمري .

قال : هل تعرف أنّ كلّ الفرق الاسلامية على اختلاف مذاهبها متّفقة على القرآن الكريم ، فالقرآن الموجود عندنا ، هو نفسه موجود عندكم .

قلت : نعم هذا أعرفه .

قال: إذاً ألم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما محمد إلاّ رسول ، قد خلت من قبله الرسل ﴾[1] .

وقوله أيضاً : ﴿ محمّد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين ﴾[3] .

قلت بلى أعرف هذه الآيات قال: فأين هو علي؟ إذا كان قرآننا يقول بأنّ محمداً هو رسول الله ، فمن أين جاءت هذه الفرية ؟ سكتّ ولم أجد جواباً .

---

(1) سورة آل عمران : الآية 144 .

(2) سورة الفتح : الآية 29 .

(3) سورة الأحزاب : الآية 40 .

وأضاف يقول : وأمّا خيانة جبريل حاشاه فهذه أقبح من الأولى ، لأنّ محمداً (ص) كان عمره أربعين سنة ، عندما أرسل الله سبحانه إليه جبريل (ع) ، ولم يكن عليّ إلّا صبيّاً صغيراً عمره ستّ أو سبع سنوات ، فكيف يا ترى يخطيء جبريل ، ولا يفرّق بين محمد الرجل وعلي الصبي ؟ .

ثم سكتّ طويلاً ؛ بينما بقيت أفكّر في أقواله وأنا مطرق أحلّل وأتذوّق هذا الحديث المنطقي الذي نفذ إلى أعماقي ، وأزال غشاوة عن بصري . وتساءلت في داخلي ، كيف لم نحلّل نحن بهذا المنطق ؟ !

أضاف السيد الخوئي يقول : وأزيدك بأنّ الشيعة ؛ هي الفرقة الوحيدة من بين كل الفرق الاسلامية الأخرى التي تقول بعصمة الأنبياء والأئمة ، فإذا كان أئمتنا سلام الله عليهم معصومين عن الخطأ وهم بشر مثلنا ، فكيف بجبريل وهو ملك مقرّب سمّاه ربّ العزّة بـ (الروح الأمين) .

قلت : فمن أين جاءت هذه الدعايات ؟

قال : من أعداء الاسلام ، الذين يريدون تفريق المسلمين وتمزيقهم وضرب بعضهم ببعض ، وإلّا فالمسلمون أخوة سواء كانوا شيعة أم سنّة ، فهم يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً ، وقرآنهم واحد ، ونبيّهم واحد ، وقبلتهم واحدة . ولا يختلف الشيعة عن السنّة إلّا في الأمور الفقهية ، كما يختلف أئمة المذاهب السنّية أنفسهم في ما بينهم فمالك يخالف أبا حنيفة ، وهذا يخالف الشافعي وهكذا . . .

قلت : إذاً كل ما يحكى عنكم هو محض افتراء ، قال : أنت بحمد الله عاقل وتفهم الأمور وقد رأيت بلاد الشيعة ، وتجوّلت في أوساطهم ، فهل رأيت أو سمعت شيئاً من تلك الأكاذيب ؟ قلت : لا لم أسمع ولم أر إلّا الخير وإنّي أحمد الله سبحانه أن عرّفني بالأستاذ منعم في الباخرة ، فهو السبب في مجيئي إلى العراق ، وقد عرفت أشياء كثيرة كنت أجهلها فضحك صديقي منعم قائلاً : ومنها وجود قبر للإمام علي ، فغمزته واستدركت قائلاً : بل تعلّمت أشياء جديدة حتى من هؤلاء الصبيان وتمنّيت لو أتيحت لي الفرصة وتعلّمت مثلهم في الحوزة العلمية هنا .

قال السيد : أهلاً وسهلاً ، إن كنت تريد طلب العلم فالحوزة على ذمّتك ، ونحن في خدمتك ، ورحّب الحاضرون بهذا الاقتراح وخصوصاً صديقي منعم الذي تهلّل وجهه .

قلت : أنا متزوج وعندي ولدان . قال : نحن نتكفّل بكل مستلزماتكم من سكن ومعاش ، وكل ما تحتاجون إليه والمهم هو طلب العلم . فكّرت قليلاً وقلت في نفسي : ليس من المعقول أن أصبح تلميذاً ، بعد ما قضيت خمس سنوات وأنا أستاذ أمارس التعليم وتربية النشىء ؛ وليس من السهولة أن أتّخذ قراراً بمثل هذه السرعة .

شكرت السيد الخوئي على هذا العرض وقلت سوف أفكر في الموضوع بجدّ بعد رجوعي من العمرة بحول الله ولكنّي في حاجة إلى بعض الكتب ، فقال السيد : أعطوه الكتب ، ونهض جمع من العلماء وفتحوا عدّة خزانات ، وما هي إلاّ لحظات حتى وجدت أمامي أكثر من سبعين مجلداً ، فكل واحد جاءني بدورة من الكتب وقال : هذه هديّتي ، ورأيت أنّه لا يمكنني حمل هذا العدد الكبير معي خصوصاً وأنّي متوجّه إلى السعودية الذين يمنعون دخول أي كتاب إلى بلادهم خوفاً من تفشّي بعض العقائد التي تخالف مذهبهم ، ولكني ما أردت التفريط بهذه الكتب التي لم تر عيني مثلها في سابق حياتي .

فقلت لصديقي وللحاضرين : بأنّ طريقي طويل يمرّ بدمشق والأردن إلى السعودية وفي العودة سيكون أطول فسأمرّ بمصر وليبيا حتى الوصول إلى تونس ، وزيادة على ثقل الحمل فإنّ أغلب الدول تمنع دخول الكتب ، فقال السيد : اترك لنا عنوانك ونحن نتكفّل بإرسالها إليك ، واستحسنت هذا الرأي وأعطيته بطاقة شخصية بها عنواني في تونس ، وشكرت فضله ، ولمّا ودّعته ونهضت للخروج ، نهض معي قائلاً : أسأل الله لك السّلامة وإذا وقفت على قبر جدّي رسول الله فبلّغه منّي السلام ، وتأثّر الحاضرون ، وتأثّرت كثيراً وأنا أنظر إلى عينيه تدمعان ، وقلت في نفسي ، حاشى لله أن يكون هذا من المخطئين حاشى لله أن يكون هذا من الكاذبين ، إنّ هيبته وعظمته وتواضعه تنبيء حقاً أنه من سلالة الشرف ، فما كان منّي إلاّ أن أخذت يده وقبّلتها رغم ممانعته .

وقام الجميع لقيامي وسلّموا عليّ ، وتبعني بعض الصبية من الذين كانوا يجادلونني ، وطلبوا مني عنواني للمراسلة فأعطيتهم إيّاه .

اتجهنا من جديد إلى الكوفة بدعوة أحد الذين كانوا في مجلس السيد الخوئي وهو صديق منعم اسمه أبو شبّر ، نزلنا في بيته وسهرنا ليلة كاملة مع مجموعة من الشبّان المثقّفين وكان من بينهم بعض طلبة السيد محمد باقر الصدر فأشاروا عليّ بمقابلته وتعهدوا بأنّهم سيرتبون لقائي مع حضرته في اليوم التالي ، واستحسن صديقي منعم هذا الاقتراح ولكنّه تأسّف لعدم إمكانية حضوره لأنّ له شغلاً في بغداد يستلزم حضوره ، واتّفقنا على أنّ أبقى في بيت السيد أبو شبّر ثلاثة أيام أو أربعة ريثما يعود منعم ، الذي غادرنا بعد صلاة الفجر وقمنا نحن للنوم وقد استفدت كثيراً من طلبة العلوم الذين سهرت معهم وتعجّبت من تنوّع العلوم التي يتلقّونها في الحوزة فهم زيادة على العلوم الاسلامية من فقه وشريعة وتوحيد يدرسون العلوم الاقتصادية والعلوم الاجتماعية والسياسية ، والتاريخ واللغات وعلوم الفلك وغير ذلك .

* * *

لقاء مع السيد محمد باقر الصدر

اتجهت بصحبة السيد أبو شبّر إلى بيت السيد محمد باقرالصدر وفي الطريق كان يلاطفني ويعطيني فكرة عن العلماء المشهورين وعن التقليد وغير ذلك ، ودخلنا على السيد محمد باقر الصدر في بيته وكان مليئاً بطلبة العلوم وأغلبهم من الشبّان المعمّمين وقام السيد يسلّم علينا ، وقدّموني إليه فرحّب بي كثيراً وأجلسني بجانبه وأخذ يسألني عن تونس والجزائر وعن بعض العلماء المشهورين أمثال الخضر حسين والطاهر بن عاشور وغيرهم ، وأنست بحديثه ورغم الهيبة التي تعلوه والاحترام الذي يحوطه به جلساؤه ، وجدت نفسي غير محرج وكأنّي أعرفه من قبل واستفدت من تلك الجلسة إذ كنت أسمع أسئلة الطلبة وأجوبة السيد عليها ، وعرفت وقتها قيمة تقليد العلماء الأحياء الذين يجيبون عن كل الاشكالات مباشرة وبكل وضوح ، وتيقّنت أيضاً من أنّ الشيعة مسلمون يعبدون الله وحده ويؤمنون برسالة نبينا محمد (ص) ، إذ كان بعض الشكّ يراودني والشيطان يوسوس لي بأنّ ما شاهدته قبل هو تمثيل ، وربّما يكون ما يسمّونه بالتقية ، أي أنّهم يُظهرون ما لا يعتقدون ، ولكن سرعان ما يزول الشك وتضمحلّ تلك الوساوس إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتّفق كل من رأيتهم وسمعتهم وهم مئات على هذا التمثيل ثم لماذا هذا التمثيل ؟ ومن هو أنا ، وما يهمّهم من أمري حتّى يستعملوا معي هذه التقية ثم هذه كتبهم القديمة التي كتبت منذ قرون والحديثة التي طبعت منذ شهور وكلّها توحد الله وتثني على رسوله محمّد كما قرأت ذلك في مقدّماتها ، وها أنا الآن في بيت السيد محمد باقر

الصدر المرجع المشهور في العراق وفي خارج العراق وكلّما ذكر اسم محمّد صاح الجميع في صوت واحد : (اللهم صلّ على محمد وآل محمد) .
وجاء وقت الصّلاة وخرجنا إلى المسجد وكان بجوار البيت وصلى بنا السيد محمد باقر الصدر صلاة الظهر والعصر ، وأحسست بأنّي أعيش وسط الصحابة الكرام فقد تخلّل الصلاتين دعاء رهيب من أحد المصلّين ، وكان له صوت شجي ساحر وبعدما أنهى الدّعاء صاح الجميع (اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد) وكان الدعاء كلّه ثناءً وتمجيداً على الله جلّ جلاله ثم على محمّد وآله الطيبين الطاهرين .

وجلس السيد في المحراب بعد الصلاة .

وأخذ بعضهم يسلّمون عليه ويسألونه سرّاً وعلانية وكان يجيب سرّاً عن بعض الأسئلة التي فهمت أنّها تتطلّب الكتمان لأنّها تتعلّق بشؤون خاصّة ، وكان السائل إذا حصل على الجواب يقبّل يده وينصرف ، هنيئاً لهم بهذا العالم الجليل الذي يحلّ مشاكلهم ويعيش همومهم .

رجعنا بصحبة السيد الذي أولاني من الرعاية والعناية وحسن الضيافة ما أنساني أهلي وعشيرتي وأحسست بأنّي لو بقيت معه شهراً واحداً لتشيّعت لحسن أخلاقه وتواضعه وكرم معاملته ، فلم أنظر إليه إلّا وابتسم في وجهي وابتدرني بالكلام ، وسألني هل ينقصني شيء ، فكنت لا أغادره طيلة الأيام الأربعة إلّا للنّوم ، رغم كثرة زوّاره والعلماء الوافدين عليه من كل الأقطار ، فقد رأيت السعوديين هناك ولم أكن أتصوّر بأنّ في الحجاز شيعة ، وكذلك علماء من البحرين ومن قطر ومن الامارات ومن لبنان وسوريا وإيران وأفغانستان ومن تركيا ومن أفريقيا السوداء وكان السيد يتكلّم معهم ويقضي حوائجهم ولا يخرجون من عنده إلّا وهم فرحون مسرورون ، ولا يفوتني أن أذكر هنا قضية حضرتها وأعجبت في كيفية فصلها ، وأذكرها للتاريخ لما لها من أهميّة بالغة حتى يعرف المسلمون ماذا خسروا بتركهم حكم الله .

جاء إلى السيد محمد باقر الصدر أربعة رجال أظنّهم عراقيين عرفت ذلك من لهجتهم ، كان أحدهم ورث مسكناً من جدّه الذي توفّي منذ سنوات وباع ذلك

المسكن إلى شخص ثان كان هو الآخر حاضراً ، وبعد سنة من تاريخ البيع جاء أخوان ، وأثبتا أنهما وارثان شرعيان للميّت ، وجلس أربعتهم أمام السيد وأخرج كل واحد منهم أوراقه وما عنده من حجج وبعد ما قرأ السيد كل أوراقهم وتحدّث معهم بضع دقائق حكم بينهم بالعدل ، فأعطى الشاري حقّه في التصرّف بالمسكن وطلب من البائع أن يدفع للأخوين نصيبهما من الثمن المقبوض، وقام الجميع يقبّلون يده، ويتعانقون، ودهشت لهذا ولم أصدّق، وسألت أبا شبّر ، هل انتهت القضية ؟ قال : (خلاص كلّ واحد أخذ حقّه) . سبحان الله ! بهذه السهولة ، وبهذا الوقت الوجيز ، بضع دقائق فقط كافية لحسم النّزاع ؟ إنّ مثل هذه القضية في بلادنا تستغرق عشر سنوات على أقل تقدير لحسم النّزاع ؟ إنّ مثل هذه القضية في بلادنا تستغرق عشر سنوات على أقل تقدير ويموت بعضهم ، ويواصل أولاده بعده تتبّع القضية ويصرفون رسوم المحكمة والمحامين ما يكلّفهم في أغلب الأحيان ثمن المسكن نفسه ، ومن المحكمة الابتدائية إلى محكمة الاستئناف ثم إلى التعقيب وفي النهاية يكون الجميع غير راضين بعدما يكونون قد أنهكوا بالتّعب والمصاريف والرشوة ، والعداوة والبغضاء بين عشائرهم وذويهم ، أجابني أبو شبّر : وعندنا أيضاً نفس الشيء أو أكثر. فقلت: كيف؟ قال: إذا رفع الناس شكواهم إلى المحاكم الحكومية، فيكون مثل ما حكيت أما إذا كانوا يقلّدون المرجع الديني ويلتزمون بالأحكام الاسلامية ، فلا يرفعون قضاياهم إلاّ إليه فيفصلها في بضع دقائق كما رأيت ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يعقلون ؟ والسيد الصدر لم يأخذ منهم فلساً واحداً ، ولو ذهبوا إلى المحاكم الرّسمية لتعرّت رؤوسهم .

ضحكت لهذا التعبير الذي هو سارٍ عندنا أيضاً وقلت : سبحان الله ! أنا لا زلت مكذباً ما رأيت، ولولا ما شاهدته بعينيّ ما كنت لأصدّق أبداً، فقال أبو شبّر : لا تكذب يا أخي فهذه بسيطة بالنسبة إلى غيرها من القضايا التي هي أشدّ تعقيداً وفيها دماء ، ومع ذلك يحكم فيها المراجع ويفصلونها في سويعات ، فقلت متعجّباً : إذاً عندكم في العراق حكومتان ، حكومة الدولة وحكومة رجال الدين، فقال: كلاّ عندنا حكومة الدولة فقط، ولكنّ المسلمين من الشيعة الذين يقلّدون مراجع الدّين ، لا علاقة لهم بالحكومة ، لأنّها ليست حكومة إسلامية

فهم خاضعون لها بحكم المواطنية والضرائب والحقوق المدنية والأحوال الشخصية ، فلو تخاصم مسلم ملتزمٌ مع أحد المسلمين غير الملتزمين فسوف يضطّر حتماً لرفع قضيته إلى محاكم الدولة ، لأنّ هذا الأخير لا يرضى بتحكيم رجال الدّين ـ أمّا إذا كان المتخاصمان ملتزمين فلا إشكال هناك ، وما يحكم به المرجع الديني نافذ على الجميع .

وعلى هذا الأساس تحلّ القضايا التي يحكم فيها المرجع في يومها بينما تظلّ القضايا الأخرى شهوراً بل أعواماً .

إنّها حادثة حركت في نفسي شعور الرّضى بأحكام الله سبحانه وتعالى وفهمت معنى قوله تعالى في كتابه المجيد :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . . . ﴾[1] صدق الله العظيم .

كما حرّكت في نفسي شعور النقمة والثورة على هؤلاء الظلمة الذين يبدّلون أحكام الله العادلة بأحكام وضعية بشرية جائرة ، ولا يكفيهم كلِ ذلك بل ينتقدون بكل وقاحة وسخرية الأحكام الإلّهية ، ويقولون بأنّها بربرية ووحشية لأنّها تقيم الحدود فتقطع يد السارق وترجم الزّاني ، وتقتل القاتل ، فمن أين جاءتنا هذه النظريات الغريبة عنّا وعن تراثنا ، لا شكّ إنّها من الغرب ومن أعداء الاسلام الذين يدركون أنّ تطبيق أحكام الله يعني القضاء عليهم نهائياً ، لأنّهم سرّاق ، خونة ، زناة ، مجرمون وقتلة .

ولو طبقت أحكام الله عليهم لاسترحنا من هؤلاء جميعاً وقد دارت بيني وبين السيد محمد باقر الصدر في تلك الأيام حوارات عديدة وكنت أسأله عن كل صغيرة وكبيرة من خلال ما عرفته من الأصدقاء الذين حدّثوني عن كثير من عقائدهم وما يقولونه في الصحابة رضي الله عنهم وما يعتقدونه في الأئمة الاثني

---

(1) سورة المائدة : الآيات 44 ـ 47 .

عشر علي وبنيه ، وغير ذلك من الأشياء التي نخالفهم فيها .

سألت السيد الصدر عن الامام علي ، ولماذا يشهدون له في الآذان بأنّه وليّ الله ؟ أجاب قائلاً : إنّ أمير المؤمنين عليّاً سلام الله عليه وهو عبد من عبيد الله الذين اصطفاهم الله وشرّفهم ليواصلوا حمل أعباء الرسالة بعد أنبيائه وهؤلاء هم أوصياء الأنبياء ، فلكل نبي وصي وعلي بن أبي طالب هو وصيّ محمد ، ونحن نفضّله على سائر الصحابة بما فضّله الله ورسوله ولنا في ذلك أدلّة عقلية ونقلية من القرآن والسنّة وهذه الأدلّة لا يمكن أن يتطرّق إليها الشكّ لأنّها متواترة وصحيحة من طرقنا وحتى من طرق أهل السنّة والجماعة ، وقد ألّف في ذلك علماؤنا العديد من الكتب ، ولمّا كان الحكم الأموي يقوم على طمس هذه الحقيقة ومحاربة أمير المؤمنين علي وأبنائه وقتلهم ، ووصل بهم الأمر إلى سبّه ولعنه على منابر المسلمين وحمل الناس على ذلك بالقهر والقوة ، فكان شيعته وأتباعه رضي الله عنهم يشهدون أنّه وليّ الله ، ولا يمكن للمسلم أن يسبّ وليّ الله وذلك تحدّياً منهم للسلطة الغاشمة حتى تكون العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وحتّى تكون حافزاً تاريخياً لكل المسلمين عبر الأجيال فيعرفون حقيقة علي وباطل أعدائه .

ودأب فقهاؤنا على الشهادة لعلي بالولاية في الآذان والاقامة استحباباً ، لا بنيّة أنّها جزء من الآذان أو الاقامة فإذا نوى المؤذّن أو المقيم أنّها جزء بطل أذانه وإقامته .

والمستحبّات في العبادات والمعاملات لا تحصى لكثرتها والمسلم يثاب على فعلها ولا يعاقب على تركها ، وقد ورد على سبيل المثال أنّه يذكر استحباباً بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ، بأن يقول المسلم ، وأشهد أنّ الجنّة حقّ والنار حقّ وأنّ الله يبعث من في القبور .

قلت : إنّ علماءنا علّمونا : أنّ أفضل الخلفاء على التحقيق سيدنا أبو بكر الصدّيق ، ثم سيدنا عمر الفاروق ثم سيدنا عثمان ثم سيدنا علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين ؟ سكت السيد قليلاً ، ثم أجابني .

لهم أن يقولوا ما يشاؤون ، ولكن هيهات أن يثبتوا ذلك بالأدلّة الشرعيّة ، ثم إنّ هذا القول يخالف صريح ما ورد في كتبهم الصحيحة المعتبرة ، فقد جاء

فيها : أنّ أفضل الناس أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ولا وجود لعلي بل جعلوه من سوقة الناس وإنّما ذكره المتأخرون استحباباً لذكر الخلفاء الراشدين .

سألته بعد ذلك عن التربة التي يسجدون عليها والتي يسمّونها بـ (التربة الحسينية) أجاب قائلاً :

يجب أن يُعرف قبل كل شيء أنّنا نسجد على التراب ، ولا نسجد للتراب ، كما يتوهّم البعض الذين يشهّرون بالشيعة ، فالسجود هو لله سبحانه وتعالى وحده ، والثابت عندنا وعند أهل السنّة أيضاً أنّ أفضل السجود على الأرض أو ما أنبتت الأرض من غير المأكول ، ولا يصحّ السجود على غير ذلك ، وقد كان رسول الله (ص) يفترش التراب وقد اتّخذ له خمرة من التراب والقش يسجد عليها ، وعلّم أصحابه رضوان الله عليهم فكانوا يسجدون على الأرض ، وعلى الحصى ، ونهاهم أن يسجد أحدهم على طرف ثوبه ، وهذا من المعلومات بالضرورة عندنا .

وقد اتّخذ الامام زين العابدين وسيد الساجدين علي بن الحسين (عليهما السلام) تربة من قبر أبيه أبي عبد الله باعتبارها تربة زكية طاهرة سالت عليها دماء سيد الشهداء ، واستمرّ على ذلك شيعته إلى يوم الناس هذا ، فنحن لا نقول بأنّ السجود لا يصحّ إلاّ عليها ، بل نقول بأنّ السجود يصحّ على أي تربة أو حجرة طاهرة كما يصحّ على الحصير والسّجاد المصنوع من سعف النخيل وما شابه ذلك .

قلت ـ على ذكر سيدنا الحسين رضي الله عنه ـ لماذا يبكي الشيعة ويلطمون ويضربون أنفسهم حتّى تسيل الدّماء وهذا محرّم في الاسلام ، فقد قال (ص) : « ليس منّا من لطم الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية »[1] .

أجاب السيد قائلاً : الحديث صحيح لا شكّ فيه ولكنّه لا ينطبق على مأتم أبي عبد الله ، فالذي ينادي بثأر الحسين ويمشي على درب الحسين دعوته ليست دعوى جاهلية ، ثم إنّ الشيعة بشر فيهم العالم وفيهم الجاهل ولديهم عواطف ،

---

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 225 .

فإذا كانت عواطفهم تطغى عليهم في ذكرى استشهاد أبي عبد الله ، وما جرى عليه وعلى أهله وأصحابه من قتل وهتك وسبي ، فهم مأجورون لأنّ نواياهم كلّها في سبيل الله ، والله سبحانه وتعالى يعطي العباد على قدر نواياهم ، وقد قرأت منذ أسبوع التقارير الرّسمية للحكومة المصرية بمناسبة موت جمال عبد الناصر ، تقول هذه التقارير الرّسمية بأنّه سجّل أكثر من ثماني حالات انتحارية قتل أصحابها أنفسهم عند سماع النّبأ فمنهم من رمى نفسه من أعلى العمارة ومنهم من ألقى بنفسه تحت القطار وغير ذلك ، وأمّا المجروحون والمصابون فكثيرون ، وهذه أمثلة أذكرها للعواطف التي تطغى على أصحابها وإذا كان الناس وهم مسلمون بلا شك يقتلون أنفسهم من أجل موت جمال عبد الناصر وقد مات موتاً طبيعياً ، فليس من حقّنا ـ بناءً على مثل هذا ـ أن نحكم على أهل السنّة بأنّهم مخطؤون .

وليس لاخواننا من أهل السنّة أن يحكموا على إخوانهم من الشيعة بأنّهم مخطؤون في بكائهم على سيد الشهداء ، وقد عاشوا محنة الحسين وما زالوا يعيشونها حتى اليوم ، وقد بكى رسول الله نفسه على ابنه الحسين وبكى جبريل لبكائه .

قلت : ولماذا يزخرف الشيعة قبور أوليائهم بالذهب والفضّة ، وهو محرّم في الاسلام ؟

أجاب السيد الصدر : ليس ذلك منحصراً بالشيعة ، ولا هو حرام ، فها هي مساجد إخواننا من أهل السنّة سواء في العراق أو في مصر أو في تركيا أو غيرها من البلاد الاسلامية مزخرفة بالذهب والفضّة ، وكذلك مسجد رسول الله في المدينة المنورة وبيت الله الحرام في مكّة المكرّمة الذي يُكسى في كل عام بحلّة هبية جديدة يصرف فيها الملايين ، فليس ذلك منحصراً بالشيعة .

قلت : إنّ علماء السعودية يقولون : إنّ التمسّح بالقبور ودعوة الصالحين والتبرّك بهم ، شرك بالله ، فما هو رأيكم ؟ أجاب السيد محمد باقر الصدر :

إذا كان التمسّح بالقبور ودعوة أصحابها بنيّة أنّهم يضرّون وينفعون ، فهذا

شرك ، لا شكّ فيه : وإنّما المسلمون موّحدون ويعلمون أنّ الله وحده هـو الضارّ والنـافع وإنّمـا يدعـون الأولياء والأئمـة (عليهم السلام) ليكـونوا وسيلتهم إليـه سبحانه وهـذا ليس بشرك ، والمسلمون سنّـة وشيعة متّفقـون على ذلـك من زمن الرّسول إلى هذا اليوم ، عدا الوهّابيّة وهم علماء السعودية الـذين ذكرت والـذين خالفوا إجماع المسلمين بمذهبهم الجديـد الذي ظهـر في هذا القـرن ، وقد فتنـوا المسلمين بهذا الاعتقـاد وكفّروهم وأبـاحوا دمـاءهم ، فهم يضربون الشيـوخ من حجّاج بيت الله الحرام لمجرّد قول أحـدهم : السلام عليـك يا رسـول الله ، ولا يتركون أحداً يتمسّح على ضريحه الطاهر ، وقد كان لهم مـع علمائنا منـاظرات ، ولكنّهم أصرّوا على العناد واستكبروا استبكاراً .

فـإنّ السيد شرف الـدين من علماء الشيعة لمّـا حجّ بيت الله الحـرام في زمن عبـد العـزيـز آل سعـود ، كـان من جملة العلماء المـدعـوين إلى قصر الملك لتهنئتـه بعيـد الأضحى كما جرت العـادة هناك ولمّـا وصل الـدور إليه وصـافح الملك قـدّم إليه هديّة وكانت مصحفاً ملفـوفاً في جلد ، فـأخذه الملك وقبّله ووضعـه على جبهتـه تعظيماً له وتشريفاً ، فقال له السيـد شرف الدين عنـدئذٍ : أيهـا الملك لماذا تقبّـل الجلد وتعظّمه وهو جلد ماعز ؟ أجاب الملك : أنا قصدت تعظيم القرآن الكريم الـذي بداخله ولم أقصـد تعظيم الجلد ! فقـال السيد شرف الـدين عند ذلـك : أحسنت أيها الملك ، فكذلك نفعل نحن عنـدما نقبّـل شبّاك الحجـرة النبويّـة أو بابها فنحن نعلم أنّه حديد لا يضرّ ولا ينفع ، ولكنّنا نقصد مـا وراء الحديـد وما وراء الأخشاب نحن نقصد بذلك تعـظيم رسول الله (ص) ، كـما قصدت أنت تعظيم القرآن بتقبيلك جلد الماعز الذي يغلّفه .

فكـبّر الحاضرون إعجـاباً لـه وقالـوا : صـدقت ، واضـطّر الملك وقتهـا إلى السّماح للحجّاج أن يتبركوا بآثار الـرسول حتّى جـاء الذي بعـده فعاد إلى القـرار الأول ـ فـالقضيـة ليست خـوفهم أن يشرك النـاس بـالله ، بقـدر مـا هي قضيـة سيـاسيـة قـامت عـلى مخـالفـة المسلمـين وقتلهم لتـدعيم ملكهم وسلطتهم عـلى المسلمين والتاريخ أكبر شاهد على ما فعلوه في أمّة محمد .

وسألته عن الطرق الصوفية فأجابني بإيجاز : بأنّ فيها ما هـو إيجابي وفيهـا ما

هو سلبي ، فالايجابي منها ؛ تربية النفس وحملها على شظف العيش والزهد في ملذّات الدنيا الفانية ، والسمّو بها إلى عالم الأرواح الزكية ، أمّا السلبي منها ؛ فهو الانزواء والهروب من واقع الحياة وحصر ذكر الله في الأعداد اللفظية وغير ذلك والاسلام - كما هو معلوم - يقرّ الايجابيات ويطرح السلبيات ويحقّ لنا أن نقول : بأنّ مبادىء الاسلام وتعاليمه كلّها إيجابية .

* * *

الشك والحيرة

كانت أجوبة السيد محمد باقر الصدر ، واضحة ومقنعة ولكن أنّى لها أن تغوص في أعماق واحدٍ مثلي قضى خمسةً وعشرين عاماً من عمره على مبدأ تقديس الصحابة واحترامهم وخصوصاً الخلفاء الراشدين الذين أمرنا رسول الله بالتمسّك بسنّتهم والسير على هديهم ، وعلى رأس هؤلاء سيدنا أبو بكر الصدّيق وسيدنا عمر الفاروق ، وإنّي لم أسمع لهما ذكراً منذ قدمت العراق ، وإنّما سمعت أسماء أخرى غريبة عنّي أجهلها تماماً ، وأئمة بعدد إثني عشر إماماً ، وإدّعاءً بأنّ رسول الله (ص) قد نصّ على الإمام علي بالخلافة قبل وفاته ، كيف لي أن أصدّق ذلك .

أي أن يتّفق المسلمون وهم الصحابة الكرام خير البشر بعد رسول الله ويتصافقوا ضد الإمام علي كرّم الله وجهه ، وقد علّمونا منذ نعومة أظافرنا بأنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحترمون الإمام علياً ويعرفون حقّه فهو زوج فاطمة الزهراء وأبو الحسن والحسين وباب مدينة العلم ، كما يعرف سيدنا علي حقّ أبي بكر الصدّيق الذي أسلم قبل الناس جميعاً وصاحب رسول الله في الغار ذكره الله تعالى في القرآن ، وقد ولّاه رسول الله إمامة الصّلاة في مرضه وقد قال (ص) : « لو كنت متخذاً خليلاً لأتّخذت أبا بكر خليلاً » ولكل ذلك اختاره المسلمون خليفة لهم ، كما يعرف الإمام علي حق سيدنا عمر الذي أعزّ الله به الإسلام وسمّاه رسول الله بالفاروق الذي يفرّق بين الحق والباطل كما يعرف حقّ سيدنا عثمان الذي استحت منه ملائكة الرحمن والذي جهّز جيش

العسرة وسمّاه رسول الله بذي النورين ، فكيف يجهل إخواننا الشيعة كل هذا أو يتجاهلونه ، ويجعلون من هؤلاء أشخاصاً عاديين تميل بهم الأهواء والأطماع الدنيوية عن إتّباع الحق فيعصون أوامر الرسول بعد وفاته ، وهم الذين كانوا يتسابقون لتنفيذ أوامره فيقتلون أولادهم وآباءهم وعشيرتهم في سبيل عزّة الإسلام ونصرته ، والذي يقتل أباه وولده طاعةً لله ورسوله لا يمكن أن تغرّه أطماع دنيوية زائلة هي اعتلاء منصة الخلافة فيتجاهل أمر رسول الله ويتركه ظهرياً .

نعم من أجل كل هذا ، ما كنت لأصدّق الشيعة في كل ما يقولون رغم أنّي اقتنعت بأمور كثيرة ، وبقيت بين الشك والحيرة ، الشكّ الذي أدخله علماء الشيعة في عقلي لأنّ كلامهم معقول ومنطقي ، والحيرة التي غمرتني فلم أصدّق أنّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم ينزلون إلى هذا المستوى الأخلاقي فيصبحون بشراً عاديين مثلنا ، لم تصقلهم أنوار الرسالة ولم يهذبهم الهدى المحمدي ؟ يا إلهي كيف يكون ذلك ؟ أيمكن أن يكون الصحابة على هذا المستوى الذي يقول به الشيعة ؟ والمهم هو أنّ هذا الشكّ وهذه الحيرة هما بداية الوهن وبداية الإعتراف بأنّ هناك أموراً مستورة لا بدّ من كشفها للوصول إلى الحقيقة .

جاء صديقي منعم وسافرنا إلى كربلاء ، وهناك عشت محنة سيدنا الحسين كما يعيشها شيعته ، وعلمت وقتئذٍ بأنّ سيدنا الحسين لم يمت ، فالنّاس يتزاحمون ويتراصّون حول ضريحه كالفراشات ، ويبكون بحرقة ولهفة لم أشهد لهما مثيلاً ، فكأنّ الحسين استشهد الآن ، وسمعت الخطباء هناك يثيرون شعور الناس بسردهم لحادثة كربلاء في نواح ونحيب ، ولا يكاد السّامع لهم أن يمسك نفسه ويتماسك حتّى ينهار ، فقد بكيت وبكيت وأطلقت لنفسي عنانها وكأنّها كانت مكبوتة ، وأحسست براحة نفسية كبيرة ما كنت أعرفها قبل ذلك اليوم ، وكأنّي كنت في صفوف أعداء الحسين ، وانقلبت فجأة إلى أصحابه وأتباعه الذين يفدونه بأرواحهم ، وكان الخطيب يستعرض قصّة الحرّ ، وهو أحد القادة المكلّفين بقتال الحسين ، ولكنّه وقف في المعركة يرتعش كالسّعفة ولمّا سأله بعض أصحابه : أخائف أنت من الموت أجابه الحرّ ، لا والله ولكنّني أخيّر نفسي بين الجنة والنّار ثم همز جواده وانطلق إلى الحسين قائلاً : هل من توبة يا ابن

رسول الله ، ولم أتمالك عند سماع هذا أن سقطت على الأرض باكياً وكأني أمثّل دور الحرّ وأطلب من الحسين : هل من توبة يا ابن رسول الله ، سامحني يا ابن رسول الله ، وكان صوت الخطيب مؤثراً ، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء والنّحيب عند ذلك سمع صديقي صياحي وانكبّ عليّ معانقاً ، باكياً وضمّني إلى صدره كما تضمّ الأم ولدها وهو يردّد يا حسين ، يا حسين ، كانت دقائق ولحظات عرفت فيها البكاء الحقيقي وأحسست وكأنّ دموعي غسلت قلبي وكل جسدي من الداخل وفهمت وقتها حديث الرسول : « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »[1] .

بقيت كامل اليوم مقبوض النفس وقد حاول صديقي تسليتي وتعزيتي وقدّم إليّ بعض المرطّبات ولكن شهيّتي انقطعت تماماً ، وبقيت أسأله أن يعيد عليّ قصّة مقتل سيدنا الحسين ، لأنّي ما كنت أعرف منها قليلاً أو كثيراً غاية ما هناك أنّ شيوخنا إذا حدّثونا عن ذلك يقولون : أنّ المنافقين أعداء الإسلام الذين قتلوا سيدنا عمر ، وسيدنا عثمان ، وسيدنا علي ، هم الذين قتلوا سيدنا الحسين ، ولا نعرف غير هذا الإقتضاب بل إنّنا نحتفل بيوم عاشوراء على أنّه من الأعياد الإسلامية ، وتخرج فيه زكاة الأموال وتطبخ فيه شتّى المأكولات وأنواع الأطعمة الشهيّة ، ويطوف الصبيان على الكبار ليعطوهم بعض النقود لشراء الحلويات والألعاب .

صحيح أنّ هناك بعض التقاليد والعادات في بعض القرى منها أنّهم يشعلون النار ، ولا يعملون في ذلك اليوم ولا يتزوّجون ولا يفرحون ، ولكن نسمّيها عادات وتقاليد بدون ذكر أي تفسير لها ، ويروي علماؤنا في ذلك أحاديث عن فضائل يوم عاشوراء وما فيه من بركات ورحمات أنّه أمر عجيب ! .

زرنا بعد ذلك ضريح العبّاس أخي الحسين، ولم أكن أعرف من هو وقد روى لي صديقي قصة بطولته وشجاعته ، كما التقينا بالعديد من العلماء الأفاضل الذين لا أتذكر أسماءهم بالتفصيل سوى بعض الألقاب ، كبحر العلوم والسيد

---

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 185 ، صحيح مسلم ج 6 ص 201 .

الحكيم وكاشف الغطاء وآل ياسين والطباطبائي والفيروز آبادي وأسد حيدر وغيرهم ممن تشرّفت بمقابلتهم .

والحق يقال إنّهم علماء أتقياء ، تعلوهم هيبة ووقار ، والشيعة يحترمونهم كثيراً ويؤدّون إليهم خمس أموالهم ، والتي بها يديرون شؤون الحوزات العلمية ويؤسسون المدارس والمطابع وينفقون على طلاّب العلم الوافدين من كل البلاد الإسلامية ، إنّهم مستقلّون ولا يرتبطون بالحكّام من قريب أو من بعيد كما هو شأن علمائنا الذين لا يفتون ولا يتكلّمون إلاّ برأي السلطة التي تضمن معاشهم ، وتعزل من تشاء منهم وتنصّب من تشاء .

إنّه عالم جديد بالنّسبة إليّ اكتشفته ، أو كشفه الله لي وقد أنست به بعدما كنت أنفر منه وانسجمتُ معه بعدما كنت أعاديه ، وقد أفادني هذا العالم أفكاراً جديدة وبعث فيّ حُبَّ الإطلاع والبحث والدراسة حتى أدرك الحقيقة المنشودة التي طالما راودتني عندما قرأت الحديث الشريف الذي قال فيه رسول الله (ص) : « افترقت بنو إسرائيل إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النّصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمّتي إلى ثلاثةٍ وسبعين فرقة كلّها في النار إلاّ فرقة واحدة »[1] .

فلا كلام لنا مع الأديان المتعددة التي يدّعي كل منها أنّه هو الحق وغيره الباطل ، ولكن أعجب واندهش وأحتار عند قراءة هذا الحديث ، وليس عجبي وإندهاشي وحيرتي للحديث نفسه ولكن للمسلمين الذين يقرؤون هذا الحديث ويردّدونه في خطبهم ويمّرون عليه مرَّ الكرام بدون تحليل ، ولا بحث في مدلوله لكي يتبيّنوا الفرقة الناجية من الفرق الضالّة .

والغريب أنّ كل فرقة تدّعي أنّها هي وحدها النّاجية وقد جاء في ذيل الحديث : قالوا من هم يا رسول الله ؟ قال : « من هم على ما أنا عليه أنا وأصحابي » فهل هناك فرقة إلاّ وهي متمسّكة بالكتاب والسنّة ، وهل هناك فرقة إسلامية تدّعي غير هذا ؟ فلو سئل الإمام مالك أو أبو حنيفة أو الإمام الشافعي

---

(1) مسند أحمد ج 3 ص 120 ، ص 145 ، راجع العمدة لابن بطريق ص 75 فقد نقل الحديث من عدة طرق .

أو أحمد بن حنبل فهل يدّعي أي واحد منهم إلاّ التمسّك بالقرآن والسنة الصحيحة ؟

فهذه المذاهب السنّية وإذا أضفنا إليها الفرق الشيعية التي كنت أعتقد بفسادها وانحرافها ، فها هي الأخرى تدّعي أيضاً أنّها متمسّكة بالقرآن والسنّة الصحيحة المنقولة عن أهل البيت الطاهرين ، وأهل البيت أدرى بما فيه كما يقولون .

فهل يمكن أن يكونوا كلّهم على حقّ كما يدّعون ؟ وهذ غير ممكن لأنّ الحديث الشريف يفيد نقيض ذلك ، أللهم إلاّ إذا كان الحديث موضوعاً ، مكذوباً ، وهذا لا سبيل إليه لأنّ الحديث متواتر عند السنّة والشيعة ، أم أنّ الحديث لا معنى له ولا مدلول ؟ وحاشى لرسول الله (ص) أن يقول شيئاً لا معنى له ولا مدلول وهو الذي لا ينطق عن الهوى[1] وكل أحاديثه حكمة وعبر .

إذاً لم يبق أمامنا إلاّ الإعتراف بأنّ هناك فرقة واحدة على الحق وما بقي فهو باطل ، فالحديث يبعث على الحيرة كما يبعث على البحث والتنقيب لمن يريد لنفسه النجاة .

ومن أجل هذا داخلني الشكّ والحيرة بعد لقائي بالشيعة فمن يدري لعلّهم يقولون حقّاً وينطقون صدقاً ! ولماذا لا أبحث ولا أنقّب .

وقد كلّفني الإسلام بقرآنه وسنّته أن أبحث وأقارن وأتبيّن قال الله تعالى : **﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾**[2] وقال أيضاً : **﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾**[3] .

وقد قال رسول الله (ص) : « ابحث عن دينك حتى يقال عنك مجنون »[4]

---

(1) تضمين من سورة النجم الآية 3 ﴿ وما ينطق عن الهوى . . . ﴾ .
(2) سورة العنكبوت : الآية 69 .
(3) سورة الزمر : الآية 18 .
(4) صحيح البخاري ج 3 ص 315 .

السفر إلى الحجاز

وصلت إلى جدّة والتقيت صديقي البشير الذي فرح بقدومي ، وأنزلني في بيته ، وأكرمني غاية الإكرام ، وكان يقضي أوقات فراغه معي في النزهة والمزارات بسيّارته ، وذهبنا للعمرة معاً وعشنا أياماً كلّها عبادة وتقوى ، واعتذرت له عن تأخري لبقائي في العراق وحكيت له عن اكتشافي الجديد أو الفتح الجديد ، وكان متفتحاً ومطّلعاً فقال : فعلاً أنا أسمع أنّ فيهم بعض العلماء الكبار وعندهم ما يقولون ، ولكنّ عندهم فرقاً كثيرة كافرة منحرفة يخلقون لنا مشاكل متعدّدة في كل موسم للحج .

سألته ما هي هذه المشاكل التي يخلقونها ؟

أجاب : إنّهم يصلّون حول القبور ، ويدخلون البقيع جماعات فيبكون وينوحون ويحملون في جيوبهم قطعاً من الحجارة يسجدون عليها ، وإذا ذهبوا إلى قبر سيدنا الحمزة في أحد ، فهناك يقيمون جنازة بلطم وعويل وكأنّ الحمزة مات في ذلك الحين ، ومن أجل كل ذلك منعتهم الحكومة السعودية من الدخول إلى المزارات .

ابتسمت ، وقلت له : ألهذا تحكم عليهم بأنّهم منحرفون عن الإسلام ؟

قال : هذا وغيره ، إنّهم يأتون لزيارة النبيّ ، ولكنّهم في نفس الوقت يقفون على قبر أبي بكر وعمر ويسبّونهما ويلعنونهما ومنهم من يلقي على قبر أبي بكر وقبر عمر القذارات والنجاسات .

وذكّرني هذا القول بالرواية التي سمعتها من والدي غداة رجع من الحجّ ولكنّه قال : بأنّهم يلقون القذارات على قبر النبيّ ، ولا شكّ بأنّ والدي لم يشاهد ذلك بعينيه لأنّه قال : شاهدنا جنوداً من الجيش السعودي يضربون بعض الحجّاج بالعصي ، ولمّا استنكرنا عليهم إهانتهم لحجّاج بيت الله الحرام ، أجابونا : بأنّ هؤلاء ليسوا من المسلمين ، فهم من الشيعة جاؤوا بالقذارات ليلقوها على قبر النبي ، قال والدي : عند ذلك لعنّاهم وبصقنا عليهم .

وها أنا الآن أسمع من صديقي السعودي المولود في المدينة المنوّرة ، بأنّهم يأتون لزيارة قبر النبي ، ولكنهم يلقون النجاسات على قبر أبي بكر وعمر ، وشككت في صحة الرّوايتين ، لأنّي حججت ورأيت أنّ الحجرة المباركة التي يوجد فيها ضريح النبي وأبي بكر وعمر مغلقة ولا يمكن لأي شخص أن يقترب منها للتمسّح على بابها أو شبّاكها ، فضلاً على أن يلقي فيها أشياء ، أوّلاً : لعدم وجود فجوات وثانياً : لوجود حراسة مشدّدة من الجنود الغلاظ الذين يتداولون على الرّقابة والحراسة أمام كل باب وفي أيديهم سياط يضربون بها كل من يقترب أو يحاول أن ينظر داخل الحجرة ، والغالب على الظنّ أنّ بعض الجنود من السعودية وهم يكفّرون الشيعة ، رماهم بهذه التهمة ليبرّر ضربه لهم ، وحتّى يستفزّ المسلمين لمقاتلتهم أو على الأقل ليسكتوا على إهانتهم ، ويروّجوا إذا رجعوا إلى بلدانهم أنّ الشيعة يبغضون رسول الله ، ويلقون على قبره النجاسات ، وبذلك يضربون عصفورين بحجر واحد .

وهذا نظير ما حكاه أحد الفضلاء ممن أثق بهم إذْ قال : كنّا نطوف بالبيت فإذا بشابّ أصابه مغص من شدّة الزحام فتقيّأ ، وضربه الجنود الذين كانوا يحرسون الحجر الأسود وأخرجوه وهو في حالة يرثى لها واتّهموه بأنّه جاء بالنجاسة لتوسيخ الكعبة وشهدوا عليه وأعدم في نفس اليوم .

وجالت بخاطري هذه المسرحيات وبقيت أفكّر برهة في تعليل صديقي السعودي لتكفير هؤلاء الشيعة ، فلم أسمع غير أنّهم يبكون ويلطمون ويسجدون على الحجر ويصلّون حول القبور ، وتساءلت أفي هذا دليل على تكفير

من يشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ؟ ويقيم الصّلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحجّ البيت ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وما أردت معاندة صديقي والدخول معه في جدال لا طائل من ورائه فاقتصرت على القول : هدانا الله وإيّاهم إلى صراطه المستقيم ولعن الله أعداء الدّين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين .

وكنت كلّما طفت بالبيت العتيق خلال العمرة ، وفي كل زيارة لمكة المكرّمة ، ولم يكن يطوف بها إلاّ نفر قليل من المعتمرين ، صلّيت وسألت الله سبحانه من كل جوارحي أن يفتح بصيرتي ويهديني إلى الحقيقة .

وقفت على مقام إبراهيم (ع) واستعرضت الآية الكريمة **﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾**[1] صدق الله العظيم .

وبدأت أناجي سيدنا إبراهيم أو أبانا إبراهيم كما سمّاه القرآن :

ـ يا أبتاه ، يا من سمّيتنا المسلمين ، ها قد اختلف أبناؤك من بعدك فأصبحوا يهوداً ونصارى ومسلمين ، واختلف اليهود فيما بينهم إلى إحدى وسبعين فرقة واختلف النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، واختلف المسلمون إلى ثلاث وسبعين فرقة ، وكلهم في الضلالة حسبما أخبر بذلك ابنك محمّد وفرقة واحدة بقيت على عهدك يا أبتاه[2] ! .

أهي سنّة الله في خلقه كما يقول القدرية[3] ، فالله سبحانه هو الذي كتب

---

(1) سورة الحج : الآية 78 .
(2) كما ورد مضمون هذا الحديث في ص 74 فراجع .
(3) القدرية : وهم فرقة يقولون بأن كل فعل يصدر عن الإنسان خيراً كان أو شراً ، فهو مخلوق له

على كل نفس أن تكون يهودية أو نصرانية أو مسلمة ، أو ملحدة ، أو مشركة ، أم أنّه حبّ الدنيا والإبتعاد عن تعاليمه سبحانه ، ذلك بأنّهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، إنّ عقلي لا يطاوعني بتصديق أنّ القضاء والقدر هو الذي حتّم مصير الإنسان ، بل أميل وأكاد أجزم بأنّ الله سبحانه خلقنا وهدانا وألهمنا الفجور والتقوى ، وأرسل إلينا رسله ليوضّحوا لنا ما أشكل علينا ويعرفوننا الحق من الباطل ، ولكنّ الإنسان غرّته الحياة الدنيا وزينتها ، الإنسان بأنانيّته وكبريائه ، بجهله وفضوله ، بعناده ولجاجته ، بظلمه وطغيانه مال عن الحقّ واتّبع الشيطان وابتعد عن الرحمن فورد غير مورده ، وأكل غير مأكله ، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك أحسن تعبير وأوجزه بقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون** ﴾[1] .

يا أبانا إبراهيم ، لا لوم على اليهود والنصارى الذين عاندوا الحقّ بغياً بينهم لّما جاءتهم البيّنة ، فها هي الأمّة التي أنقذها الله بولدك محمد وأخرجها من الظلمات إلى النور وجعلها خير أمّة أخرجت للنّاس ، فهي الأخرى اختلفت وتفرّقت وكفّر بعضها بعضاً ، وقد حذّرهم رسول الله (ص) ونبّههم إلى ذلك وضيّق عليهم حتى قال : « لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث »[2] فما بال هذه الأمّة قد انقسمت وافترقت وأصبحت دويلات يعادي بعضها البعض ويحارب بعضها البعض ويكفّر بعضها البعض وحتّى لا يعرف بعضها البعض الآخر ، فيهجره طيلة حياته ، ما لهذه الأمة يا أبانا إبراهيم بعدما كانت خير الأمم وقد ملكت الشرق والغرب وأوصلت للناس الهداية والعلوم والمعرفة والحضارة ، إذا بها اليوم أصبحت أقلّ الأمم وأذلّها فأراضيهم مغتصبة وشعوبهم مشرّدة ومسجدهم الأقصى تحتلّه عصابة من الصهاينة ولا يقدرون على تحريره ، وإذا زرتَ بلدانهم فإنّك لا ترى إلاّ الفقر المدقع والجوع القاتل والأراضي القاحلة ، والأمراض الفتّاكة والأخلاق السيّئة ، والتخلّف الفكري والتقني ،

وحده ، بعد أن قدره بعلمه وتحرك نحوه بإرادته ، من دون أن يكون لعلم الله أو إرادته دخل في ذلك التقدير .

(1) سورة يونس : الآية 44 .

(2) مسند أحمد ج 2 ص 292 .

والظلم والإضطهاد ، والأوساخ والحشرات ، ويكفيك فقط أن تقارن بيوت الرّاحة (المراحيض) العمومية كيف هي في أوروبا وكيف هي عندنا ، فإذا دخل المسافر إلى المراحيض في أوروبا بأسرها وجدها نظيفة تلمع كالبلّور وفيها روائح طيبة بينما لا يطيق المسافر إلى البلاد الإسلامية الدخول إلى المراحيض لعفونتها ونجاستها ونتونتها ونحن الذين علّمنا الإسلام (إنّ النظافة من الإيمان والوسخ من الشيطان) ، فهل تحوّل الإيمان إلى أوروبا وسكن الشيطان عندنا ؟ لماذا أصبح المسلمون يخافون من إظهار عقيدتهم حتى في بلدانهم ، ولا يتحكّم المسلم حتّى في وجهه فلا يتمكّن من إعفاء لحيته ولا من لبسه الزي الإسلامي بينما يتجاهر الفاسقون بشرب الخمر والزنا وهتك الأعراض ولا يقدر المسلم دفعهم بل ولا حتّى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وقد بلغني أنّ في بعض البلاد الإسلامية مثل مصر والمغرب يبعث بعض الأباء بناتهم للبغاء من شدّة الفقر والبؤس والإحتياج فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .

يا إلهي لماذا ابتعدتَ عن هذه الأمّة وتركتها تتخبّط في الظلمات ، لا ، لا ، استغفرك يا إلهي وأتوب إليك ، فهي التي ابتعدت عنك عن ذكرك ، واختارت طريق الشيطان ، وأنت جلّت حكمتك ، وتعالت قدرتك قلت ، وقولك الحق : **﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾**[1] وقلت أيضاً : **﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾**[2] .

ولا شكّ أنّ ما وصلت إليه الأمّة الإسلامية من الإنحطاط والتخلّف والذلّة والمسكنة لدليل قاطع على بعدها عن الصراط المستقيم ، ولا شك أنّ القلّة القليلة أو الفرقة الواحدة من بين ثلاثة وسبعين ، لا تؤثّر في مسيرة أمّة بأكملها .

وقد قال رسول الله (ص) : « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر ، »

---

(1) سورة الزخرف : الآية 36 .
(2) سورة آل عمران : الآية 144 .

ليسلّطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم »[1] .

ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب . ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين .

سافرت إلى المدينة المنوّرة محمّلاً برسالة من صديقي بشير إلى أحد أقربائه لكي أقيم عنده مدّة بقائي هناك ، وقد كلّمه من قبل بالهاتف ، واستقبلني هذا الأخير ، ورحّب بي وأنزلني في بيته ، وتوجّهت فور وصولي إلى زيارة قبر رسول الله (ص) ، فاغتسلت وتطيّبت ، ولبست أحسن ثيابي وأطهرها ، وكان الزوّار قليلين بالنّسبة إلى موسم الحجّ فتمكنّت من الوقوف أمام قبر رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر ، ولم أكن أتمكّن من ذلك في موسم الحجّ لكثرة الإزدحام ، وحاولت عبثاً أن أمسّ أحد الأبواب للتبرّك ، فانتهرني الحرس الواقف هناك ، وكان على كل باب حرس يحرسه ، ولمّا أطلت الوقوف للدّعاء وإبلاغ السلام الذي حمّلني إيّاه أصدقائي ، أمرني الحرّاس بالإنصراف ، وحاولت أن أتكلّم مع واحد منهم ولكن دون جدوى .

ورجعت إلى الرّوضة المطهّرة ، حيث جلست أقرأ ما تيسّر من القرآن ، وأحسن الترتيل وأعيده مرّات ، لأنّي تخيّلت وكأنّ رسول الله (ص) يستمع إليّ ، وقلت في نفسي : أيمكن أن يكون الرسول ميتاً كسائر الأموات ، فلماذا نقول في صلاتنا ، السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته بصفة المخاطب ، وإذا كان المسلمون يعتقدون بأنّ سيدنا الخضر (ع) لم يمت ويردّ السلام على كل من يسلّم عليه ؛ بل وأنّ مشايخ الطرق الصوفية يعتقدون جزماً بأنّ شيخهم أحمد التيجاني أو عبد القادر الجيلاني يأتون إليهم جهاراً ويقظة لا مناماً ، فلماذا نشحُّ على رسول الله (ص) بمثل هذه المكرمة وهو أفضل الخلق على الإطلاق ، ولكن يخفّف على نفسي أنّ المسلمين لا يشحّون بذلك على رسول الله (ص) ، إلا الوهابية الذين بدأت أنفر منهم لهذا ولعدة أسباب أخرى منها الغلظة التي

---

(1) مسند أحمد ج 5 ص 390 .

شاهدتها فيهم والشدّة على المؤمنين الذين يخالفونهم في معتقداتهم . زرت البقيع وكنت واقفاً أترحّم على أرواح أهل البيت ، وكان بالقرب مني شيخ طاعن في السن يبكي وعرفت من بكائه أنّه شيعي ، واستقبل القبلة وبدأ يصلّي وإذا بالجندي يأتي إليه بسرعة وكأنّه كان يراقب تحركاته وركله بحذائه ركلة وهو في حالة سجود فقلبه على ظهره وبقي المسكين فاقد الوعي بضع دقائق وانهال عليه الجندي ضرباً وسبّاً وشتماً ، ورقّ قلبي لذلك الشيخ ، وظننت أنّه مات ودفعني فضولي وأخذتني الحميّة وقلت للجندي : حرام عليك لماذا تضربه وهو يصلّي ؟ فانتهرني قائلاً : أسكت أنت ولا تتدخّل حتّى لا أصنع بك مثله .

ولمّا رأيت في عينيه الشرّ ، تجنّبته وأنا ساخط على نفسي العاجزة عن نصرة المظلوم ، وعلى السعوديين الذين يفعلون بالناس ما بدا لهم بدون رادع ولا وازع ولا من ينكر عليهم ، وكان بعض الزائرين حاضراً فمنهم من حوقل[1] ومنهم من قال : إنّه يستحقّ ذلك لأنّه يصلّي حول القبور وهو محرّم ، فلم أتمالك وانفجرت على هذا المتكلّم قائلاً : من قال لك إنّ الصلاة حول القبور حرام ؟ أجابني : قد نهى رسول الله عن ذلك .

فقلت بدون وعي : تكذبون على رسول الله ، وخشيت أن يتألّب عليّ الحاضرون أو ينادوا الجندي فيفتك بي ، فتلطّفت قائلاً : إذا كان رسول الله (ص) قد نهى عن ذلك ، فلماذا يخالف نهيه الملايين من الحجّاج والزوّار ويرتكبون حراماً لأنّهم يصلّون حول قبر النبي وقبر أبي بكر وقبر عمر في المسجد النبوي الشريف ؟! وفي مساجد المسلمين في كل العالم الإسلامي ؟ وعلى افتراض أنّ الصّلاة حول القبور حرام ، أفبهذه الغلظة والشدّة نعالجها ؟ أم باللين واللطف ، وأسمحوا لي أن أروي لكم قصّة ذلك الأعرابي الذي بال في مسجد رسول الله بحضرته وبحضرة أصحابه بدون حياء ولا خجل ، ولمّا قام إليه بعض الصحابة شاهرين سيوفهم ليقتلوه ، نهاهم رسول الله (ص) ومنعهم وقال : « دعوه ولا تزرموه[2] وهريقوا على بوله دلواً من الماء ، إنّما بعثتم لتيسّروا

---

(1) حوقل : قال لا حول ولا قوة إلاّ بالله .

(2) أزرمه : قطع عليه بوله « الصحاح ج 5 ـ مادة زرم ـ 1941 » .

لا لتعسرّوا ، لتبشرّوا لا لتنفرّوا »[1] وما كان من الصحابة إلاّ أن امتثلوا أمره ، ونادى رسول الله على الأعرابي وأجلسه إلى جانبه ورحّب به ولاطفه وأفهمه أنّ ذلك المكان هو بيت الله ولا يمكن تنجيسه فأسلم الأعرابي ولم يُر بعد ذلك إلاّ وهو آت المسجد في أحسن ثيابه وأطهرها ، وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك ﴾[2] .

وتأثّر بعض الحاضرين عند سماع القصّة فاختلى بي أحدهم إلى جانب وسألني : من أين أنت ؟ قلت من تونس فسلّم عليّ وقال : يا أخي بالله عليك أن تحفظ نفسك ، ولا تتكلّم مثل هذا هنا أبداً . أنصحك لوجه الله . وازددت بغضاً وحنقاً على هؤلاء ؟ الذين يدّعون أنّهم حماة الحرمين ويعاملون ضيوف الرحمن بهذه القسوة ، ولا يقدر أحد أن يبدي رأيه ، أو يروي أحاديث لا تتفق وما يروونه ، أو يعتقد غير ما يعتقدونه .

رجعت إلى بيت الصّديق الجديد الذي لم أعرف اسمه ، وقد جاءني بالعشاء وجلس مقابلي ، وقبل أن نبدأ في الأكل سألني أين ذهبت ؟ ورويت له قصّتي من أوّلها إلى آخرها ؛ وقلت في معرض كلامي : يا أخي أنا بصراحة بدأت أنفر من الوهّابية وأميل إلى الشيعة ، فتغيّر وجهه وقال لي : إيّاك أن تتكلّم مثل هذا الكلام مرّة أخرى ! وغادرني ولم يأكل معي ، وانتظرته طويلاً حتى غلبني النوم ، وأفقت باكراً على أذان المسجد النبوي فرأيت أن الأكل لا يزال في مكانه كما تركته وعلمت بأن مضيفي لم يرجع ، وتشككت في أمره وخشيت أن يكون من المخابرات ، فنهضت مسرعاً وغادرت البيت بدون رجعة ، وقضيت كامل اليوم في الحرم النبوي أزور وأصلّي وأخرج لقضاء الحاجة والوضوء وبعد صلاة العصر سمعت أحد الخطباء يلقي درساً وسط جماعة من المصلّين ، واتّجهت وعلمت من بعض الجالسين أنّه قاضي المدينة ، واستمعت إليه وهو يفسّر بعض آيات من الذكر الحكيم ، وبعد ما أتمّ درسه وهمّ بالخروج ، استوقفته وسألته قائلاً : سيدي هل لك أن تعطيني مدلول الآية من قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب

---

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 53 ، ج 4 ص 54 .
(2) سورة آل عمران : الآية 159 .

عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[1] .

فمن هم أهل البيت المقصودون بهذه الآية ؟

أجابني على الفور : هم نساء النبي وقد بدأت الآية بذكرهنّ ﴿ يا نساء النبي لستن كأحدّ من النساء إن اتقيتن ﴾[2] .

قلت له : إنّ علماء الشيعة يقولون بأنّها خاصّة بعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وقد اعترضت عليهم طبعاً وقلت بأنّ بداية الآية تقول : ﴿ يا نساء النبي ﴾ ، فأجابوني لمّا كان الكلام عليهنّ جاءت الصيغة كلّها بنون النسوة ، فقال تعالى : لستنّ ، إن اتقيتنّ ، فلا تخضعن ، وقلن ، وقرن في بيوتكنّ ، ولا تبرجنّ ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، ولمّا كان هذا المقطع من الآية خاصّاً بأهل البيت تغيّرت الصيغة فقال : ليذهب عنكم ، ويطهّركم ، فنظر إليّ رافعاً نظّارته وقال : إيّاك وهذه الأفكار المسمومة ، إنّ الشيعة يؤوّلون كلام الله على حسب أهوائهم ولهم في عليّ وذريته آيات لا نعرفها وعندهم قرآن خاصّ يسمّونه مصحف فاطمة ، فأنا أحذّرك أن يخدعوك .

قلت : لا تخف يا سيدي فأنا على حذر وأعرف عنهم الكثير ولكني أردت أن أتحقق ، قال : من أين أنت ؟ قلت من تونس ، قال فما اسمك ؟ قلت : التيجاني فضحك مفتخراً ، وقال هل تدري من هو أحمد التيجاني ؟ قلت : هو شيخ الطريقة ، قال وهو عميل للإستعمار الفرنسي ، وقد تركّز الإستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس بإعانته ، وإذا زرت باريس فاذهب للمكتبة القومية واقرأ بنفسك القاموس الفرنسي في باب (أ) فسترى أنّ فرنسا أعطت وسام الشرف لأحد التيجاني الذي قدّم لها خدمات لا تقاس فتعجّبت من قوله وشكرته وودّعته وانصرفت .

بقيت في المدينة أسبوعاً كاملاً حيث صلّيت أربعين صلاة وزرت المزارات كلّها ، وكنت دقيق الملاحظة خلال إقامتي هناك فلم أزدد من الوهّابية إلّا بعداً

(1) سورة الأحزاب : الآية 33 .
(2) سورة الأحزاب : الآية 32 .

ونفوراً وارتحلت من المدينة المنوّرة إلى الأردن حيث التقيت أصدقاءً هناك كنت تعرّفت عليهم في ملتقى الحجّ الذي أشرتُ إليه سابقاً .

وبقيت معهم ثلاثة أيام ، ووجدت عندهم حقداً على الشيعة أكثر مما عندنا في تونس ؛ فالروايات نفسها ، والإشاعات ذاتها ، وليس هناك واحد سألته عن الدليل إلاّ وقال بأنّه يسمع عنهم . ولم أجد أحداً منهم جالَس الشيعة ، أو قرأ كتاباً للشيعة ولا حتّى التقى شيعيّاً في حياته .

رجعتُ من هناك إلى سوريا وفي دمشق زرت الجامع الأموي وإلى جانبه مرقد رأس سيدنا الحسين ، كما زرت ضريح صلاح الدين الأيوبي والسيدة زينب ومن بيروت قطعت مباشرة إلى طرابلس ، ودامت الرحلة أربعة أيام في البحر استرحت خلالها بدنياً وفكرياً ، واستعرضت شريط الرحلة التي أوشكت على النهاية فإذا بي أستنتج ميلاً واحتراماً للشيعة ، وفي نفس الوقت بعداً ونفوراً وسخطاً على الوهّابية التي عرفت دسائسها ، وحمدت الله على ما أنعم به عليّ وما أولاني من عناية ورعاية داعياً إيّاه سبحانه وتعالى أن يهديني إلى طريق الحق .

ورجعت إلى أرض الوطن وكلّي شوق وحنين إلى أسرتي وأهلي وأصدقائي ، ووجدت الجميع بخير ، وفوجئت عند دخولي إلى منزلي ، بكثرة الكتب التي وصلت قبلي وعرفت مصدرها .

ولما فتحت تلك الكتب التي ملأت البيت ، ازددت حبّاً وتقديراً لأولئك الذين لا يخلفون وعدهم ، وقد وجدت هنا أضعاف ما أهدي إليّ هناك .

* * *

بداية البحث

فرحت كثيراً ونظّمت الكتب في بيت خاصّ سمّيته بالمكتبة ، واسترحت أيّاماً ، وتسلمت جدول أوقات العمل بمناسبة بداية السنة الدراسية الجديدة فكان عملي ثلاثة أيام متوالية من التدريس وأربعة أيام متوالية من الراحة في الأسبوع .

وبدأت أقرأ الكتب فقرأت كتاب (عقائد الإمامية) و (أصل الشيعة وأصولها) وارتاح ضميري لتلك العقائد وتلك الأفكار التي يرتئيها الشيعة ، ثم قرأت كتاب (المراجعات) للسيد شرف الدين الموسوي ، وما أن قرأت منه بضع صفحات حتّى استهواني الكتاب وشدّني إليه شدّاً فكنت لا أتركه إلاّ غصباً وكنت أحمله في بعض الأحيان إلى المعهد ، وأدهشني الكتاب بما حواه من صراحة العالم الشيعي وحلّه لما أشكل على العالم السنّي شيخ الأزهر ، وجدت في الكتاب بغيتي لأنّه ليس كالكتب التي يكتب فيها المؤلف ما يشاء بدون معارض ولا مناقش فـ (المراجعات) هو حوار بين عالمين من مذهبين مختلفين ، يحاسب كل منهما صاحبه على كل شاردة وواردة ، على كل صغيرة وكبيرة ، متوخّيين في ذلك المرجعين الأساسيين لكافّة المسلمين وهما القرآن الكريم والسنّة الصحيحة المتّفق عليها في صحاح السنّة . فكان الكتاب بحقّ يمثّل دوري كباحث يفتّش عن الحقيقة ويقبلها أينما وجدت وعلى هذا كان الكتاب مفيداً جداً وله فضل عليّ عميم .

وَوقفت مبهوتاً عندما كان يتكلّم عن عدم امتثال الصحابة لأوامر الرسول ويسوق لذلك عدّة أمثلة ، ومنها حادثة رزية يوم الخميس[1] ، إذ لم أكن أتصوّر أنّ سيدنا عمر بن الخطاب يعترض على أمر رسول الله ويرميه بالهجر ، وظننت باديء الأمر أنّ الرواية هي من كتب الشيعة ، وازدادت دهشتي وحيرتي عندما رأيت العالم الشيعي ينقلها من (صحيح البخاري) و (صحيح مسلم) وقلت في نفسي : إن وجدت هذا في (صحيح البخاري) فسيكون لي رأي .

وسافرت إلى العاصمة ومنها اشتريت (صحيح البخاري) و (صحيح مسلم) و (مسند الإمام أحمد) و (صحيح الترمذي) و (موطأ الإمام مالك) وغيرها من الكتب الأخرى المشهورة ولم أنتظر الرجوع إلى البيت فكنت طوال الطريق بين تونس وقفصة وأنا راكب في حافلة النّقل العمومية أتصفّح كتاب البخاري وأبحث عن رزيّة يوم الخميس متمنياً أن لا أعثر عليها ، ورغم أنفي وجدتها وقرأتها مرّات عديدة فكانت كما نقلها السيد شرف الدين ، وحاولت تكذيب الحادثة برمّتها واستبعدت أن يقوم سيدنا عمر بذلك الدّور الخطير ، ولكن أنّى لي تكذيب ما ورد في صحاحنا وهي صحاح أهل السنّة والجماعة التي ألزمنا بها أنفسنا وشهدنا بصحّتها ، والشكّ فيها ، أو تكذيب بعضها ، يستلزم طرحها ؛ لأنّه هو الآخر يستلزم طرح كل معتقداتنا ، ولو كان العالم الشيعي ينقل من كتبهم ، ما كنت لأصدّق أبداً ، وأمّا أن ينقل من صحاح أهل السنة التي لا مجال للطعن فيها ، وقد أخذنا على أنفسنا بأنها أصحّ الكتب بعد كتاب الله ، فيصبح الأمر ملزماً ، وإلا استلزم الشكّ في هذه الصحّاح ، وعند ذلك لا يبقى معنا من أحكام الإسلام شيء نعتمده ، لأنّ الأحكام التي وردت في كتاب الله جاءت مجملة غير مفصّلة ، ولأنّنا بعيدون عن عصر الرسالة وقد ورثنا أحكام ديننا أباً عن جد عن طريق هذه الصحّاح ، فلا يمكن بحال من الأحوال طرح هذه الكتب .

وأخذت على نفسي عهداً وأنا أدخل هذا البحث الطويل العسير ، أن أعتمد الأحاديث الصحيحة التي اتّفق عليها السنّة والشيعة ، وأن أطرح الأحاديث التي

---

(1) يأتي تفصيل هذه الحادثة في ص 95 لاحقاً .

انفـرد بها فـريق دون الآخر ، بهـذه الطريقـة المعتدلـة ، أكون قـد ابتعـدت عن المؤثرات العاطفية ، والتعصّبات المذهبية ، والنـزعات القـومية أو الـوطنية ، وفي الـوقت نفسـه أقـطع طـريق الشـكّ لأصـل إلى حبــل اليقـين وهــو صراط الله المستقيم .

* * *

بداية الدراسة المعمقة

الصحابة عند الشيعة والسنّة

من أهمّ الأبحاث التي اعتبرها الحجر الأساس في كل البحوث التي تقود إلى الحقيقة ، هو البحث في حياة الصّحابة وشؤونهم ، وما فعلوه وما اعتقدوه لأنّهم عماد كل شيء ، وعنهم أخذنا ديننا وبهم نستضيء في الظلمات لمعرفة أحكام الله ، ولقد سبق لعلماء الإسلام - لقناعتهم بذلك - البحث عنهم وعن سيرتهم .

فألفّوا في ذلك كتباً عديدة أمثال : (أسد الغابة في تمييز الصحابة) وكتاب (الإصابة في معرفة الصحابة) وكتاب (ميزان الإعتدال) وغيرها من الكتب التي تناولت حياة الصحابة بالنّقد والتحليل ولكنّها من وجهة نظر أهل السنّة والجماعة .

وثمة إشكال يتلخص في أنّ العلماء الأوائل ؛ غالباً ما كانوا يكتبون ويؤرخون بالنحو الذي يوافق آراء الحكام من الأمويّين والعباسيين ، الذين عرفوا بعدائهم لأهل البيت النبويّ ، بل ولكل من يشايعهم ويتبع نهجهم ، ولهذا فليس من الإنصاف الإعتماد على أقوالهم دون أقوال غيرهم من علماء المسلمين ، الذين اضطهدتهم تلك الحكومات وشرّدتهم وقتلتهم ؛ لأنّهم كانوا اتباع أهل البيت وكانوا مصدر تلك الثورات ضد السلطات الغاشمة والمنحرفة .

والمشكل الأساسي في كل ذلك هو الصّحابة ، فهم الذين اختلفوا في أنّ يكتب لهم رسول الله ذلك الكتاب الذي يعصمهم من الضلالة إلى قيام السّاعة واختلافهم هذا هو الذي حرم الأمّة الإسلامية من هذه الفضيلة ورماها في

الضلالة حتى انقسمت وتفرّقت وتنازعت وفشلت وذهبت ريحها .

وهم الذين اختلفوا في الخلافة فتوزعوا بين حزب حاكم وحزب معارض وسبّب ذلك تخلّف الأمّة وانقسامها إلى شيعة علي وشيعة معاوية ، وهم الذين اختلفوا في تفسير كتاب الله وأحاديث رسوله ، فكانت المذاهب والفرق والملل والنحل ، ونشأت من ذلك المدارس الكلامية والفكرية المختلفة ، وبرزت فلسفات متنوعة أملتها دوافع سياسية محضة تتصل بطموحات الهيمنة على السلطة والحكم . . .

فالمسلمون لم ينقسموا ، ولم يختلفوا في شيء لولا الصحابة وكل خلاف نشأ وينشأ إنّما يعود إلى اختلافهم في الصحابة .

فالربّ واحد ، والقرآن واحد ، والرسول واحد ، والقبلة واحدة . وهم متّفقون على ذلك وبدأ الخلاف والإختلاف في الصحابة من اليوم الأول بعد وفاة الرسول (ص) في سقيفة بني ساعدة[1] ، واستمرّ إلى يوم الناس هذا وسيستمر إلى ما شاء الله .

وقد استنتجت من خلال الحديث مع علماء الشيعة أنّ الصحابة في نظرهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

فالقسم الأول ، وهم : الصحابة الأخيار الذين عرفوا رسول الله حقّ المعرفة وبايعوه على الموت وصاحبوه بصدق في القول وبإخلاص في العمل ، ولم ينقلبوا بعده ، بل ثبتوا على العهد وقد امتدحهم الله جلّ جلاله ، في كتابه العزيز في العديد من المواقع ، وقد أثنى عليهم رسول الله في العديد من المواقع أيضاً ، والشيعة يذكرونهم باحترام وتقديس ويترضّون عليهم كما يذكرهم أهل السنّة باحترام وتقديس أيضاً .

والقسم الثاني ، وهم : الصحابة الذين اعتنقوا الإسلام واتبعوا رسول الله ولكنهم كانوا في بعض الأوقات لا يمتثلون لأوامره ونواهيه بل يجعلون لآرائهم

---

(1) سقيفة بني ساعدة : هي من أشهر القضايا في تاريخ الإسلام وقد ذكرتها كتب التاريخ المختلفة بشكل تفصيلي ، فمن أراد التفصيل فليراجع .

مجالاً في مقابل النصوص الصريحة والشيعة لا يذكرونهم إلّا بأفعالهم بدون احترام ولا تقديس كالصنف الأول .

أمّا القسم الثالث من الصحابة ، فهم : المنافقون الذين صحبوا رسول الله للكيد له وقد أظهروا الإسلام وانطوت سرائرهم على الكفر وقد تقرّبوا ليكيدوا للإسلام والمسلمين عامّة وقد أنزل الله فيهم سورة كاملة وذكرهم في العديد من المواقع وتوعّدهم بالدرك الأسفل من النار وقد ذكرهم رسول الله (ص) وحذّر منهم وعلّم بعضاً من أصحابه أسماءهم وعلاماتهم ، وهؤلاء يتّفق الشيعة والسنّة على لعنهم والبراءة منهم .

وهناك قسم خاصّ وإن كانوا من الصّحابة فهم يتميّزون عليهم بالقرابة وبفضائل خلقية ونفسية وخصوصيات اختصّهم الله ورسوله بها لا يلحقهم فيها لاحق ، وهؤلاء هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً[1] وأوجب الصلاة عليهم كما أوجبها على رسوله ، وأوجب لهم سهماً من الخمس[2] كما أوجب مودّتهم على كل مسلم كأجر للرّسالة المحمدية[3] ، فهم أولو الأمر الذين أمر بطاعتهم[4] وهم الراسخون في العلم الذين يعلمون تأويل القرآن ويعلمون المتشابه منه والمحكم[5] ، وهم أهل الذكر الذين قرنهم رسول الله بالقرآن في حديث الثقلين وأوجب التّمسك بهما[6] ، وجعلهم كسفينة

---

(1) تضمين من سورة الأحزاب : ﴿ إنما يريد الله ليذهب . . . ﴾ الآية 33 .

(2) ورد هذا المعنى في سورة الأنفال : ﴿ واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه . . . ﴾ الآية 41 .

(3) ورد هذا المعنى في سورة الشورى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً . . . ﴾ الآية 23 .

(4) ورد هذا المعنى في سورة النساء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله . . . ﴾ الآية 59 .

(5) ورد هذا المعنى في سورة آل عمران : ﴿ هو الذي أنزل الكتاب . . . وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم . . . ﴾ الآية 7 .

(6) ورد في الحديث النبوي الشريف ، قال رسول الله (ص) : « إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما » . انظر مسند أحمد : ج 5 ص 181 ، كنز العمال : ج 1 ص 943 وص 945 ، المستدرك للحاكم : ج 3 ص 148 .

نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق[1] ، والصحابة يعرفون قدر أهل البيت ويعظّمونهم ويحترمونهم ، والشيعة يقتدون بهم ويقدّمونهم على كل الصحابة ، ولهم في ذلك أدلّة من النصوص الصريحة .

أمّا أهل السنّة والجماعة فإنّهم مع احترامهم لأهل البيت وتعظيمهم وتفضيلهم إلاّ أنّهم لا يعترفون بهذا التقسيم للصحابة ولا يعدّون المنافقين في الصحابة ، بل الصحابة في نظرهم خير الخلق بعد رسول الله .

وإذا كان هناك تقسيم فهو من باب فضيلة السبق للإسلام والبلاء الحسن فيه فيفضّلون الخلفاء الراشدين بالدرجة الأولى ثم الستّة الباقين من العشرة المبشّرين بالجنّة على ما يروونه .

ولذلك تراهم عندما يصلّون على النبي وأهل بيته يلحقون بهم الصحابة أجمعين بدون استثناء .

هذا ما أعرفه من علماء أهل السنّة والجماعة ، وذاك ما سمعته من علماء الشيعة في تقسيم الصحابة ، وهذا ما دعاني إلى أن أجعل بحثي يبدأ بهذه الدراسة المعمّقة حول الصحابة وعاهدت ربّي - إن هداني - أن أتجرّد من العاطفة لأكون حيادياً ، موضوعياً ولأسمع القول من الطرفين فأتّبع أحسنه ، ومرجعي في ذلك :

1 - القاعدة المنطقية السليمة ؛ وهي أن لا أعتمد إلاّ ما اتّفقوا عليه جميعاً بشأن التفسير لكتاب الله والصحيح من السنّة النبوية الشريفة .
2 - العقل ؛ فهو أكبر نعمة من نعم الله على الإنسان ؛ إذ به كرّمه وفضّله على سائر مخلوقاته ، ألا ترى أنّ الله سبحانه عندما يحتجّ على عباده يدعوهم للتعقّل بقوله :

---

(1) كما في قوله (ص) : « إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » انظر المستدرك للحاكم : ج 3 ص 151 ، تلخيص الذهبي المطبوع بهامش المستدرك ج 3 ص 151 ، وانظر المزيد من الأحاديث في كتاب العمدة لابن بطريق من ص 358 إلى ص 360 .

« أفلا يعقلون[1] ، أفلا يفقهون[2] ، أفلا يتـدبّرون[3] ، أفـلا يبصرون[4] الخ . . . » .

وليكن إسلامي مبدئيـاً إيمانـاً بالله وملائكته وكتبـه ورسله وأنّ محمداً عبـده ورسوله ، وأنّ الدين عند الله الإسلام ، ولا أعتمد في ذلـك على أي واحـد من الصحابة مهما كانت قـرابته ومهـما علت منزلتـه فأنـا لست أمويّـاً ولا عبّاسيـاً ولا فاطمياً ، ولا سنّياً ولا شيعياً وليست لي آي عـداوة لأبي بكر ولا لعمر ولا لعثمان ولا لعلي ، ولا حتّى لوحشي قاتل سيدنا الحمـزة ما دام أنّـه أسلم والإسلام يجبّ ما قبله وقد عفا عنه رسول الله (ص) .

وما دمت أقحمت نفسي في هذا البحث بغية الوصول للحقيقة ومـا دمت قد تجرّدت من كل الأفكار المسبّقة بكل إخلاص فأنا أبدأ هذا البحث على بركـة الله في مواقف الصحابة .

١ ـ الصحابة في صلح الحديبية

مجمل القصّة ، أنّ رسول الله (ص) خرج في السنة السادسة للهجرة يـريد العمرة مع ألف وأربعمائة من أصحابه فـأمرهم أن يضعـوا سيوفهم في القـرَب ، وأحرم هو وأصحابه بذي الحليفة وقلّدوا الهـديَ ليُعلِم قريشـاً أنّه إنّما جاء زائـراً معتمراً وليس محارباً ، ولكنّ قريشاً بكبريائها خافت أن يسمع العرب بأنّ محمـداً دخل عنوة إلى مكّة وكسر شوكتها ، فبعثوا إليه بوفـد يرأسـه سهيل بن عمـرو بن عبد ودّ العامري وطلبوا منه أن يرجع في هذه المرّة من حيث أتى على أن يتركوا له مكّة في العام القادم ثلاثة أيام ، وقد اشترطوا عليه شروطاً قاسية قبلها رسول الله لإقتضاء المصلحة التي أوحى بها إليه ربّه عزّ وجلّ .

ولكن بعض الصحابة لم يعجبهم هذا التّصرف من النبي وعارضـوه في ذلك

---

(1) ورد في سورة يٓسٓ : الآية 68 .

(2) في سورة الأنعام : الآية 65 .

(3) في سورة النساء : الآية 82 ، سورة محمد : الآية 24 .

(4) في سورة السجدة : الآية 27 .

معارضة شديدة وجاءه عمر بن الخطاب فقال : ألست نبي الله حقّاً ؟ قال : بلى ، قال عمر : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال عمر : فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال رسول الله (ص) : « إنّي رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » قال عمر : أولست كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنّا نأتيه العام » ؟ قال عمر : لا ، قال : « فإنّك آتيه ومطوّف به » .

ثم أتى عمر بن الخطاب إلى أبي بكر فقال : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقّاً ؟ قال : بلى . ثم سأله عمر نفس الأسئلة التي سألها رسول الله ، وأجابه أبو بكر بنفس الأجوبة قائلاً له : أيها الرجل إنّه لرسول الله وليس يعصي ربّه وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، ولمّا فرغ رسول الله (ص) من كتاب الصلح قال لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم أحلقوا » فوالله ما قام منهم رجل حتّى قال ذلك ثلاث مرّات ، فلمّا لم يمتثل لأمره منهم أحد دَخَلَ خباءه ثم خرج فلم يكلّم أحداً منهم بشيء حتى نحر بدنةً بيده ، ودعا حالقه فحلق رأسه ، فلمّا رأى أصحابه ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتّى كاد بعضهم يقتل بعضاً[1] .

هذه مجمل قصة الصلح في الحديبية وهي من الأحداث المتفق عليها عند الشيعة والسنّة وقد ذكرها المؤرخون وأصحاب السير كالطبري وابن الأثير وابن سعد وغيرهم كالبخاري ومسلم .

وأنا لي هنا وقفة ، فلا يمكن لي أن أقرأ مثل هذا ولا أتأثر ولا أعجب من تصرّف هؤلاء الصحابة تجاه نبيّهم ، وهل يقبل عاقل قول القائلين بأنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يمتثلون أوامر رسول الله (ص) وينفّذونها ، فهذه الحادثة تقطع عليهم ما يرومون ، هل يتصوّر عاقل بأنّ هذا التصرّف في مواجهة النبيّ هو أمر هينّ ؛ أو مقبول ؛ أو معذور ؛ قال تعالى :

---

(1) هذه القصة أخرجها أصحاب السير والتواريخ كما أخرجها البخاري في صحيحه من كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد ج 2 ـ ص 122 ـ صحيح مسلم في باب صلح الحديبية ج 2 .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[1] .

فهل سلّم عمر بن الخطاب هنا ولم يجد في نفسه حرجاً مما قضى الرسول (ص) ؟! أم كان في موقفه تردد في أمر النبي ؟ وخصوصاً في قوله : أولست نبي الله حقّاً ؟ أولست كنت تحدثنا ؟ إلى آخره ، وهل سلّم بعد ما أجابه رسول الله بتلك الأجوبة المقنعة ؟ كلاّ لم يقتنع بجوابه وذهب يسأل أبا بكر الأسئلة نفسها ، وهل سلّم بعدما أجابه أبو بكر ونصحه أن يلزم غرز النبي ، لا أدري إذا كان سلّم بذلك ، أو اقتنع بجواب النبي أو بجواب أبي بكر !! وإلاّ لماذا تراه يقول عن نفسه : فعملت لذلك أعمالاً . . ولا أدري سبب تخلّف البقية الباقية من الحاضرين بعد ذلك إذ قال لهم رسول الله (ص) : « قوموا فانحروا ثم أحلقوا » فلم يستمع إلى أمره أحد منهم حتّى كرّرها عليهم ثلاث مرّات بدون جدوى .

سبحان الله ! أنا لا أكاد أصدّق ما أقرأ ، وهل يصل الأمر بالصحابة إلى هذا الحدّ في التعامل مع أمر الرسول ، ولو كانت هذه القصّة مروية من طريق الشيعة وحدهم لعددتُ ما قالوا افتراء على الصحابة الكرام ، ولكنّ القصّة بلغت من الصحة والشهرة أن تناقلها كل المحدّثين من أهل السنّة والجماعة أيضاً ، وبما أنّني ألزمت نفسي توثيق ما اتّفقوا عليه ، فلا أراني إلاّ مسلّماً ومتحيّراً : ماذا عساني أن أقول ؟ وبم أعتذر عن هؤلاء الصحابة الذين قضوا مع رسول الله قرابة عشرين عاماً من البعثة إلى يوم الحديبية ، وهم يشاهدون المعجزات وأنوار النبوّة ، والقرآن يعلّمهم ليلاً نهاراً كيف يتأدّبون مع حضرة الرسول وكيف يكلّموه ، حتّى هدّدهم الله بإحباط أعمالهم إن رفعوا أصواتهم فوق صوته .

ويدفعني إلى الإحتمال بأنّ عمر بن الخطاب هو الذي أثار بقيّة الحاضرين ودفعهم إلى التردد والتخلّف عن أمر الرسول ـ زيادة على اعترافه بأنّه عمل لذلك

---

(1) سورة النساء : الآية 65 .

أعمالاً لم يشأ ذكرها ـ ما يردده هو في موارد أخرى قائلاً : ما زلت أصوم وأتصدّق وأصلّي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلمت به . . إلى آخر ما هو مأثور عنه في هذه القضية[1] .

ممّا يشعرنا بأنّ عمر نفسه كان يدرك بُعد الموقف الذي وقفه ذلك اليوم إنّها قصّة عجيبة وغريبة ولكنّها حقيقية . . .

٢ ـ الصحابة ورزية يوم الخميس

ومجمل القصّة أنّ الصحابة كانوا مجتمعين في بيت رسول الله قبل وفاته بثلاثة أيام ، فأمرهم أن يحضروا له الكتف والدواة ليكتب لهم كتاباً يعصمهم من الضلالة ، ولكنّ الصحابة اختلفوا ومنهم من عصى أمره واتّهمه بالهجر ، فغضب رسول الله وأخرجهم من بيته دون أن يكتب لهم شيئاً ، وإليك شيئاً من التفصيل :

قال ابن عباس : يوم الخميس وما يوم الخميس اشتدّ برسول الله وجعه ، فقال : هلمّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده ، فقال عمر إنّ النبي قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، منهم من يقول قرّبوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلّوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلمّا أكثروا اللغو والإختلاف عند النبي ، قال لهم رسول الله (ص) : « قوموا عنّي » فكان ابن عبّاس يقول : إنّ الرزية كل الرّزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[2] . هذه الحادثة صحيحة لا شك فيها ، فقد نقلها علماء الشيعة ومحدّثوهم في كتبهم ، كما نقلها علماء السنّة ومحدّثوهم ومؤرخوهم ، وهي ملزمة لي على ما ألزمت به نفسي ومن هنا أقف حائراً في تفسير الموقف الذي وقفه

---

(1) السيرة الحلبية باب صلح الحديبية ج 3 ص 27 .

(2) صحيح البخاري ج 4 ص 7 وج 1 ص 22 ، صحيح مسلم ج 11 ص 95 في آخر كتاب الوصية ، مسند الإمام أحمد ج 1 ص 325 وص 336 ، تاريخ الطبري ج 3 ص 193 ، تاريخ ابن الأثير ج 2 ص 320 .

عمر بن الخطاب من أمر رسول الله ، وأي أمر هو ؟ أمر (عاصم من الضلالة لهذه الأمّة ، ولا شكّ أنّ هذا الكتاب كان فيه شيء جديد للمسلمين سوف يقطع عليهم كل شك) .

ولنترك قول الشيعة : (بأنّ الرسول أراد أن يكتب إسم علي خليفة له ، وتفطّن عمر لذلك فمنعه) .

فلعلّهم لا يقنعوننا بهذا الزعم الذي لا يرضينا مبدئيّاً ، ولكن هل نجد تفسيراً معقولاً لهذه الحادثة المؤلمة التي أغضبت الرسول حتى طردهم وجعلت ابن عباس يبكي حتّى يبلّ دمعه الحصى ويسمّيها أكبر رزيّة ؛ أهل السنّة يقولون بأنّ عمر أحسّ بشدّة مرض النبي فأشفق عليه وأراد أن يريحه ، وهذا التعليل لا يقبله بسطاء العقول فضلاً عن العلماء ، وقد حاولت مراراً وتكراراً التماس بعض الأعذار لعمر ولكنّ واقع الحادثة يأبى عليّ ذلك ، وحتّى لو أبدلتُ كلمة يهجر ـ والعياذ بالله ـ بلفظة (غلبه الوجع) فسوف لن نجد مبرّراً لقول عمر : (عندكم القرآن) و (حسبنا كتاب الله) ، أو كانَ هو أعلم بالقرآن من رسول الله الذي أنزل عليه ، أم أنّ رسول الله لا يعي ما يقول حاشاه أم أنّه أراد بأمره ذلك أن يبعث فيهم الإختلاف والفرقة ـ أستغفر الله ـ .

ثم لو كان تعليل أهل السنّة صحيحاً ، فلم يكن ذلك ليخفى على الرسول ولا يجهل حسن نيّة عمر ، ولشكره رسول الله على ذلك وقرّبه بدلاً من أن يغضب عليه ويقول أخرجوا عنّي .

وهل لي أن أتساءل لماذا امتثلوا أمره عندما طردهم من الحجرة النبوية ، ولم يقولوا بأنّه يهجر ؟ ألأنّهم نجحوا بمخطّطهم في منع الرسول من الكتابة ، فلا داعي بعد ذلك لبقائهم ، والدليل أنّهم أكثروا اللغط والإختلاف بحضرته (ص) ، وانقسموا إلى حزبين منهم من يقول : (قرّبوا إلى رسول الله يكتب لكم ذلك الكتاب) ومنهم من يقول ما قال عمر أي أنّه (يهجر) .

والأمر لم يعد بتلك البساطة يتعلّق بشخص عمر وحده ولو كان كذلك لأسكته رسول الله وأقنعه بأنّه لا ينطق عن الهوى ولا يمكن أن يغلب عليه الوجع في هداية الأمّة وعدم ضلالتها ولكنّ الأمر استفحل واستشرى ووجد له أنصاراً

كأنّهم متّفقون مسبّقاً ، ولذلك أكثروا اللّغط والإختلاف ونسوا أو تناسوا قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾[1] .

وفي هذه الحادثة تعدّوا حدود رفع الأصوات والجهر بالقول إلى رميه (ص) بالهجر والهذيان « والعياذ بالله » ثم أكثروا اللّغط والإختلاف وصارت معركة كلامية بحضرته .

وأكاد أعتقد بأنّ الأكثرية الساحقة كانت على قول عمر ولذلك رأى رسول الله (ص) عدم الجدوى في كتابة الكتاب لأنّه علم بأنّهم لم يحترموه ولم يمتثلوا لأمر الله فيه في عدم رفع أصواتهم بحضرته ، وإذا كانوا لأمر الله عاصين فلن يكونوا لأمر رسوله طائعين .

واقتضت حكمة الرسول بأن لا يكتب لهم ذلك الكتاب لأنّه طُعن فيه في حياته ، فكيف يعمل بما فيه بعد وفاته ، وسيقول الطّاعنون : بأنّه هجر من القول ولربّما سيشككون في بعض الأحكام التي عقدها رسول الله في مرض موته .

إذ أنّ اعتقادهم بهجره ثابت .

أستغفر الله ، وأتوب إليه من هذا القول في حضرة الرسول الأكرم ، وكيف لي أن أقنع نفسي وضميري الحرّ بأنّ عمر بن الخطّاب كان عفوياً في حين أنّ أصحابه ومن حضروا محضره بكوا لما حصل حتى بلّ دمعهم الحصى وسمّوها رزية المسلمين .

ولهذا فقد خلصتُ إلى أن أرفض كل التعليلات التي قُدمت لتبرير ذلك ، ولقد حاولت أن أنكر هذه الحادثة وأكذبها لأستريح من مأساتها ، ولكن كتب الصحاح نقلتها وأثبتتها وصححتها ولم تحسن تبريرها .

---

(1) سورة الحجرات : الآية 97 .

وأكـاد أميل إلى رأي الشيعـة في تفسير هـذا الحدث لأنـه تعليل منـطقي وله قرائن عديدة .

وإنّي لا زلت أذكر إجابة السيد محمد باقر الصدر عنـدما سـألته : كيف فهم سيدنا عمر من بين الصحابة ما يريد الرسول كتابتـه وهو استخـلاف علي ـ عـلى حدّ زعمكم ـ فهذا ذكاء منه ؟

قال السيد الصدر : لم يكن عمر وحـده فهم مقصد الـرسول ، ولكن أكـثر الحاضرين فهموا ما فهمه عمر ، لأنّه سبق لرسول الله (ص) أن قـال مثل هـذا إذ قال لهم : « إنّي مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبـداً »[1] وفي مرضـه قال لهم : « هلمّ أكتب لكم كتـاباً لا تضلّوا بعـده أبداً »[2] ففهم الحـاضرون ومن بينهم عمر أنّ رسـول الله يريـد أن يؤكّد ما ذكره في غديـر خم كتابيّـاً ، وهو التمسـك بكتاب الله وعـترته ، وسيـد العترة هو علي ، فكأنّه (ص) أراد أن يقول : عليكم بالقرآن وعـلي ، وقد قـال مثل ذلك في مناسبات أخرى كما ذكر المحدّثون .

وكان أغلبية قريش لا يرضون بعلي لأنّه أصغر القوم ولأنّه حـطّم كبريـاءهم وهشّم أنوفهم وقتل أبطالهم ، ولكنّهم لا يجرؤون عـلى رسول الله مثـل عمر فقـد كان جريئاً على النحو الذي حصل في صلح الحديبية وفي المعارضة الشديدة للنبيّ عندما صلّى على عبـد الله بن أبي ، المنافق[3] ، وفي عـدّة مواقف أخـرى سجّلها التاريخ ، وهذا الموقف منها ، وأنت ترى أنّ المعارضة لكتـابة الكتـاب في مرض النبي شجّعت بعض الآخـرين من الحـاضرين عـلى الجـرأة ومن ثم الإكثـار من اللغط في حضرة الرسول (ص) .

---

(1) انـظر مسنـد أحمـد : ج 3 ص 17 وص 26 وج 5 ص 182 وص 189 ، وكنـز العـمال : ج 1 ص 44 وص 47 ، المستدرك : ج 3 ص 148 ، وانظر المزيد من المصادر في كتاب العمدة لابن بطريق من ص 68 إلى ص 75 .

(2) صحيـح البخـاري : ج 1 ص 32 وج 4 ص 7 ، صحيـح مسلم : ج 1 ص 95 ، مسنـد أحمد : ج 1 ص 325 ، ص 336 ، تاريخ الطبري : ج 3 ص 193 ، تاريخ ابن الأثير : ج 2 ص 320 .

(3) سيرة المصطفى ص 658 .

إنّ هـذه المقولـة : جاءت ردّاً مـطابقاً تمـاماً لمقصـود الحـديث ، فمقـولـة : (عندكم القرآن) ، (حسبنا كتاب الله) مخالفة لمحتوى الحديث الـذي يأمـرهم بالتمسّك بكتاب الله وبالعـترة معاً ، فكـأنّ المقصود هـو : حسبنا كتـاب الله فهو يكفينا ، ولا حاجة لنا بالعترة .

وليس هناك تفسير معقول غير هذا ـ بالنسبة إلى هذه الحـادثة ـ اللهم إلاّ إذا كان المراد هو القول بـإطاعـة الله دون إطاعـة رسولـه ، وهذا أيضـاً باطـل وغير معقول . . .

وأنا إذا طرحت التعصّب الأعمى والعاطفة الجامحة وحكّمت العقـل السليم والفكر الحرّ ملت إلى هذا التحليل وذلك أهون من إتّهام عمر بأنّه أوّل من رفض السنّة النبوية بقوله : (حسبنا كتاب الله) .

وإذا كان بعض الحكّام قد رفض السنّة النبوية بدعوى أنّها متنـاقضة ، فـإنّه اتّبع في ذلك سابقة تاريخية في حياة المسلمين .

وإنّي لأعجب لمن يقرأ هذه الحادثة ويمرّ بها وكـأنّ شيئاً لم يكن ، مـع أنّها من أكـبر الرّزايـا كما سمّاها ابن عبـاس ، وعجبي أكبر من الـذين يحاولـون جهدهم الحفاظ على كرامة صحـابي وتصحيح خـطئه ولـو كان ذلـك على حسـاب كرامـة رسول الله وعلى حساب الإسلام ومبادئه .

ولماذا نهرب من الحقيقة ونحاول طمسها عندما لا تتماشى مع أهـوائنا ، لمـاذا لا نعترف بأنّ الصحابة بشر مثلنا ، لهم أهواء وميول ويخطؤون ويصيبون .

ولا يـزول عجبي إلاّ عندمـا أقرأ كتـاب الله وهو يـروي لنا قصص الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام ، وما لاقوه من شعوبهم في المعاندة رغم ما يشاهدونه من معجزات . . . ﴿ ربنا لا تـزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنـا وهب لنا من لـدنك رحمـة إنك أنت الوهاب ﴾[1] .

وهكـذا أصبحت أدرك خلفيّة مـوقف الشيعـة من بعض الصحـابـة الـذين

---

(1) سورة الأنعام : الآية 8 .

يحمّلونهم مسؤولية الكثير من المآسي التي وقعت في حياة المسلمين منذ رزيّة يوم الخميس التي حرمت الأمة من كتاب الهداية الذي أراد الرسول (ص) أن يكتبه لهم .

٣ ـ الصحابة في سريّة اسامة

مجمل هذه القصّة : أنّه (ص) ، جهّز جيشاً لغزو الرّوم قبل وفاته بيومين ، وأمّر على هذه السرية أسامة بن زيد بن حارثة وعمره ثمانية عشر عاماً ، وقد عبأ (ص) في هذه السّرية وجوه المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وغيرهم من كبار الصحابة المشهورين فطعن قوم منهم في تأمير أسامة ، وقالوا : كيف يؤمّر علينا شاب لا نبات بعارضيه ، وقد طعنوا من قبل في تأمير أبيه ، وقد قالوا في ذلك وأكثروا النّقد ، حتّى غضب (ص) غضباً شديداً ممّا سمع من طعنهم وانتقادهم ، فخرج (ص) معصّب الرأس محموماً ، يتهادى بين رجلين ورجلاه تخطّان في الأرض بأبي هو وأمّي ، من شدّة ما به من لغوب ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيّها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أبيه من قبله ، وأيم الله إنّه كان خليقاً بالإمارة ، وإنّ ابنه من بعده لخليق بها . . . »[1] .

ثم جعل (ص) يحضّهم على التعجيل وجعل يقول : « جهّزوا جيش أسامة ، أنفذوا جيش أسامة أرسلوا بعث أسامة » يكرّر ذلك على مسامعهم وهم متثاقلون وعسكروا بالجرف وما كادوا يفعلون .

إنّ مثل ذلك يدفعني إلى أن أتساءل : ما هذه الجرأة على الله ورسوله ؟! ، وما هذا العقوق في حقّ الرسول الأكرم الذي هو حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم ؟ لم أكن أتصوّر كما لا يمكن لأحد أن يتصوّر تفسيراً مقبولاً لهذا العصيان ، وهذه الجرأة .

---

(1) طبقات ابن سعد ج 2 ص 190 ، تاريخ ابن الأثير ج 2 ص 317 ، السيرة الحلبية ج 3 ص 230 ، تاريخ الطبري ج 3 ص 226 .

وكـالعادة ، عنـد قراءة مثـل هذه الأحـداث التي تمسّ كرامـة الصحابـة من قـريب أو بعيد أحـاول تكذيب مثـل هذه القضـايـا وتجـاهلهـا ، ولكن لا يمكن تكذيب ما أجمع عليه المؤرخـون والمحدّثـون من علماء السنّة والشيعـة ، وتجاهـل ذلك .

وقد عاهـدت ربّي أن أكون منصفـاً ، فلا أتعصّب لمـذهبي ولا أقيم وزناً لغـير الحقّ ، والحقّ هنا مُرّ كما يقال ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « قل الحقّ ولو كان على نفسك وقل الحقّ ولو كان مرّاً . . . »[1] والحقّ في هذه القضية : هو أنّ هؤلاء الصحابة الذين طعنوا في تأمير أسامة قد خالفوا أمر ربّهم وخالفوا الصريح من النصوص التي لا تقبل الشك ولا تقبل التأويل ، وليس لهم عـذر في ذلك ، إلّا ما يلتمسه البعض من أعذار باردة حفـاظاً عـلى كرامـة الصحابـة و (السلف الصالح) والعاقل الحرّ لا يقبل بحـال من الأحوال هـذه التمحّلات . اللهمّ إلّا إذا كـان من الـذين لا يفقهـون حـديثـاً ، ولا يعقلون ، أو من الـذين أعمت العصبية أعينهم فلم يعودوا يفرّقون بين الفرض الـواجب طاعتـه والنهي الواجب تركه ، ولقد فكّرت مليّاً عساني أجـد عذراً لهؤلاء مقبـولاً ، فلم يسعفني تفكيري بـطائل ، وقـرأت اعتذار أهـل السنّة عـلى هؤلاء بـأنّهم كـانـوا مشـايـخ قـريش وكبراءها ، ولهم الأسبقية في الإسلام بينما أسامة كان حدثاً ولم يشـارك في المعارك المصيرية لعزّة الإسلام ، كمعركة بدر وأحد وحنين ، ولم تكن له سـابقة بـل كان صغير السنّ عندما ولّاه رسول الله إمـارة السرية ، وطبيعـة النفوس البشريـة تأبى بجبلّتهـا إذا كانت بـين كهول وشيـوخ أن تنقاد إلى الأحـداث وتنفر بـطبعها من النزول على حكم الشبّان ولذلك طعنوا في تأميره وأرادوا منه (ص) أن يستبدلـه بأحد من وجوه الصحابة وكبرائهم .

إنّـه اعتذار لا يستنـد إلى دليـل عقـلي ولا شرعي ولا يمكن لأي مسلم قـرأ القرآن وعرف أحكامه إلّا أن يرفض مثل هذا ، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[2] ﴿ وما كـان لمؤمن

---

(1) كنز العمال ج 16/44158 .

(2) سورة الحشر : الآية 7 .

ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمر أن يكـون لهم الخيرة من أمـرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[1] .

فأي عذر بعـد هذه النصـوص الصريحة يقبله العـاقلون ، وماذا عسـاني أن أقول في قوم أغضبوا رسول الله ؛ وهم يعلمون أنّ غضب الله في غضبه ، وذلك بعـد أن رمـوه بالهجـر ، وقالـوا بحضرته مـا قـالـوا وأكـثروا اللّغط والإختـلاف وهـو مريض ، بأبي هو وأمي ، حتى أخرجهم من حجرته ، أو لم يكفهم كـل هذا ؟! وبدلاً من أن يثوبوا إلى رشدهم ويتـوبوا إلى الله ويستغفـروه ممّا فعلوا ، ويـطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم كما علّمهم القرآن ، عوضاً عن ذلك ، فقـد زادوا في الطّين بلّة كما يقول المثل الشعبي عندنا ، فطعنوا في تأميره أسامة بعـد يومـين من رميه بالهجر والجرح لمّا يندمـل ، حتّى أجبروه أن يخـرج (ص) بتلك الحالـة التي وصفها المؤرخون ، لا يقدر على المشي من شدّة المرض وهو يتهادى بين رجلين ، ثم يقسم بالله بأنّ أسـامة خليق بـالإمارة ، ويـزيدنـا الرسـول بأنّهم هم أنفسهم الذين طعنوا في تأميره زيد بن حارثـة من قبل ليعلمنـا أنّ هؤلاء لهم معه مـواقف سابقة متعدّدة وسوابق شاهدة على أنهم لم يكونوا من الذين لا يجدون في أنفسهم حرجاً ممّا قضى ويسلّمون تسليماً ، بل كانوا من الـذين جعلوا لأنفسهم حقّ النقد والمعارضة حتى ولو خالفوا بذلك أحكام الله ورسوله .

وممّـا يدلّنـا عـلى المعـارضـة الصريحـة ، أنّهم رغم مـا شـاهـدوه من غضب رسول الله ، ومن عقد اللواء لـه بيده الشريفـة والأمر لهم بـالإسراع والتعجيل ، تثاقلوا وتباطؤوا ، ولم يـذهبوا حتّى تـوفيّ بأبي هـو وأمّي وفي قلبه حسرة عـلى أمّته المنكوبة التي سوف تنقلب على أعقابها وتهـوي في النار ولا ينجـو منها إلاّ القليـل الذي شبّهه رسول الله بهمل النّعم .

وإذا أردنـا أن نتمعّن في هذه القضيـة فإننـا سنجد الخليفـة الثانيـة من أبرز عناصرها إذ أنّه هو الذي جاء بعد وفاة رسول الله إلى الخليفة أبي بكر وطلب منه أن يعزل أسامة ويبدله بغيره ، فقال له أبو بكر : ثكلتـك أمّك يـاابن الخطّاب !

---

(1) سورة الأحزاب : الآية 36 .

أتأمرني أن أعزله وقد ولّاه رسول الله[1] .

فأين هو عمر من هذه الحقيقة التي أدركها أبو بكر ، أم أنّ في الأمر سرّاً آخر خفي عن المؤرخين ، أم أنّهم هم الذين أسرّوه حفاظاً على كرامته كما هي عادتهم وكما أبدلوا عبارة (يهجر) بلفظ (غلبه الوجع) .

عجبي من هؤلاء الصحابة الذين أغضبوه يوم الخميس واتّهموه بالهجر والهذيان وقالوا حسبنا كتاب الله ، وكتاب الله يقول لهم في محكم آياته :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[2] .

وكأنهم هم أعلم بكتاب الله وأحكامه من الذي أُنزل عليه وها هم بعد يومين فقط من تلك الرزية المؤلمة وقبل يومين فقط من لحوقه بالرفيق الأعلى يغضبونه أكثر فيطعنون في تأميره ولا يطيعون أمره ، وإذا كان في الرّزية الأولى مريضاً طريح الفراش ، فقد اضطّر في الثانية أن يخرج معصّب الرأس مدثّراً بقطيفة يتهادى بين رَجُلين ورجلاه تخطّان في الأرض وخطب فيهم خطبة كاملة من فوق المنبر بدأها بتوحيد الله والثناء عليه ليشعرهم بذلك بأنّه بعيد عن الهجر ثم أعلمهم بما عرفه من طعنهم ، ثم ذكّرهم بقضية أخرى طعنوا فيها من قبل أربع سنوات خلت ، أفهل يعتقدون بعد ذلك بأنّه يهجر أو أنّه غلبه الوجع لدرجة أنّه لم يعد يعي ما يقول ؟ .

سبحانك اللهم وبحمدك كيف يجرؤ هؤلاء على رسولك فلا يرضون بالعقد الذي أبرمه ، ويعارضونه بشدّة حتّى يأمرهم بالنحر والحلق ثلاث مرّات فلا يستجيب منهم أحد ، ومرّة أخرى يجذبونه من قميصه ويمنعونه من الصلاة على عبد الله بن أبي ويقولون له : إنّ الله قد نهاك أن تصلّي على المنافقين ! وكأنّهم يعلّمونه ما نُزّل إليه في حين أنّك قلت في قرآنك : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾[3] .

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 2 ص 190 ، تاريخ الطبري ج 3 ص 226 .

(2) سورة آل عمران : آية 31 .

(3) سورة النحل : الآية 44 .

وقلت أيضاً : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾[1] .

وقلت وقولك الحق : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[2] .

عجباً لهؤلاء القوم ! فمرّة لا يمتثلون لأمره ، ومرّة يتهمونه بالهجر ويكثرون اللّغط بحضرته في غير احترام ولا أدب ، وأخرى يطعنون في تأميره زيد بن حارثة ومن بعده في تأمير ابنه أسامة بن زيد ، فكيف يبقى بعد كل هذا شك عند الباحثين من أنّ الشيعة على حق ، عندما يحيطون مواقف بعض الصحابة بعلامات الإستفهام ويمتعضون منها احتراماً وحبّاً ومودةً لصاحب الرسالة وأهل بيته .

على أنّي لم أذكر من المخالفات غير أربع أو خمس وذلك للإختصار ولتكون أمثلة فقط ، ولكن علماء الشيعة قد أحصوا مئات الموارد التي خالف فيها الصحابة النصوص الصريحة ، ولم يستدلّوا إلاّ بما أخرجه علماء السنّة في صحاحهم ومسانيدهم .

وإنّي عندما أستعرض بعض المواقف التي وقفها بعض الصحابة من رسول الله أبقى حائراً مدهوشاً ، لا من تصرّفات هؤلاء الصحابة فحسب ولكن من موقف علماء السنّة والجماعة الذين يصوّرون لنا الصحابة دوماً على حق لا يمكن التعرّض لهم بأي نقد ، وبذلك يمنعون الباحث من الوصول إلى الحقيقة ويبقى يتخبّط في التناقضات الفكرية .

وزيادة على ما سبق أسوق بعض الأمثلة التي تعطينا صورة حقيقية على هؤلاء الصحابة ونفهم بذلك موقف الشيعة منهم :

أخرج البخاري في صحيحه في باب الصبر على الأذى وقول الله تعالى :

---

(1) سورة النساء : الآية 105 .

(2) سورة البقرة : الآية 151 .

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم ﴾[1] من كتاب الأدب ، قال : حدثنا الأعمش قال : سمعت شقيقاً يقول : قال عبد الله : قسم النبي (ص) قسمة كبعض ما كان يقسم ، فقال رجل من الأنصار : والله إنّها لقسمة ما أريد بها وجه الله ، قلت : أمّا أنّي لأقولنّ للنبيّ (ص) ، فأتيته وهو في أصحابه فساررته فشقّ ذلك على النبي وتغيّر وجهه وغضب حتّى وددت أنّي لم أكن أخبرته ، ثم قال : « قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر »[2] .

كما أخرج البخاري في الكتاب نفسه أعني كتاب الأدب في باب التبسّم والضحك .

قال : حدثنا أنس بن مالك ، قال : كنت أمشي مع رسول الله (ص) وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبي (ص) وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدّة جذبته ، ثم قال : يا محمد مرّ لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[3] .

كما أخرج البخاري في كتاب الأدب في باب من لم يواجه الناس بالعتاب قال : قالت عائشة : صنع النبي (ص) شيئاً فرخّص فيه ، فتنزّه عنه قوم فبلغ ذلك النبي (ص) فخطب فحمد الله ثم قال : « ما بال أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه فوالله أنّي لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية »[4] ! . . .

ولعمري أنّ الذين يعتقدون أن رسول الله (ص) يميل به الهوى ، ويحيد به عن طريق الحق فيقسم قسمة لا يريد بها وجه الله ، وإنّما تبعاً لهواه وعاطفته ، والذين يتنزّهون عن أشياء يصنعها رسول الله (ص) اعتقاداً منهم بأنّهم أتقى لله وأعلم به من رسوله ، فهؤلاء ليسوا جديرين بذلك التقديس حيث ينزلهم البعض منزلة الملائكة ، فيحكمون بأنّهم أفضل الخلق بعد رسول الله ، وأنّ

---

(1) سورة الزمر : الآية 10 .

(2) صحيح البخاري ج 4 ص 59 .

(3) صحيح البخاري ج 4 ص 64 .

(4)

المسلمين مدعوّون لأتّباعهم والإقتداء بهم والسير على سنّتهم ، لا لشيء إلاّ لأنّهم صحابة رسول الله وهذا يتناقض مع أهل السنّة والجماعة الذين لا يصلّون على محمد وآله إلاّ ويضيفون إليهم الصحابة أجمعين ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد عرف قدرهم وأنزلهم منزلتهم فأمرهم بأن يصلّوا على رسوله وأهل بيته الطاهرين ليّا لأعناقهم ليخضعوا ويعرفوا مكانة هؤلاء عند الله ، فلماذا نجعلهم نحن في منزلة فوق منزلتهم ونسوّيهم بمن رفع الله قدرهم وفضّلهم على العالمين ؟

ودعني أستنتج بأنّ الأمويين والعبّاسيين الذين ناصبوا أهل البيت النبوي العداء فأبعدوهم وشرّدوهم وقتلوهم وأتباعهم وشيعتهم ، تفطّنوا لما في هذه المزيّة من الفضل العميم والخطر الجسيم ، فإذا كان الله سبحانه لا يقبل صلاة مسلم إلاّ إذا صلّى عليهم ، فبماذا يبرّرون عداءهم وانحرافهم عن أهل البيت ، ولذلك تراهم ألحقوا الصّحابة بأهل البيت ليموّهوا على الناس بأنّ أهل البيت والصحابة في الفضل سواء .

وخصوصاً إذا عرفنا أنّ ساداتهم وكبراءهم هم بعض الصّحابة الذين استأجروا ضعفاء العقول ممن صحبوا رسول الله (ص) أو من التابعين ليرووا الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة وبالأخص في من اعتلوا منصّة الخلافة وكانوا سبباً مباشراً في وصولهم ـ أي الأمويين والعباسيين ـ إلى الحكم والتحكّم في رقاب المسلمين والتاريخ خير شاهد على ما أقول ؛ إذ أنّ عمر بن الخطّاب الذي اشتهر بمحاسبة ولاته وعزلهم لمجرّد شبهة نراه يلين مع معاوية بن أبي سفيان ولا يحاسبه قطّ وقد ولاّه أبو بكر وأقرّه عمر طيلة حياته ولم يعترض عليه حتى بالعتاب واللّوم ، رغم كثرة الساعين الذين يشتكون من معاوية ويقولون له : إنّ معاوية يلبس الذهب والحرير اللذين حرمهما رسول الله على الرّجال ، فكان عمر يجيبهم : (دعوه فإنّه كسرى العرب) . واستمرّ معاوية في الولاية أكثر من عشرين عاماً لم يتعرّض له أحد بالنقد ولا بالعزل ، ولما ولي عثمان خلافة المسلمين أضاف إليه ولايات أخرى مكّنته من الإستيلاء على الثروة الإسلامية وتعبئة الجيوش وأوباش العرب للقيام بالثورة على إمام الأمّة والإستيلاء على الحكم بالقوّة والغصب والتحكّم في رقاب المسلمين وإرغامهم بالقوّة والقهر

على بيعة ابنه الفاسق شارب الخمر يزيد وهـذه قصّة أخـرى طويلة لست بصـدد تفصيلهـا في هذا الكتـاب والمهم هو أن أعـرف نفسيات هؤلاء الصحـابة الـذين اعتلوا منصّة الخلافة ومهّدوا لقيام الدولة الأموية بصفة مباشرة نزولاً عـلى حكم قريش التي تأبى أن تكون النبوّة والخلافة في بني هاشم[1] .

وللدولـة الأمويـة الحق بل من واجبهـا أن تشكر أولئـك الذين مهّـدوا لها ، وأقلّ الشكر أن تستأجروا رواة مأجورين يروون في فضائل أسيادهم مـا تسير بـه الـركبان وفي نفس الـوقت يرفعـون هؤلاء فوق منـزلـة خصـومهم أهـل البيت ، بـاختلاق الفضـائل والمزايا التي يشهـد الله أنها إذا مـا بحثت تحت ضـوء الأدّلـة الشرعية والعقلية والمنطقية ، فلن يبقى منهـا شيء يذكـر ، أللّهم إلاّ إذا أصاب عقولنا مسّ وآمنا بالتناقضات .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فإنّنا نسمع الكثير عن عدل عمر الذي سارت به الركبان حتّى قيل : (عـدلت فنمت) وقيل دفن عمـر واقفاً لئـلا يموت العـدل معه وفي عدل عمر حدّث ولا حرج ، ولكنّ التاريـخ الصحيح يحـدّثنا بـأنّ عمر حين فرض العطاء في سنة عشرين للهجرة لم يتوخّ سنّة رسول الله ولم يتقيّد بها ، فقـد ساوى النبي (ص) بـين جميع المسلمـين في العطاء فلم يفضّـل أحداً عـلى أحـد ، واتّبعه في ذلـك أبو بكـر مدّة خـلافته ، ولكنّ عمـر بن الخطاب اختـرع طريقة جـديدة وفضّـل السابقـين على غـيرهم وفضّل المهـاجرين من قـريش على غـيرهم من المهاجـرين ، وفضّل المهـاجرين كـافة عـلى الأنصار كـافّة ، وفضّـل العـرب على سـائر العجم ، وفضّـل الصريـح عـلى المـولى[2] وفضّـل مضر عـلى ربيعة ، ففرض لمضر ثلاثمائة ولربيعة مائتين[3] وفضّل الأوس على الخزرج[4] .

فأين هذا التفضيل من سنة رسول الله ؟ ونسمع عن علم عمـر بن الخطّاب

---

(1) للتفصيل إقرأ :

الخلافة والملك : أبو الأعلى المودودي ، يوم الإسلام : أحمد أمين .

(2) شرح ابن أبي الحديد ج 8 ص 111 .

(3) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 106 .

(4) فتوح البلدان ص 437 .

الكثير الذي لا حصر له حتّى قيل أنّه أعلم الصحابة وقيل أنّـه وافق ربّه في كثـير من آرائه التي ينزل القرآن بتأييدها في العـديد من الآيـات التي يختلف فيها عمـر والنبي (ص) .

ولكنّ الصحيـح من التاريـخ يدلّنـا على أنّ عمـر لم يوافق القـرآن حتّى بعد نزوله ، عندما سأله أحد الصحابة أيام خلافته فقال : يا أمير المؤمنين إنّي أجنبت فلم أجد الماء فقال له عمر : لا تصلّ . واضطرّ عمار بن ياسر أن يذكّـره بالتيمّم ولكنّ عمر لم يقنع بذلك وقال لعمّار : إنّا نحمّلك ما تحمّلت[1] .

فـأين عمـر من آيـة التيمّم المنـزّلـة في كتـاب الله ، وأين علمـــه من سنّـة النبي (ص) الـذي علّمهم كيفيـة التيمّم كـما علّمهم الـوضـوء ، وعمـر نفسـه يعترف في العديد من القضايا بأنّه ليس بعالم ، بل بأنّ كـل الناس أفقـه منه حتى ربّات الحجال ، وبقوله عدّة مرّات : لـولا علي لهلك عمر ، ولقد أدركـه الأجل ومات ولم يعرف حكم الكلالة التي حكم فيها بأحكام متعدّدة ومختلفـة كما يشهـد بذلك التاريخ .

كذلك نسمع عن بطولة عمر وشجاعته وقـوّته الشيء الكثـير حتى قيل : إنّ قريش خافت عندما أسلم عمر ، وقويت شوكة المسلمين بإسلامه ، وقيـل : إنّ الله أعزّ الإسلام بعمر بن الخطّاب ، وقيل إنّ رسول الله لم يجهر بدعوته إلاّ بعـد إسـلام عمر ، ولكن التـاريخ الثـابت الصحيح ، لا يـوقفنا عـلى شيء من هـذه البطولة والشجـاعة ، ولا يعـرف التاريـخ رجلاً واحـداً من المشاهـير أو حتّى من العـاديين الـذين قتلهم عمـر بن الخطّاب في مبـارزة أو في معـركـة كبـدر وأحـد والخندق وغيرها ، بل العكس هو الصحيح فالتاريخ يحدّثنا أنّه هرب مع الهاربين في معركة أحـد وكذلـك هرب يـوم حنين ، وبعثـه رسول الله لفتـح مدينـة خيبر فرجع مهزوماً ، وحتّى السّرايا التي شارك فيهـا كان تـابعاً غـير متبوع ، وآخـرها سرية أسامة التي كان فيها مأموراً تحت قيادة الشاب أسامة بن زيد .

فـأين دعوى البـطولات والشجاعـة من هـذه الحقـائق . . . ؟ ونسمـع عن

---

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 52 .

تقوى عمر بن الخطاب ومخافته وبكائه من خشية الله الشيء الكثير ، حتّى قيل : إنّه كان يخاف أن يحاسبه الله لو عثرت بغلة في العراق لأنّه لم يعبّد لها الطريق، ولكنّ التاريخ الثابت الصحيح يحدّثنا بأنّه كان فظّاً غليظاً لا يتورّع ولا يخاف فيضرب من يسأله عن آية من كتاب الله حتى يدميه بدون ذنب اقترفه ، بل وتُسقط المرأة حملها لمجرد رؤيته هيبة ومخافة منه ، ولماذا لم يتورّع مخافة من الله عندما سلّ سيفه وهدّد كل من يقول بأنّ محمداً قد مات وأقسم بالله أنّه لم يمت وإنّما ذهب يناجي ربّه كما فعل موسى بن عمران وتوّعد من يقول بموته بضرب عنقه[1] .

ولماذا لم يتورّع ولم يخش الله سبحانه في تهديد حرق بيت فاطمة الزهراء بالنار إن لم يخرج المتخلّفون فيه للبيعة[2] وقيل له إنّ فيها فاطمة فقال : وإن ؛ وتجرأ على كتاب الله وسنّة رسوله فحكم في خلافته بأحكام تخالف النصوص القرآنية والسنّة النبوية الشريفة[3] .

وإنما أخذت هذا الصحابي الكبير الشهير كمثل واختصرت كثيراً لعدم الاطالة ولو شئت الدخول في التفاصيل لملأت كتباً عديدة ، ولكن كما قلت : إنّما أذكر هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر .

والذي ذكرته ؛ هو نزر يسير يعطينا دلالة واضحة على نفسيات الصحابة وموقف العلماء من أهل السنّة المتناقض ، فبينما يمنعون على الناس نقدهم والشك فيهم ، يروون في كتبهم ما يبعث على الشكّ والطعن فيهم ، وليت علماء السنّة والجماعة لم يذكروا مثل هذه الأشياء الصريحة التي تمسّ كرامة الصحابة وتخدش في عدالتهم ؛ إذن لأراحونا من عناء الارتباك .

وإنّي أتذكّر لقائي مع أحد علماء النجف الأشرف ، وهو أسد حيدر مؤلّف كتاب (الامام الصادق والمذاهب الأربعة) ، وكنّا نتحدث عن السنّة والشيعة ،

---

(1) تاريخ ابن الأثير : ج 3 ص 323 ، تاريخ الطبري ج 3 ص 200 .

(2) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج 1 ص 30 .

(3) راجع النص والإجتهاد ، عبد الحسين شرف الدين ، فقد أحصى كثيراً من الموارد التي اجتهد فيها عمر مقابل النصوص ، مع ذكر المصادر المقبولة لدى الفرق الإسلامية كافة .

فروى لي قصّة والده الذي إلتقى في الحجّ عالماً تونسياً من علماء الزيتونة ، وذلك منذ خمسين عاماً ، ودار بينهما نقاش في إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، فكان العالم التونسي يستمع إلى والدي وهو يعدّد الأدلّة على إمامته (ع) وأحقيّته في الخلافة ، فأحصى أربعة أو خمسة أدلّة ، ولّما انتهى سأله العالم التونسي هل لديك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال التونسي : أخرج مسبحتك وابدأ في العدّ ، وأخذ يذكر الأدلّة على خلافة الامام علي (ع) ، حتّى عدّد له مائة دليل لا يعرفها والدي ، وأضاف الشيخ أسد حيدر: لو يقرأ أهل السنّة والجماعة ما في كتبهم ، لقالوا مثل مقالتنا ، ولانتهى الخلاف بيننا من زمان بعيد .

ولعمري إنّه الحقّ الذي لا مفرّ منه لو يتحرر الانسان من تعصبه الأعمى وكبريائه وينصاع للدّليل الواضح .

* * *

أولاً - رأي القرآن في الصحابة

قبل كل شيء لا بدّ لي أن أذكر : إنّ الله سبحانه وتعالى قد مدح في كتابه العزيز في العديد من المواقع صحابة رسول الله (ص) الذين أحبّوا الرسول واتبعوه وأطاعوه في غير مطمع وفي غير معارضة ولا استعلاء ولا استكبار ، بل ابتغاء مرضاة الله ورسوله ، أولئك رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربّه .

وهذا القسم من الصحابة الذين عرف المسلمون قدرهم من خلال مواقفهم وأفعالهم معه (ص) ، أحبّوهم وأجلّوهم وعظّموا قدرهم وترضّوا عنهم كلّما ذكروهم .

وبحثي لا يتعلّق بهذا القسم من الصحابة ، الذين هم محطّ الاحترام والتقدير من السنّة والشيعة .

كما لا يتعلق بالقسم الذي اشتهر بالنّفاق ، والذين هم معرّضون للعن المسلمين جميعاً من السنّة والشيعة .

ولكن بحثي يتعلّق بهذا القسم من الصحابة ، الذين اختلف فيهم المسلمون ، ونزل القرآن بتوبيخهم وتهديدهم في بعض المواقع ، والذين حذّرهم رسول الله (ص) في العديد من المناسبات أو حذّر منهم .

نعم ؛ الخلاف القائم بين الشيعة والسنّة هو في هذا القسم من الصحابة ،

إذ أنّ الشيعة ينتقدون أقوالهم وأفعالهم ويشكّون في عدالتهم ، بينما يحترمهم أهل السنة والجماعة رغم كل ما ثبت عنهم من مخالفات .

وبحثي إنّما يتعلّق بهؤلاء ـ هذا القسم من الصحابة ـ حتّى أتمكّن من خلاله من الوصول إلى الحقيقة أو بعض الحقيقة .

أقول هذا حتّى لا يتوهّم أحد أنّي أغفلت الآيات التي تمدح أصحاب رسول الله وأبرزت الآيات القادحة فقط ، بل إنّي خلال البحث اكتشفت أنّ هناك آيات مادحة تتضمّن في طيّها قدحاً أو ما هو نقيض ذلك .

وسوف لن أكلّف نفسي جهداً كبيراً كما فعلت ذلك خلال السنوات الثلاث من البحث ، بل سأكتفي بذكر بعض الآيات كأمثلة ، كما جرت العادة وذلك للاختصار ، وعلى الذين يريدون التوسّع أن يتكبّدوا عناء البحث والتنقيب والمقارنة كما فعلت لتكون هدايتهم بعرق الجبين وعصارة الفكر كما يطلبه الله من كل أحد وما يتطلّبه الوجدان لقناعة راسخة لا تزحزحها الرّياح والعواصف ومن المعلوم بالضرورة أنّ الهداية التي تكون عن قناعة نفسية أفضل بكثير من التي تكون بمؤثرات خارجية .

قال الله تعالى يمدح نبيّه : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾[1] . أي وجدك تبحث عن الحق فهداك إليه ، وقال أيضاً : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[2] .

محمد رسول الله

والمثال الأول على ذلك هو آية محمد رسول الله ، يقول الله تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على**

---

(1) سورة الضحى : الآية 7 .
(2) سورة العنكبوت : الآية 69 .

سـوقـه يعجب الـزراع ليغيظ بهم الكفـار ، وعـد الله الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[1] .

فهذه الآية الكريمة كلّها مدح لرسول الله والصحابة الـذين معه الـذين هم - على الوصف الـذي ذكره الله تعالى - من الشدّة على الكفار ومن الـرحمة على بعضهم البعض ، وتمضي الآية الكريمة في مدح هؤلاء وذكر أوصافهم حتى تنتهي بوعده سبحانه وتعالى بالمغفرة والأجر العظيم ليس لكلّ الصحابة المذكورين ولكن للبعض منهم ﴿ **الـذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فكملة (منهم) التي ذكرها الله تعالى دلّت على التبعيض وأوحت أنّ البعض من هؤلاء لا تشملهم مغفرة الله ورضوانه ودلّت أيضاً على أنّ البعض من الصحابة انتفت منهم صفة الايمان والعمل الصالح . فهذه من الآيات المادحة والقادحة في آن واحد فهي بينما تمدح نخبة من الصحابة تقدح في آخرين .

ومن المؤسف المثير ؛ أنّ الكثيرين يستدلّون بهذه الآية الكريمة على عصمة الصحابة وعدالتهم ويحتجّون بها على الشيعة ، في حين أنّها حجّة عليهم واضحة جليّة في تأييد الشيعة القائلين بتقسيم الصحابة إلى مؤمن مخلص استكمل الايمان وعمل الصالحات ، فوعده الله المغفرة والرضوان والأجر العظيم ، وآخر أسلم ولمّا يدخل الايمان في قلبه أو آمن وعمل صالحاً في عهد الرسالة ، ولكنّه انقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وقد توعّده الله بإحباط أعماله لمجرّد رفع صوته فوق صوت النبي ، فما بالك بمن عصى الله ورسوله ، وضلّ ضلالاً مبيناً . ثم ما بالك بمن حكم بما لم ينزل إليه أو بدّل أحكام الله فأحلّ ما حرّمه الله وحرّم ما أحلّه الله ، واتّبع في كل ذلك رأيه وهواه .

٢ ـ آية الإنقلاب

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ**

---

(1) سورة الفتح : الآية 29 .

الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾[1] صدق الله العظيم .

فهذه الآية الكريمة صريحة وجليّة في أنّ الصحابة سينقلبون على أعقابهم بعد وفاة الرسول مباشرة ، ولا يثبت منهم إلاّ القليل ، كما دلّت على ذلك الآية في تعبير الله عنهم ـ أي عن الثابتين الذين لا ينقلبون ـ بالشاكرين ، فالشّاكرون ؛ لا يكونون إلاّ قلّة قليلة كما دلّ على ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾[2] .

وكما دلّت عليه أيضاً الأحاديث النبوية الشريفة التي فسّرت هذا الانقلاب ، والتي سوف نذكر البعض منها ، وإذا كان الله سبحانه لم يبينّ عقاب المنقلبين على أعقابهم في هذه الآية ، واكتفى بتمجيد الشاكرين الذين استحقّوا جزاءه سبحانه وتعالى ، غير أنّه من المعلوم بالضرورة أنّ المنقلبين على الأعقاب لا يستحقّون ثواب الله وغفرانه ، كما أكدّ ذلك رسول الله (ص) في أحاديث متعددة سوف نبحث في البعض منها إن شاء الله في هذا الكتاب .

ولا يمكن تفسير الآية الكريمة بطليحة وسجاح والأسود العنسي ، وذلك حفاظاً على كرامة الصحابة ، فهؤلاء قد انقلبوا وارتدوا عن الاسلام وادّعوا النبوّة في حياته (ص) ، وقد حاربهم رسول الله وانتصر عليهم ، كما لا يمكن تفسير الآية الكريمة بمالك بن نويرة وأتباعه الذين منعوا الزكاة في زمن أبي بكر لعدّة أسباب ، منها : أنّهم إنّما منعوها ولم يعطوها إلى أبي بكر تريّثاً منهم حتّى يعرفوا حقيقة الأمر ، إذ أنّهم حجّوا مع رسول الله (ص) في حجّة الوداع ، وقد بايعوا الامام عليّ بن أبي طالب في غدير خم بعدما نصّبه رسول الله للخلافة ، كما بايعه أبو بكر نفسه ، ففوجئوا عند قدوم رسول الخليفة بنعي رسول الله وطلبه الزكاة باسم الخليفة الجديد أبي بكر ، وهي قضية لا يريد التاريخ الغوص في أعماقها ، حفاظاً على كرامة الصحابة أيضاً ، ومنها أنّ مالكاً وأتباعه مسلمون شهد بذلك عمر وأبو بكر نفسه وعدّة من الصحابة ، الذين أنكروا على خالد بن الوليد قتله مالك بن نويرة ، والتاريخ يشهد ؛ أنّ أبا بكر

(1) سورة آل عمران : الآية 144 .
(2) سورة سبأ : الآية 13 .

أدّى ديّة مالك لأخيه متمم من بيت مال المسلمين واعتذر له عن قتله ، ومن المعلوم أنّ المرتدّ عن الاسلام يجب قتله ولا تؤدّى ديته من بيت المال ، ولا يعتذر عن قتله .

والمهم أنّ آية الانقلاب تقصد الصحابة مباشرة الذين يعيشون معه (ص) في المدينة المنورة وترمي إلى الانقلاب مباشرة بعد وفاته (ص) بدون فصل ، والأحاديث النبوية توضح ذلك بما لا يدع مجالاً للشك ، وسوف نطّلع عليها قريباً إن شاء الله . والتاريخ أيضاً خير شاهد على الانقلاب الذي وقع بعد وفاة رسول الله (ص) . ومن يستعرض الأحداث التي وقعت بين الصحابة عند وفاة النبي ، لا يبقى لديه أي ريب في أنّ الانقلاب وقع في صفوفهم ، ولم ينج منهم إلاّ القليل .

٣ ـ آية الجهاد

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير** ﴾[1] صدق الله العظيم .

هذه الآية صريحة أيضاً في أنّ الصحابة تثاقلوا عن الجهاد ، واختاروا الركون إلى الحياة الدنيا ، رغم علمهم بأنّها متاع قليل ، حتى استوجبوا توبيخ الله سبحانه وتهديده إيّاهم بالعذاب الأليم ، واستبدال غيرهم من المؤمنين الصادقين بهم .

وقد جاء هذا التهديد باستبدال غيرهم في العديد من الآيات ، مما يدلّ دلالة واضحة على أنّهم تثاقلوا عن الجهاد في مرّات عديدة ، فقد جاء في قوله تعالى : ﴿ **وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[2] .

---

(1) سورة التوبة : الآيات 38 و 39 .

(2) سورة محمد : الآية 38 .

وكقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾[1] .

ولو أردنا استقصاء ما هنالك من الآيات الكريمة التي تؤكد هذا المعنى وتكشف بوضوح عن حقيقة هذا التقسيم الذي يقول به الشيعة بشأن هذا القسم من الصحابة لاستوجب ذلك كتاباً خاصّاً ، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بأوجز العبارات وأبلغها حين قال : ﴿ **ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسوّد وجوه ، فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأمّا الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾[2] صدق الله العلي العظيم . وهذه الآيات كما لا يخفى على كل باحث مطّلع تخاطب الصحابة ، وتحذّرهم من التفرقة والاختلاف من بعدما جاءهم البيّنات ، وتتوعدهم بالعذاب العظيم وتقسمهم إلى قسمين : قسم يبعث يوم القيامة بيض الوجوه وهم الشاكرون الذين استحقوا رحمة الله ، وقسم يبعث مسود الوجوه وهم الذين ارتدّوا بعد الإيمان ، وقد توعدهم الله سبحانه بالعذاب العظيم .

ومن البديهي المعلوم ؛ أنّ الصحابة تفرّقوا بعد النبي واختلفوا وأوقدوا نار الفتنة حتى وصل بهم الأمر إلى القتال والحروب الدامية التي سبّبت انتكاس المسلمين وتخلّفهم ، وأطمعت فيهم أعداءهم ، والآية المذكورة لا يمكن تأويلها وصرفها عن مفهومها المتبادر للأذهان .

٤ ـ آية الخشوع

قال تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من**

---

(1) سورة المائدة : الآية 54 .

(2) سورة آل عمران : الآيات 104 ، 105 ، 106 .

الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾[1] صدق الله العلي العظيم .

وفي (الدرّ المنثور) لجلال الدين السيوطي ، قال : لما قدم أصحاب رسول الله (ص) المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعدما كان بهم من الجهد ، فكأنّهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت : **﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾** وفي رواية أُخرى عن النبي (ص) : أنّ الله سبحانه استبطأ قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن فأنزل الله **﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾**[2] .

وإذا كان هؤلاء الصحابة وهم خيرة الناس على ما يقوله أهل السنّة والجماعة ، لم تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق طيلة سبعة عشر عاماً حتى استبطأهم الله وعاتبهم وحذّرهم من قسوة القلوب التي تجرّهم إلى الفسوق ، فلا لوم على المتأخرين من سراة قريش الذين أسلموا في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكّة .

فهذه بعض الأمثلة التي استعرضتها من كتاب الله العزيز كافية للدلالة على أن الصحابة ليسوا كلهم عدولاً كما يقوله أهل السنّة والجماعة .

وإذا فتّشنا في أحاديث النبي (ص) فسنجد أضعاف الأضعاف من الأمثلة الأُخرى ، ولكن توخّياً للاختصار أسوق بعض الأمثلة ، وعلى الباحث أن يتوسّع إذا أراد ذلك .

---

(1) سورة الحديد : الآية 16 .

(2) الدر المنثور ج 6 ص 175 .

ثانياً - رأي الرسول في الصحابة

١ - حديث الحوض

قال رسول الله (ص) :

« بينما أنا قائم فإذا زمرة حتّى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال : هلّم . فقلت إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، قلت ما شأنهم ؟ قال : إنّهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أرى يخلص منهم إلاّ مثل همل النّعم »[1] .

وقال (ص) :

« إنّي فرطكم على الحوض ، من مرّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يُحال بيني وبينهم فأقول : أصحابي ، فيُقال : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي »[2] .

فالمتمعن في هذه الأحاديث العديدة التي أخرجها علماء أهل السنّة في صحاحهم ومسانيدهم ، لا يتطرّق إليه الشكّ في أنّ أكثر الصحابة قد بدّلوا وغيّروا ؛ بل ارتدّوا على أدبارهم بعده (ص) إلاّ القليل ، الذي عبّر عنه بهمل النعم ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال حمل هذه الأحاديث على القسم الثالث

---

(1) صحيح البخاري ج 4 ص 141 .

(2) صحيح البخاري ج 4 ص 141 ، صحيح مسلم ج 15 ص 52 .

وهم المنافقون ، لأنّ النص يقول : « فأقول أصحابي » .

لأنّ المنافقين لم يبدلوا بعد النبي ، وإلاّ لأصبح المنافق بعد وفاة النبي (ص) مؤمناً .

كما أن هذه الأحاديث هي مصداق وتفسير لما سجّلناه سابقاً من الآيات الكريمة التي تحدثت عن انقلابهم وارتدادهم وتوعدهم بالعذاب الأليم .

٢ ـ حديث اتباع اليهود والنّصارى

قال رسول الله (ص) :

« لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم » قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟

وللباحث أن يتساءل عندما يقرأ هذا الحديث المجمع على صحّته ، ماذا فعل الصحابة المقصودون بهذا الحديث من فعل اليهود والنصارى حتى وصفهم رسول الله بأنّهم يتبعونهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتّى لو دخلوا جحرضبّ لدخلوا مدخلهم .

ومن المعلوم من القرآن الكريم ومن التاريخ الصحيح أنّ اليهود تمرّدوا على موسى رسول الله إليهم وعصوا أمره وآذوه ، وعبدوا العجل في غيابه وتآمروا على أخيه هارون وكادوا يقتلونه ، وضرُبت عليهم الذلّة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله جزاء بما كانوا يفعلون[2] ، وقد ارتدّوا بعد إيمانهم وتآمروا على أنبياء الله وكلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ففريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون ، ووصل بهم الأمر أن تآمروا على سيدنا عيسى وبهتوا أُمّه الطّاهرة ولم يهدؤوا حتّى قتلوه وصلبوه بزعمهم[3] واختلفوا بعد ذلك وتفرّقوا فيه فمن قائل بأنّه دجّال كذّاب ،

---

(1) أخرج هذا الحديث كلّ من البخاري في صحيحه ج 4 ص 264 ، ومسلم في صحيحه ج 16 ص 219 ، والامام أحمد بن حنبل في مسنده ج 3 ص 84 و 94 .

(2) تضمين من سورة البقرة : الآية 61 .

(3) يصادف تاريخ كتابة هذه السطور : أنّ البابا يوحنّا بولس الثاني زار بالأمس كنيسة اليهود في

ومن ومغالٍ أنزله منزلة الإلٓه فقال هو ابن الله .

ولمصداق هذا الحديث فمن حقّي أن أتصوّر بأنّ الصحابة أيضاً عصوا أمر رسول الله في أمور كثيرة منها منعهم أن يكتب لهم الكتاب الذي يصونهم من الضلالة ، ومنها طعنهم في تأميره أسامة ورفضهم أن يخرجوا معه حتّى بعد وفاة الرسول وقد لعن رسول الله (ص) المتخلف عنه ممّن عبّاهم ، ومنها تفرّقهم واختلافهم في سقيفة بني ساعدة لاستخلاف الخليفة ، ولم يقبلوا بمن نصّ عليه رسول الله في غدير خم وهو علي بن أبي طالب حسبما يدّعيه الشيعة ولهم شواهد لا تقبل التأويل في صحاح السنّة وتواريخهم وهدّدوا ابنته فاطمة الزهراء سيدة النساء بحرق دارها إذا لم يخرج المتخلّفون للبيعة قهراً ، ومن المعقول جداً أن يقبل الباحث المنصف النص الصريح على علي بن أبي طالب ، لأنّه ليس من المعقول أن يموت رسول الله ولا يعينّ أحداً ، وهو الذي لم يخرج من المدينة إلى غزوة أو سفر إلّا واستخلف عليهم أحداً ، ومن المعقول أيضاً أن يقبل الباحث المنصف بقول الامام شرف الدّين في كتابه « المراجعاتِ » حيث قال لشيخ الأزهر الشيخ سليم البشري :

ـ سلّمتم ـ ـ سلّمكم الله تعالى ـ بتأخرهم في سرية أسامة ، على السير ، وتثاقلهم في الجرف تلك المدّة مع ما قد أمروا من الاسراع والتعجيل وسلّمتم بطعنهم في تأمير أسامة مع ما وعوه ورأوه من النصوص قولاً وفعلاً على تأميره وسلّمتم بطلبهم من أبي بكر عزله بعد غضب النبي (ص) من طعنهم في إمارته ، وخروجه بسبب ذلك محموماً معصباً مدثراً ، وتنديده بهم في خطبته تلك على المنبر التي قلتم إنّها كانت من الوقائع التاريخية وقد أعلن فيها كون أسامة أهلاً لتلك الامارة .

وسلّمتم بطلبهم من الخليفة إلغاء البعث الذي بعثه رسول الله (ص) وحلّ اللّواء الذي عقده بيده الشريفة ، مع ما رأوه من اهتمامه في إنفاذه وعنايته التامة في تعجيل إرساله ، ونصوصه المتوالية في وجوب ذلك .

محاولة تقريب اليهود من النصارى على حساب تبرئة اليهود من قتل المسيح ونسيان الماضي والتحالف لضرب الاسلام والمسلمين .

وسلّمتم بتخلّف بعض من عبّأهم (ص) ، في ذلك الجيش وأمرهم بالنفوذ تحت قيادة أسامة .

وسلّمتم بكل هذا كما نصّ عليه أهل الأخبار ، واجتمعت عليه كلمة المحدّثين وحفظة الآثار ، وقلتم إنّهم كانوا معذورين في ذلك ، وحاصل ما ذكرتموه من عذرهم ؛ أنهم إنّما آثروا في هذه الأمور مصلحة الاسلام بما اقتضته أنظارهم لا بما أوجبته النصوص النبوية ونحن ما ادّعينا ـ في هذا المقام ـ أكثر من هذا .

وبعبارة أخرى فإن تساؤلنا يدور حول ما يلي : هل كانوا في تعبدهم وفق النصوص جميعها أم بعضها ؟ لقد اخترتم الأول ، ونحن اخترنا الثاني ، فاعترافكم الآن بعدم تعبّدهم في هذه الأوامر يثبت ما اخترناه ، وكونهم معذورين أو غير معذورين ، خارج عن موضوع البحث كما لا يخفى ، وحيث ثبت لديكم إيثارهم في سرية أسامة مصلحة الاسلام بما اقتضته أنظارهم على التعبّد بما أوجبته تلك النصوص ، فلِمَ لا تقولون أنّهم آثروا في أمر الخلافة بعد النبي (ص) ، مصلحة الاسلام بما اقتضته أنظارهم على التعبّد بنصوص الغدير وأمثالها .

إعتذرتم عن طعن الطاعنين في تأمير أسامة ؛ بأنّهم إنّما طعنوا بتأميره لحداثته مع كونهم بين كهول وشيوخ ، وقلتم : إنّ نفوس الكهول والشيوخ تأبى بجبلّتها وطبعها أن تنقاد إلى الأحداث ، فلِمَ لم تقولوا هذا بعينه فيمن لم يتعبّدوا بنصوص الغدير المقتضية لتأمير علي وهو شاب على كهول الصحابة وشيوخهم ، لأنّهم بحكم الضرورة من أخبارهم ، قد استحدثوا سنّه يوم مات رسول الله (ص) ، كما استحدثوا سِنّ أسامة يوم ولّاه (ص) عليهم في تلك السنّ ، وشتّان ما بين الخلافة وإمارة السرية ، فإذا أبت نفوسهم بجبلّتها أن تنقاد للحدث في سرية واحدة ، فهي أولى بأن تأبى أن تنقاد للحدث مدّة حياته في جميع الشؤون الدنيوية والأخروية ، على أنّ ما ذكرتموه من أنّ نفوس الشيوخ والكهول تنفر بطبعها من الانقياد للأحداث ممنوع ، إن كان مرادكم الاطلاق في هذا الحكم ، لأنّ نفوس المؤمنين من الشيوخ الكاملين في إيمانهم لا

تنفر من طاعة الله ورسوله في الانقياد للأحداث ، ولا في غيره من سائر الأشياء ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[1] ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[2] انتهى كلامه نقلناه من كتاب (المراجعات) المراجعة رقم 92 ص 290 .

٣ ـ حديث البطانتين

قال رسول الله (ص) : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة ، إلّا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالشرّ وتحضّه عليه ، فالمعصوم من عصمه الله »[3] .

وهذا الحديث فيه دلالة واضحة على أنّ الصحابة كانوا قسمين بطانة تأمر الرسول بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشرّ وتحضّه عليه ، وإذا أردنا التوسّع في هذا الموضوع لأزددنا يقيناً ؛ بأنّ بعض الصحابة كانوا يشيرون على رسول الله بغير المعروف .

ومثال ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) من جزئه الأول وحكم ابن جرير بصحّته ، قال :

جاء إلى النبي (ص) أناس من قريش فقالوا : يا محمد إنّا جيرانك وحلفاؤك ؛ وإن أناساً من غلماننا قد أتوك ليس بهم رغبة في الاسلام ولا رغبة في الفقه ، إنّما فرّوا من ضياعنا . فقال النبي لأبي بكر : ما تقول ؟ قال : صدقوا إنّهم جيرانك وحلفاؤك ، فتغيّر وجه النبي بما أشار به ، ثم قال لعمر : ما تقول ؟ قال : صدقوا إنّهم جيرانك وحلفاؤك ، فتغيّر وجه النبي بما أشار به هو الآخر عليه[4] .

---

(1) سورة النساء : الآية 65 .

(2) سورة الحشر : الآية 7 .

(3) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ج 4 ص 173 مسند الامام أحمد ج 3 ص 39 .

(4) تاريخ بغداد ج 1 ص 133 .

وهذه القصّة هي مصداق لحديث البطانتين والذي أشار به أبو بكرو عمر لم يكن من الخير ولا من المعروف وإلاّ لما تغيّر وجه النبيّ (ص) .

كما أخرج الامام أحمد بن حنبل في مسنده ومسلم في صحيحه ، قال : سمعت عمر يقول : قسم رسول الله (ص) قسمة ، فقلت : يا رسول الله لغير هؤلاء أحق منهم ، أهل الصفّة ، قال : فقال رسول الله (ص) : « إنّكم تسألوني بالفحش ، وتبخلوني ولست بباخل »[1] .

وهذه القصّة هي الأُخرى صريحة في أنّ عمر بن الخطاب ليس من البطانة التي تأمر بالمعروف وتحضّ عليه بل هو من الذين يسألون بالفحش ويأمرون بالبخل على ما جاء في حديث الرسول (ص) .

٤ ـ حديث التنافس على الدنيا

قال (ص) :

« إنّي فرط لكم وأنا شهيد عليكم ، وإنّي والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإنّي أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو (مفاتيح الأرض) ، وإنّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها »[2] .

صدق رسول الله (ص) ، فقد تنافسوا على الدنيا حتّى سُلّت سيوفهم وتحاربوا وكفّر بعضهم بعضاً ، وقد كان بعض هؤلاء الصحابة المشهورين يكنز الذهب والفضّة في حين يموت بعض المسلمين جوعاً ويحدّثنا المؤرّخون كالمسعودي في (مروج الذهب) والطبري وغيرهم أنّ ثروة الزبير وحده بلغت خمسين ألف دينار وألف فرس وألف عبد وضياعاً كثيرة في البصرة وفي الكوفة وفي مصر وغيرها »[3] .

كما بلغت غلّة طلحة من العراق وحده كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من

---

(1) صحيح مسلم ج 7 ص 146 ، مسند الامام أحمد بن حنبل ج 1 ص 35 .
(2) صحيح البخاري ج 3 ص 141 .
(3) مروج الذهب للمسعودي ج 3 ص 76 .

ذلك[1] .

وكان لعبد الرحمن بن عوف مائة فرس ، وله ألف بعـير وعشرة آلاف شاة ، وبلغ ربع ثمن ماله الذي قسم على زوجاته بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً[2] .

وتـرك عثمان بن عفّـان يـوم مـات مـائـة وخمسـين ألف دينـار عـدا المـواشي والأراضي والضياع مما لا يحصى ، وترك زيد بن ثابت من الذهب والفضّة ما كان يكسر بالفؤوس ، حتى مجلت أيدي الناس ، ما عدا الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار[3] .

هذه بعض الأمثلة البسيطة وفي التاريخ شـواهد كثـيرة لا نريـد الدخـول في بحثها الآن ونكتفي بهذا القدر للدلالة على صدق الحديث وأنّهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبـرجهـا ، فكـدّسـوا الأمـوال عـلى حسـاب المستضعفيـن من المسلمين .

* * *

(1) (2) مروج الذهب ج 3 ص 77 .
(3) مروج الذهب ج 3 ص 76 .



ثالثاً ـ رأي الصحابة بعضهم في بعض

١ ـ شهادتهم على أنفسهم بتغيير سنّة النبي

عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله (ص) يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلّى ؛ فأول شيء يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم ، فإن كان يريد أن يقطع بحثاً قطعه ، أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف ، قال أبو سعيد فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر ، فلمّا أتينا المصلّى إذا منبر بناه كثير بن الصلت ، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلّي ، فجذبته بثوبه فجذبني فارتفع فخطب قبل أن يصلّي فقلت له : غيّرتم والله . فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم .

فقلت : ما أعلم والله خير ممّا لا أعلم ، فقال : إنّ الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة[1] .

وقد بحثت كثيراً عن الدوافع التي جعلت هؤلاء الصحابة يغيرون سنة رسول الله (ص) ، واكتشفت أنّ الأمويين وأغلبهم من صحابة النبي وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان (كاتب الوحي) كما يسمّونه ، كان يحمل الناس ويجبرهم على سبّ علي بن أبي طالب ولعنه من فوق منابر المساجد ، كما ذكر ذلك

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 171 من كتاب العيدين . باب الخروج إلى المصلّى بغير منبر .

المؤرخون . وقد أخرج مسلم في صحيحه في باب (فضائل علي بن أبي طالب) مثل ذلك[1] ؛ وأمر ـ يعني معاوية ـ عمّاله في كل الأمصار ، باتّخاذ ذلك اللعن سنّة يقولها الخطباء على المنابر ، ولمّا استاء من ذلك بعض الصحابة واستنكر هذا الفعل ، أمر معاوية بقتلهم وحرقهم ، وقد قتل من مشاهير الصحابة حجر بن عدي الكندي وأصحابه ودفن بعضهم أحياءً ، لأنّهم امتنعوا عن لعن عليّ واستنكروه . وقد أخرج أبو الأعلى المودودي في كتابه (الخلافة والملك) نقلاً عن الحسن البصري قال : أربع خصال كنّ في معاوية لو لم تكن فيه إلاّ واحدة لكانت موبقة له :

(1) أخذه الأمر من غير مشورة ، وفيهم بقايا الصحابة ذوو الفضيلة .

(2) استخلافه بعده ابنه سكيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب الطنابير .

(3) ادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله (ص) : « الولد للفراش وللعاهر الحجر »[2] .

(4) قتله حجراً وأصحاب حجر ، فيا ويلا له من حجر ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر[3] .

وكان بعض المؤمنين من الصحابة يفرّون من المسجد بعد الفراغ من الصلاة ، حتى لا يحضروا الخطبة التي تختم بلعن علي وأهل بيته ، ومن أجل ذلك غيّر بنو أميّة سنّة رسول الله ، وقدّموا الخطبة على الصّلاة حتى يحضرها الناس ويرغموا بذلك أنوفهم .

مرحى لهؤلاء الصحابة الذين لا يتورّعون عن تغيير سنة الرسول ، وحتى أحكام الله للوصول إلى أغراضهم الدنيئة ، وأحقادهم الدفينة ، ومطامعهم الخسيسة ، ويلعنون رجلاً أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيراً وأوجب الصلاة عليه كالصلاة على رسوله ، وأوجب الله ورسوله مودّته وحبّه حتى قال النبي : « حبّ علي إيمان وبغضه نفاق »[4] .

---

(1) صحيح مسلم ج 16 ص 181 .

(2) صحيح البخاري ج 4 ص 241 .

(3) الخلافة والملك ص 106 .

(4) فرائد السمطين ج 1 ص 131 .

ولكن هؤلاء الصحابة بدّلوا وغيّروا وقالوا سمعنا وعصينا وبدلاً من أن يصلّوا عليه ويحبّوه ويطيعوه ، شتموه ولعنوه ستين عاماً ، كما جاء في كتب التاريخ .

فإذا كان أصحاب موسى قد تآمروا على هارون وكادوا يقتلونه ، فإنّ بعض أصحاب محمد قتلوا هارونه ، وتتبّعوا أولاده وشيعته تحت كل حجر ومدر ومحوا أسماءهم من الديوان ومنعوا أن يتسمّى أحد باسمه ، ولم يكتفوا بكل ذلك ؛ بل لعنوه وحملوا الصحابة المخلصين على ذلك قهراً وظلماً .

وإنّي والله لأقف حائراً مبهوتاً ، عندما أقرأ صحاحنا وما سجّل فيها من حبّ الرسول لأخيه وابن عمه علي وتقديمه على كل الصحابة ، حتى قال فيه : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي »[1] .

وقال له : « أنت مني وأنا منك »[2] وقال : « حبّ علي إيمان وبغضه نفاق »[3] ، وقال : « أنا مدينة العلم وعلي بابها »[4] وقال : « علي ولي كل مؤمن بعدي »[5] .

وقال : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »[6] ، ولو أردنا استقصاء الفضائل التي ذكرها النبي في علي والتي أخرجها علماؤنا معترفين بصحتها لاستوجب كتاباً خاصّاً ، فكيف يا ترى يتجاهل الصحابة هذه النصوص ويسبّون عليّاً وينصبون له العداء ، ويلعنونه فوق المنابر وكيف يقاتلونه ويقتلونه ؟

---

(1) صحيح البخاري ج 3 ص 86 ، مسلم ج 16 ص 174 ، مستدرك الحاكم ج 3 ص 109 .

(2) صحيح البخاري ج 2 ص 299 ، صحيح الترمذي ج 5 ص 635 ، سنن ابن ماجة ج 1 ص 44 .

(3) صحيح مسلم ج 2 ص 64 ، سنن النسائي ج 8 ص 117 صحيح الترمذي ج 5 ص 643 .

(4) صحيح الترمذي ج 5 ص 637 مستدرك الحاكم ج 3 ص 126 .

(5) مسند الامام أحمد ج 1 ص 331 مستدرك الحاكم ج 3 ص 134 ، صحيح الترمذي ج 5 ص 632 .

(6) صحيح مسلم ج 2 ص 362 مستدرك الحاكم ج 3 ص 109 مسند أحمد ج 1 ص 118 .

وإنّي أحاول عبثاً أن أجد مبرراً لهؤلاء ، فلا أجد غير حبّ الدنيا والتنافس فيها أو النفاق أو الارتداد والانقلاب على الأعقاب ، وأحاول أيضاً إلصاق هذه المسؤولية بحثالة الصحابة وبعض المنافقين ، ولكن هؤلاء ـ للأسف الشديد ـ معدودون من أكابرهم وأفاضلهم ومشاهيرهم ، فأول من هدّد بحرق بيته ـ بمن فيه ـ هو عمر بن الخطاب ، وأول من حاربه هو طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ، ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وأمثالهم كثيرون .

وإنّ عجبي لكبير وسوف لن ينتهي ، كما يؤيدني في ذلك كل مفكّر حرّ ، عاقل ، كيف يجمع علماء أهل السنّة والجماعة على عدالة الصحابة كافة ، ويترضّون عليهم بل ويصلّون عليهم أجمعين ، لا يستثنون منهم واحداً حتى قال بعضهم : (إلعن يزيد ولا تزيد) فأين يزيد من هذه المآسي التي لا يقرّها دين ولا عقل ، وإنّني أربأ بأهل السنّة والجماعة إن كانوا حقّاً يتّبعون سنّة الرسول ، أن يحكموا بعدالة من حكم القرآنُ والسنّةُ بفسقه وارتداده وكفره ، وقد قال رسول الله (ص) : « من سبّ علياً فقد سبّني ، ومن سبّني فقد سبّ الله ، ومن سبّ الله أكبّه على منخريه في النار »[1] .

هذا جزاء من سبّ علياً ، فما بالك بمن لعنه وحاربه وقاتله ، فأين علماؤنا من كل هذه الحقائق ، أم على قلوب أقفالها ؟ !

﴿ وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون ﴾[2] .

٢ ـ الصحابة غيّروا حتى في الصلاة

قال أنس بن مالك : ما عرفت شيئاً ممّا كان على عهد النبي (ص) مثل الصلاة ، قال أليس ضيعتم ما ضيعتم فيها[3] .

---

(1) مستدرك الحاكم ج 3 ص 121 ، خصائص النسائي ص 169 ، مسند أحمد ج 6 ص 323 ، المناقب للخوارزمي ص 82 ، الرياض النضرة للطبري ج 2 ص 219 ، تاريخ السيوطي ص 190 .

(2) سورة المؤمنون : الآيات 97 و 98 .

(3) صحيح البخاري : ج 1 ص 102 .

وقال الزهري : دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت ما يبكيك فقال : لا أعرف شيئاً مما أدركت إلاّ هذه الصلاة وقد ضيعت[1] .

وحتى لا يتوهّم أحد أنّ التابعين هم الذين غيّروا ما غيّروا بعد تلك الفتن والحروب ، أودّ أن أذكّر بأنّ أول من غيّر سنة الرسول في الصلاة ، هو خليفة المسلمين نفسه عثمان بن عفّان ، وكذلك أمّ المؤمنين عائشة ، فقد أخرج الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما : أنّ رسول الله (ص) ، صلّى بمنى ركعتين ، وأبو بكر بعده ، وعمر بعد أبي بكر وعثمان صدراً من خلافته ، ثم أنّ عثمان صلى بعد أربعاً[2] .

كما أخرج مسلم في صحيحه ، قال الزهري : قلت لعروة : ما بال عائشة تتم الصلاة في السفر ؟ قال : إنّها تأوّلت كما تأوّل عثمان[3] .

سبحان الله ! وهل هناك تأويل يمحق السنّة النبوية غير هذا وأمثاله من التأويلات ؟ وهل يلوم أحد بعد هذا أبا حنيفة . أو أحد الأئمة أصحاب المذاهب الذين تأوّلوا ، فحلّلوا وحرّموا وفق تأويلهم واجتهادهم مقتدين في ذلك بسنّة هؤلاء الصحابة .

وكان عمر بن الخطاب يجتهد ويتأوّل مقابل النصوص الصريحة من السنن النبوية بل في مقابل النصوص الصريحة من القرآن الحكيم فيحكم برأيه ، كقوله : (متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما) ، ويقول لمن أجنب ولم يجد ماءً : (لا تصلّ)[4] . رغم قول الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴾[5] .

أخرج البخاري في صحيحه في باب « إذا خاف الجنب على نفسه » قال :

---

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 74 .
(2) صحيح البخاري ج 1 ص 191 ، صحيح مسلم ج 5 ص 197 .
(3) صحيح مسلم ج 5 ص 195 كتاب صلاة المسافرين .
(4) تقدم الحديث في ص 108 .
(5) سورة المائدة : الآية 6 .

سمعت شقيق بن سلمة قال : كنت عند عبد الله وأبي موسى ، فقال له أبو موسى : أرأيت يا أبا عبد الرحمن إذا أجنب الرجل فلم يجد ماءً كيف يصنع ؟ فقال عبد الله : لا يصلي حتى يجد الماء . فقال أبو موسى : فكيف تصنع بقول عمّار حين قال له النبي (ص) : « كان يكفيك أن تضرب ضربتين » وعلّمه التيمم ، قال : ألم تر عمر لم يقنع بذلك ، فقال أبو موسى : فدعنا من قول عمّار كيف تصنع بهذه الآية ؟ فما درى عبد الله ما يقول فقال : إنّا لو رخّصنا لهم في هذا ؛ لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه ويتيمم ، فقلت لشقيق : فإنّما كره عبد الله لهذا ، قال : نعم[1] .

مَا شَاء الله ! لقد نصّب عبد الله هذا نفسه إماماً على الأمة فأفتى بما يحلو له وبما شاء هو ، لا بما اقتضته أحكام الله التي أنزلها في القرآن ، ورغم استدلال أبي موسى الأشعري بآية التيمم يقول عبد الله : (إنّا لو رخّصنا لهم في هذا) فمن أنت يا هذا ؟؟ حتى تحلّل وتحرّم وترخّص وتمنع كما تريد ، ولعمري إنّك اتّبعت في ذلك سنّة من قبلك وأصررت على العناد لتأييد رأيه الذي كان يفتي بترك الصلاة عند فقدان الماء ولم يقتنع باحتجاج عمّار بن ياسر عليه بالسنّة النبوية كما لم تقتنع أنت باحتجاج أبي موسى بالآية القرآنية ! ، أفبعد هذا يدّعي علماؤنا بأنّ الصحابة كالنجوم بأيّهم اقتدينا اهتدينا ، **﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون !! ﴾**[2] .

٣ ـ الصحابة يشهدون على أنفسهم

روى أنس بن مالك أنّ رسول الله (ص) قال للأنصار : « إنّكم سترون بعدي أثرة شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض » . قال أنس : فلم نصبر[3] .

وعن العلاء بن المسيب عن أبيه قال : لقيت البراء بن عازب رضي الله عنهما

---

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 72 .
(2) سورة النجم : الآيات 59 ـ 61 .
(3) صحيح البخاري ج 2 ص 311 .

فقلت : طوبى لك صحبت النبي (ص) وبايعته تحت الشجرة ، فقال : يا ابن أخي إنّك لا تدري ما أحدثنا بعده[1] .

وإذا كان هذا الصحابي من السابقين الأولين الذين بايعوا النبي (ص) تحت الشجرة ، ورضي الله عنهم وعلم ما في قلوبهم فأثابهم فتحاً قريباً ، يشهد على نفسه وعلى أصحابه بأنّهم أحدثوا بعد النبي وهذه الشهادة هي مصداق ما أخبر به (ص) وتنبأ به من أنّ أصحابه سيحدثون بعده ويرتدون على أدبارهم فهل يمكن لعاقل بعد هذا أن يصدّق بعدالة الصحابة كلّهم أجمعين (أكتعين أبصعين) على ما يقول به أهل السنّة والجماعة ، والذي يقول هذا القول فإنّه يخالف العقل والنقل ولا يبقى للباحث أي مقاييس فكرية يعتمدها للوصول إلى الحقيقة .

٤ ـ شهادة الشيخين على نفسيهما

أخرج البخاري في صحيحه في باب مناقب عمر بن الخطاب قال : لمّا طُعن عمر جعل يألم فقال له ابن عبّاس وكأنّه يجزعه : يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله فأحسنت صحبته ثم فارقته وهو عنك راض ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ثم فارقته وهو عنك راض ثم صحبت صحابتهم فأحسنت صحبتهم ولئن فارقتهم لتفارقنّهم وهم عنك راضون .

قال : أمّا ما ذكرت من صحبة رسول الله ورضاه فإنّما ذاك من منّ الله تعالى منّ به عليّ ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنّما ذاك من منّ الله جلّ ذكره منّ به عليّ ، وأمّا ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك والله لو أنّ لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عزّ وجلّ قبل أن أراه[2] .

وقد سجّل التاريخ له أيضاً قوله : ليتني كنت كبش أهلي يسمّنونني ما بدا لهم حتى إذا كنت أسمن ما أكون زارهم بعض من يحبّون فجعلوا بعضي شواء

---

(1) صحيح البخاري ج 3 ص 44 باب غزوة الحديبية .

(2) صحيح البخاري ج 2 ص 295 .

وقطعوني قديداً ثم أكلوني وأخرجوني عذرة ولم أكن بشراً[1] .

كما سجّل التاريخ لأبي بكر مثل هذا ، قال لما نظر أبو بكر إلى طائر على شجرة : طوبى لك يا طائر تأكل الثمر وتقع على الشجر وما من حساب ولا عقاب عليك ، لوددت أنّي شجرة على جانب الطريق مرّ عليّ جمل فأكلني وأخرجني في بعره ولم أكن من البشر[2] .

وقال مرة أخرى : (ليت أمّي لم تلدني ، ليتني كنت تبنة في لبنة)[3]. . . تلك بعض النصوص أوردتها على نحو المثال لا الحصر .

وهذا كتاب الله يبشّر عباده المؤمنين بقوله :

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[4] .

ويقول أيضاً : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم ﴾[5] . صدق الله العلي العظيم .

فكيف يتمنّى الشيخان أبو بكر وعمر أن لا يكونا من البشر الذي كرّمه الله على سائر مخلوقاته .

وإذا كان المؤمن العادي الذي يستقيم في حياته ، تتنزّل عليه الملائكة

---

(1) منهاج السنة لابن تيمية ج 3 ص 131 . حلية الأولياء لأبي نعيم ج 1 ص 52 .

(2) تاريخ الطبري ص 44 . الرياض النضرة ج 1 ص 134 . كنز العمال ج 3/8531 وج 12/ 35290 منهاج السنة لإبن تيمية ، ج 3 ص 120 .

(3) تاريخ الطبري ص 41 الرياض النضرة ج 1 ص 134 كنز العمال ج 3/8532 ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية ج 3 ص 120 .

(4) سورة يونس : الآيات 62 ـ 64 .

(5) سورة فصلت : الآيات 30 ـ 32 .

وتبشّره بمقامه في الجنّة فلا يخاف من عذاب الله ، ولا يحزن على ما خلّف وراءه في الدنيا ، وله البشرى في الحياة الدنيا قبل أن يصل إلى الآخرة ، فما بال عظماء الصحابة الذين هم خير الخلق بعد رسول الله ـ كما تعلّمنا ذلك ـ يتمنّون أن يكونوا عذرة ، وبعرة ، وشعرة ، وتبنة ، ولو أنّ الملائكة بشّرتهم بالجنة ، ما كانوا ليتمنّوا أنّ لهم مثل طلاع الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب الله قبل أن يلقاه .

قال تعالى : ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لمّا رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾[1] .

وقال أيضاً : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾[2] .

وإنّي أتمنى من كل قلبي أن لا تشمل هذه الآيات ، صحابةً كباراً أمثال أبي بكر الصديق وعمر الفاروق . . .

بيد أنّني أتوقف كثيراً عند مثل هذه النصوص لأطلّ على مقاطع مثيرة من علاقتهم مع الرسول (ص) وما شهدتها تلك العلاقة من تخلّف عن إجراء أوامره وتلبية طلبه في اللحظات الأخيرة من عمره المبارك الشريف مما أغضبه ودفعه إلى أن يأمر الجميع بمغادرة المنزل وتركه ، كما أنّني أستحضر أمامي شريط الحوادث التي جرت بعد وفاة الرسول وما جرى مع ابنته الزهراء الطاهرة من إيذاء وهضم وغمط وقد قال (ص) : « فاطمة بضعة مني من أغضبها فقد أغضبني »[3] .

وقالت فاطمة لأبي بكر وعمر :

نشدتكما الله تعالى ألم تسمعا رسول الله (ص) يقول : « رضا فاطمة من

---

(1) سورة يونس : الآية 54 .

(2) سورة الزمر : الآيات 47 ـ 48 .

(3) صحيح البخاري ج 2 ص 202 باب مناقب قرابة رسول الله (ص) .

رضاي وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحبّ ابنتي فاطمة فقد أحبّني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني » قالا : نعم سمعناه من رسول الله (ص) فقالت : فإنّي أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه »[1] .

ودعنا من هذه الرّواية التي تدمي القلوب ، فلعلّ ابن قتيبة وهو من علماء أهل السنّة المبرزين في كثير من الفنون وله تآليف عديدة في التفسير والحديث واللغة والنحو والتاريخ ، لعلّه تشيّع هو الآخر كما قال لي أحد المعاندين مرّة عندما أطلعته على كتابه (تاريخ الخلفاء) . وهذه هي الدعاية التي يلجأ إليها بعض علمائنا بعدما تعييهم الحيلة ، فالطبري عندنا تشيّع ، والنسائي الذي ألف كتاباً في خصائص الامام علي تشيّع ، وابن قتيبة تشيّع ، وحتى طه حسين من المعاصرين لّما ألّف كتابه (الفتنة الكبرى) وذكر حديث الغدير واعترف بكثير من الحقائق الأخرى فهو أيضاً تشيّع !!

والحقيقة أنّ كل هؤلاء لم يتشيّعوا ، وعندما يتكلمون عن الشيعة لا يذكرون عنهم إلاّ ما هو مشين ، وهم يدافعون عن عدالة الصحابة بكل ما أمكنهم ، ولكن الذي يذكر فضائل علي بن أبي طالب ، ويعترف بما فعله كبار الصحابة من أخطاء نتّهمه بأنّه تشيّع ، ويكفي أن تقول أمام أحدهم عند ذكر النبي : (ص) أوتقول : علي (ع) ، حتى يُقال : إنّك شيعي ، وعلى هذا الأساس قلت يوماً لأحد علمائنا وأنا أحاوره : ما رأيك في البخاري ؟ قال : هو من أئمة الحديث ، وكتابه أصحّ الكتب بعد كتاب الله عندنا ، وقد أجمع على ذلك علماؤنا .

فقلت له : إنّه شيعي ، فضحك مستهزئاً وقال : حاشى الامام البخاري أن يكون شيعياً !! قلت : أو ليس أنك ذكرت بأنّ كل من يقول : علي(ع) فهو شيعي ؟ قال : بلى ، فأطلعته ومن حضر معه على صحيح البخاري وفي عدّة مواقع عندما يأتي باسم علي يقول : (عليه السلام) وفاطمة (عليها السلام) والحسين بن علي (عليهما السلام)[2] فبهت وما درى ما يقول .

---

(1) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج 1 ص 31 . فدك في التاريخ 89 .

(2) صحيح البخاري ج 1 ص 127 و 130 وج 2 ص 126 و 205 .

وأعـود إلى رواية ابن قتيبـة التي ادّعى فيها أن فـاطمة غضبت عـلى أبي بكر وعمر ، فإذا شككت فيها ، فإنّه لا يمكنني أنّ أشك في صحيـح البخاري الـذي هو عندنا أصحّ الكتب بعد كتاب الله ، وقد ألزمنا أنفسنا بـأنّه صحيـح وللشيعة أن يحتجـوا به علينـا ويلزموننـا بما ألـزمنا بـه أنفسنا وهـذا هـو الانصـاف للقـوم العاقلين .

فهـا هـو البخـاري يخرج من بـاب منـاقب قـرابـة رسـول الله ، أنّ رسول الله (ص) قال : « فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني »[1] .

كما أخرج في باب غزوة خيبر ، عن عائشة أنّ فاطمة (عليها السلام) بنت النبي أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله فأبى أبو بكـر أن يدفـع إلى فاطمة منه شيئاً فوجدت[2] فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرتـه فلم تكلّمه حتى توفّيت[3] .

والنتيجة في النهاية هي واحدة ذكرها البخـاري باختصـار وذكرهـا ابن قتيبة بشيء من التفصيـل ، ألا وهي أنّ رسـول الله (ص) يغضب لغضب فـاطمـة ويرضى لرضاها وأنّ فاطمة ماتت وهي غاضبة على أبي بكر وعمر .

وإذا كـان البخـاري قـد قـال : مـاتت وهي واجـدة عـلى أبي بكـر فلم تكلمـه حتى تـوفّيت فالمعنى واحـد كما لا يخفى ، وإذا كـانت فـاطمـة سيـدة نسـاء العـالمين كـما صرّح بذلك البخاري في كتاب الاستئذان باب من ناجى بين يدي الناس ، وإذا كانت فاطمة هي المرأة الوحيدة في هذه الأمـة ، التي أذهب الله عنها الـرجس وطهّرهـا تطهيراً ، فـلا يكون غضبهـا لغير الحق ولـذلك يغضب الله ورسـوله لغضبهـا ، ولهذا قال أبـو بكر : أنـا عائـذ بالله تعالى من سخـطه وسخطك يـا فاطمـة ، ثم انتحب أبو بكر باكياً حتى كادت نفسه أن تزهق ، وهي تقول : والله لأدعونّ الله عليـك في كل صـلاة أصلّيها ، فخـرج أبو بكـر يبكي ويقول : لا حـاجة لي في

---

(1) صحيح البخاري ج 2 ص 302 .
(2) وجدت : غضبت .
(3) صحيح البخاري ج 3 ص 55 .

بيعتكم ، أقيلوني بيعتي[1] .

غير أنّ كثيراً من المؤرخين ومن علمائنا ، يعترفون بأنّ فاطمة (عليها السلام) خاصمت أبا بكر في قضية النِّحلة والارث وسهم ذي القربى ، فرُدَّت دعواها حتى ماتت وهي غاضبة عليه ، إلاّ أنّهم يمرّون بهذه الأحداث مرور الكرام ، ولا يريدون التكلّم فيها حفاظاً على كرامة أبي بكر كما هي عادتهم في كل ما يمسّه من قريب أو بعيد ؛ ومن أعجب ما قرأته في هذا الموضوع قول بعضهم بعدما ذكر الحادثة بشيء من التفصيل قال : (حاشى لفاطمة من أن تدّعي ما ليس لها بحق ، وحاشى لأبي بكر من أن يمنعها حقّها) .

وبهذه السفسطة ظنّ هذا العالم أنّه حلّ المشكلة وأقنع الباحثين وكلامه هذا كقول القائل : (حاشى للقرآن الكريم أن يقول غير الحق ، وحاشى لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل) .

لقد ابتلينا بعلماء يقولون ما لا يفقهون ، ويؤمنون بالشيء ونقيضه في نفس الوقت ، والحال يؤكّد أنّ فاطمة ادّعت وأبا بكر رفض دعواها ، فإمّا أن تكون كاذبة والعياذ بالله حاشاها ، أو أن يكون أبو بكر ظالماً لها ، وليس هناك حل ثالث للقضية كما يريدها بعض علمائنا .

وإذا امتنع بالأدلة العقلية والنقلية أن تكون سيدة النساء كاذبة لما ثبت عن أبيها رسول الله (ص) قوله : « فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني » ومن البديهي أنّ الذي يكذب لا يستحق مثل هذا النص من قبل الرسول (ص) ، فالحديث بذاته دالّ على عصمتها من الكذب وغيره من الفواحش ، كما أنّ آية التطهير دالّة هي الأخرى على عصمتها ، وقد نزلت فيها وفي بعلها وأبنيها بشهادة عائشة نفسها[2] ، فلم يبق إذن ؛ إلاّ أن يعترف العقلاء بأنّها ظُلمت فليس تكذيبها في دعواها إلاّ أمراً ميسوراً لمن استباح حرقها إن لم يخرج المتخلّفون في بيتها لبيعتهم[3] .

---

(1) تاريخ الخلفاء المعروف بالامامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ج 1 ص 33

(2) صحيح مسلم ج 15 ص 194 وج 16 ص 2 .

(3) تاريخ الخلفاء ج 1 ص 31 .

ولكل هذا تراها (سلام الله عليها) لم تـأذن لهما في الـدخول عليهـا عندمـا استـأذنها أبو بكـر وعمر ، ولمّـا أدخلهما عـلي ؛ أدارت بـوجههـا إلى الحـائط ومـا رضيت أن تنظر إليهما [1] .

وقد توفيت ودفنت في الليل سرّاً بـوصيّة منهـا ، حتى لا يحضر جنازتهـا أحد منهم[2] . وبقي قبر بنت الرسـول مجهولاً حتى يـوم الناس هـذا ، وإنّني أتسـاءل لماذا يسكت علماؤنـا عن هـذه الحقـائق ، ولا يـريـدون البحث فيهـا ولا حتى ذكـرها ، ويصـوّرون لنا صحـابـة رسـول الله وكـأنّهم مـلائكـة لا يخـطؤون ولا يذنبون ؟

وإذا ما سألت أحدهم كيف يقتل خليفة المسلمين سيـدنا عثمان ذو النوريـن فسيجيبـك بـأنّ المصريـيـن ـ وهم كفـرة ـ جـاؤوا وقتلوه وينهي المـوضـوع كله بجملتين .

ولكن عندما وجدت الفرصة للبحث وقراءة التاريخ وجـدت أنّ قتلة عثمان بالدرجة الأولى هم الصحابة أنفسهم وفي مقدمتهم أم المؤمنين عائشـة التي كانت تنـادي بقتله وإباحـة دمه عـلى رؤوس الأشهاد فكـانت تقول : اقتلوا نعثـلاً فقد كفر[3] .

كذلك نجد طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وغيرهم من مشاهـير الصحابـة وقد حاصروه ومنعوه من شرب الماء ليجبروه على الاستقـالة ، ويحـدّثنا المؤرخـون أنّ الصحـابة هم الـذين منعوا دفن جثته في مقـابـر المسلمـين فـدفن في (حش كـوكب)[4] بـدون غسـل ولا كفن ، سبحـان الله ، كيف يقـال لنـا إنّـه قتـل مظلوماً ، وأنّ الذين قتلوه ليسوا مسلمـين ، وهذه القضيـة هي الأخرى كقضيـة

---

(1) تاريخ الخلفاء ج 1 ص 31 .

(2) صحيح البخاري ج 3 ص 55 .

(3) تاريخ الطبري ج 4 ص 459 تاريخ ابن الأثير ج 3 ص 206 لسان العرب ج 14 ص 193 تاج العروس ج 8 ص 141 العقد الفريد ج 4 ص 290 .

(4) حش كـوكب : الحش في اللغـة : البستـان ، وكـوكب الـذي أضيف إليه هـو اسم رجل من الأنصار : وهو عند بقيع الغرقد ، اشتراه عثمان ، وأضافه إلى البقيع ، ولما قتل دفن فيه . معجم البلدان ج 2 ص 262 .

فاطمة وأبي بكر ، فإمّا أن يكون عثمان مظلوماً ، وعند ذلك نحكم على الصحابة الذين قتلوه ، أو شاركوا في قتله بأنّهم قتلة مجرمون ؛ لأنّهم قتلوا خليفة المسلمين ظلماً وعدواناً وتتبعوا جنازته يحصبونها بالحجارة ، وأهانوه حيّاً وميتاً ، أو أنّ هؤلاء الصحابة استباحوا قتل عثمان لما اقترفه من أفعال تتنافى مع الاسلام كما جاء ذلك في كتب التاريخ ، وليس هناك احتمال وسط إلاّ إذا كذّبنا التاريخ وأخذنا بالتمويه بأنّ المصريين وهم كفرة هم الذين قتلوه .

وفي كلا الاحتمالين نفيٌ قاطع لمقولة عدالة الصحابة أجمعين دون استثناء فأمّا أن يكون عثمان غير عادل ، أو يكون قتلته غير عدول ، وكلّهم من الصحابة وبذلك تبطل دعوانا .

وتبقى دعوى شيعة أهل البيت القائلين بعدالة البعض منهم دون الآخر .

ونتساءل عن حرب الجمل التي أشعلت نارها أم المؤمنين عائشة إذْ كانت هي التي قادتها بنفسها ، فكيف تخرج أم المؤمنين عائشة من بيتها التي أمرها الله بالاستقرار فيه بقوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[1] .

ونسأل بأي حقّ استباحت أم المؤمنين قتال خليفة المسلمين علي بن أبي طالب . وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة .

وكالعادة وبكل بساطة يجيبنا علماؤنا بأنّها لا تحب الامام علياً لأنّه أشار على رسول الله بتطليقها في حادثة الإفك ، ويريد هؤلاء إقناعنا بأنّ هذه الحادثة ـ إن صحّت ـ وهي إشارة علي على النبي بتطليقها كافية بأن تعصي أمر ربّها وتهتك ستراً ضربه عليها رسول الله ، وتركب جملاً نهاها رسول الله أن تركبه ، وحذّرها أن تنبحها كلاب الحوأب[2] ، وتقطع المسافات البعيدة من المدينة إلى مكة ومنها إلى البصرة ، وتستبيح قتل الأبرياء ، ومحاربة أمير المؤمنين والصحابة الذين

---

(1) سورة الأحزاب : الآية 33 .

(2) الامامة والسياسة ص 76 ـ ص 98 .

بايعوه ، وتتسبب في قتل ألوف المسلمين ، كما ذكر ذلك المؤرخون[1] كل ذلك لأنّها لا تحبّ الامام علياً الذي أشار بتطليقها ، ومع ذلك لم يطلقها النبي ، فلماذا كل هذه الكراهية وقد سجّل المؤرخون لها مواقف عدائية للامام علي لا يمكن تفسيرها ، فقد كانت راجعة من مكة عندما أعلموها في الطريق بأنّ عثماناً قتل ، ففرحت فرحاً شديداً ، ولكنّها عندما علمت بأنّ الناس بايعوا علياً غضبت وقالت : وددت أنّ السماء انطبقت على الأرض قبل أن يليها ابن أبي طالب وقالت ردّوني وبدأت تشعل نار الفتنة للثورة على علي الذي لا تريد ذكر اسمه كما سجّله المؤرخون عليها ، أفلم تسمع أم المؤمنين قول الرسول (ص) : « بأنّ حبّ علي إيمان وبغضه نفاق »[2] حتى قال بعض الصحابة : كنّا لا نعرف المنافقين إلاّ ببغضهم لعلي .

أو لم تسمع أم المؤمنين قول النبي : « من كنت مولاه فعلي مولاه » . . . إنّها لا شك سمعت كل ذلك ولكنها لا تحبه ولا تذكر اسمه بل إنّها لمّا سمعت بموته سجدت شكراً لله[3] .

ودعني من كل هذا فأنا لا أريد البحث عن تاريخ أم المؤمنين عائشة ولكن أريد الاستدلال على مخالفة كثير من الصحابة لمبادىء الاسلام وتخلّفهم عن أوامر رسول الله (ص) ، ويكفيني من فتنة أم المؤمنين دليل واحد أجمع عليه المؤرخون ؛ قالوا لما جازت عائشة ماء الحوأب ونبحتها كلابها تذكرت تحذير زوجها رسول الله ونهيه إيّاها أن تكون هي صاحبة الجمل ، فبكت وقالت ردّوني ، ردّوني .

ولكن طلحة والزبير جاءاها بخمسين رجلاً جعلا لهم جُعلاً ، فأقسموا بالله أنّ هذا ليس بماء الحوأب ، فواصلت مسيرها حتى البصرة ، ويذكر المؤرخون أنّها أوّل شهادة زور في الاسلام[4] .

---

(1) الطبري وابن الأثير والمدائني وغيرهم من المؤرخين الذين أرّخوا حوادث سنة ست وثلاثين للهجرة .

(2) صحيح مسلم ج 2 ص 64 .

(3) الطبري وابن الأثير والفتنة الكبرى وكل المؤرخين. الذين أرّخوا حوادث سنة أربعين للهجرة .

(4) الطبري وابن والمدائني وغيرهم من المؤرخين الذين أرّخوا لسنة ست وثلاثين للهجرة .

دلّونا أيها المسلمون يا أصحاب العقول النيّرة على حلّ لهذا الاشكال ، أهؤلاء هم الصحابة الأجلّاء الذين نحكم نحن بعدالتهم ونجعلهم أفضل البشر بعد رسول الله (ص) ! فيشهدون شهادة الزور التي عدّها رسول الله (ص) من الكبائر الموبقة التي تقود إلى النار .

والسؤال نفسه يعود دائماً ويتكرر أيهم على الحق وأيهم على الباطل ، فإمّا أن يكون علي ومن معه ظالمين وعلى غير الحق ، وإمّا أن تكون عائشة ومن معها وطلحة والزبير ومن معهم ظالمين وعلى غير الحق ، وليس هناك احتمال ثالث ، والباحث المنصف لا أراه إلّا مائلاً لأحقيّة علي الذي يدور الحق معه حيث دار ، نابذاً فتنة (أم المؤمنين عائشة) وأتباعها الذين أوقدوا نارها وما أطفأوها حتى أكلت الأخضر واليابس وبقيت آثارها إلى اليوم .

ولمزيد البحث وليطمئن قلبي أقول : أخرج البخاري في صحيحه من كتاب الفتن باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، قال : لمّا سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث علي عمّار بن ياسر والحسن بن علي فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه وقام عمّار أسفل من الحسن فاجتمعنا إليه فسمعت عمّاراً يقول : إنّ عائشة قد سارت إلى البصرة ووالله إنّها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي[1] .

كما أخرج البخاري أيضاً في كتاب الشروط باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ، قال : قام النبي (ص) خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال : « ها هنا الفتنة ، ها هنا الفتنة ، ها هنا الفتنة من حيث يطلع قرن الشيطان »[2] .

كما أخرج البخاري في صحيحه عنها أشياء عجيبة وغريبة في سوء أدبها مع النبي حتى ضربها أبوها فأسال دمها وفي تظاهرها على النبي حتى هدّدها الله

---

(1) صحيح البخاري ج 4 ص 228 .

(2) صحيح البخاري ج 4 ص 229 .

بالطلاق وأنّ يبدله ربّه خيراً منها وهذه قصص أُخرى يطول شرحها .

وبعد كل هذا أتساءل كيف استحقت عائشة كل هذا التقدير والاحترام من أهل السنّة والجماعة ، ألأنها زوج النبي ، فزوجاته كثيرات وفيهن من هي أفضل من عائشة بتصريح النبي نفسه[1] .

أم لأنّها ابنة أبي بكر ! أم لأنّها هي التي لعبت الدور الكبير في إنكار وصيّة النبي لعلي حتى قالت عندما ذكروا عندها أنّ النبي أوصى لعلي : قالت من قاله لقد رأيت النبي (ص) وإنّي لمسندته إلى صدري فدعا بالطست فانحنى فمات فما شعرت فكيف أوصى إلى علي[2] .

أم لأنّها حاربته حرباً لا هوادة فيها وأولاده من بعده حتى اعترضت جنازة الحسن سيد شباب أهل الجنة ومنعت أن يدفن بجانب جدّه رسول الله قائلة : لا تدخلوا بيتي من لا أحب ونسيت أو تجاهلت قول الرسول فيه وفي أخيه : « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة »[3] ، أو قوله : « أحبَّ الله من أحبهما وأبغض الله من أبغضهما »[4] ، أو قوله : « أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم »[5] ؛ وغير ذلك كثير لست في معرض الكلام عنه . . . كيف لا وهما ريحانتاه من هذه الأمة .

ولا غرابة فقد سَمِعتْ في حق عليّ أضعاف ذلك ، ولكنها ورغم تحذير النبي (ص) لها ، أبت إلاّ محاربته وتأليب الناس عليه ، وإنكار فضله وفضائله .

ومن أجل ذلك أحبها الأُمويون ، وأنزلوها تلك المنزلة العظيمة التي تقصر عنها المنازل ، ورووا في فضلها ما ملأ المطامير ، وسارت به الركبان حتى جعلوها المرجع الأكبر للأُمة الاسلامية لأنّ عندها وحدها نصف الدين .

---

(1) صحيح الترمذي : الاستيعاب ترجمة صفية ، الاصابة ترجمة صفية أم المؤمنين ج 8 ص 126 .

(2) صحيح البخاري ج 3 ص 95 باب مرض النبي ووفاته .

(3) مستدرك الحاكم ج 3 ص 167 .

(4) مستدرك الحاكم ج 3 ص 166 ، ص 171 .

(5) انظر العمدة لابن بطريق من ص 395 إلى ص 407 .

ولعلّ نصف الدين الثاني خصّوا به أبا هريرة الذي روى لهم ما يشتهون فقرّبوه وولّوه إمارة المدينة ، وبنوا له قصر العقيق بعدما كان معدماً ، ولقّبوه براوية الاسلام .

وبذلك سهل على بني أميّة أن يكون لهم دين كامل جديد ليس فيه من كتاب الله وسنّة رسوله إلّا ما تهواه أنفسهم ، ويتقوّى به ملكهم وسلطانهم وخليق بهذا الدين أن يكون لعباً وهزواً مليئاً بالمتناقضات والخرافات ، وبذلك طمست الحقائق وحلّت محلّها الظلمات ، وقد حملوا الناس عليها وأغروهم بها ، حتى أصبح دين الله عندهم مهزلة من المهازل لا يقيمون له وزناً ولا يخافون من الله كخوفهم من معاوية .

وعندما نسأل بعض علمائنا عن حرب معاوية لعلي وقد بايعه المهاجرون والأنصار ، تلك الحرب الطاحنة التي سبّبت انقسام المسلمين إلى سنّة وشيعة وانصدع الاسلام ولم يلتئم حتى اليوم ، فإنّهم يجيبون كالعادة وبكل سهولة قائلين : إنّ عليّاً ومعاوية صحابيان جليلان اجتهدا ، فعلي اجتهد وأصاب فله أجران ، أمّا معاوية فاجتهد وأخطأ وله أجر واحد .

وليس من حقّنا نحن أن نحكم لهم أو عليهم وقد قال الله تعالى : ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾[1] .

هكذا ـ وللأسف ـ تكون إجاباتنا وهي كما ترى سفسطة لا يقول بها عقل ولا دين ولا يقرّ بها شرع ، اللهم إنّي أبرأ إليك من خطل الآراء وزلل الأهواء و ﴿ **أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾[2] .

كيف يحكم العقل السليم باجتهاد معاوية ويعطيه أجراً على حربه إمام المسلمين وقتله المؤمنين الأبرياء وارتكابه الجرائم والآثام التي لا يحصي عددها إلّا الله وقد اشتهر عند المؤرخين بقتله معارضيه وتصفيتهم بطريقته المشهورة وهو

---

(1) سورة البقرة : الآية 141 .

(2) سورة المؤمنون : الآيات 97 و 98 .

إطعامهم عسلاً مسموماً وكان يقول : (إنّ لله جنوداً من عسل) .

كيف يحكم هؤلاء باجتهاده ويعطونه أجراً وقد كان إمام الفئة الباغية ؟ ففي الحديث المشهور الذي أخرجه كل المحدثين من السنّة والشيعة وسواهم : « ويح عمّار تقتله الفئة الباغية »[1] ولم يختلف اثنان من المسلمين على أنّ الذي قتل عمّاراً وأصحابه هو معاوية ! كيف يحكمون باجتهاده وقد قتل حجر بن عدي وأصحابه صبراً ودفنهم في مرج عذراء ببادية الشام لأنّهم امتنعوا عن سبّ علي بن أبي طالب .

كيف يريدونه صحابياً عادلاً وقد دسّ السم للحسن بن علي سيد شباب أهل الجنّة وقتله .

كيف ينزّهونه وقد أخذ البيعة من الأُمّة بالقوة والقهر لنفسه أولاً ثم لابنه الفاسق يزيد من بعده وبدّل نظام الشورى بالملكية القيصرية[2] .

كيف يحكمون باجتهاده ويعطونه أجراً وقد حمل الناس على لعن علي وأهل البيت ذرية المصطفى من فوق المنابر ، وقتل الصحابة الذين امتنعوا عن ذلك وأصبحت سنّة متّبعة يهرم عليها الكبير ويشيب عليها الصغير فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

والسؤال يعود دائماً ويتكرر ويلح : تُرى أي الفريقين على الحق ، وأيّهما على الباطل ؟ فإمّا أن يكون علي وشيعته ظالمين وعلى غير الحق .

وإمّا أن يكون معاوية وأتباعه ظالمين وعلى غير الحق ، وقد أوضح رسول الله (ص) كل شيء .

وفي كلا الحالين فإنّ عدالة الصحابة كلهم من غير استثناء أمر مستحيل ، لا ينسجم مع المنطق السليم .

ولكل هذه المواضيع أمثلة كثيرة لا يحصي عددها إلّا الله ، ولو أردت

---

(1) أسد الغابة ج 2 ص 114 .

(2) راجع الخلافة والملك للمودودي ، ويوم الاسلام لأحمد أمين .

الدخول في التفصيل وبحث هذه المواضيع من كل جوانبها ، لاحتجت إلى مجلدات كثيرة ، ولكنني رمت الاختصار وأخذت في هذا البحث بعض الأمثلة ، وهي بحمد الله كافية لابطال مزاعم قومي الذين جمّدوا فكري ردحاً من الزمن ، وحجروا عليّ أن أفقه الحديث ، أو أحلّل الأحداث التاريخية بميزان العقل والمقاييس الشرعية التي علّمنا إيّاها القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة .

ولذلك سوف أتمرّد على نفسي ، وأنفض عنّي غبار التعصّب الذي غلّفوني به وأتحرّر من القيود والأغلال التي كبّلوني بها أكثر من عشرين عاماً ولسان حالي يقول لهم : ﴿ **يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين** ﴾[1] .

يا ليت قومي اكتشفوا العالم الذي يجهلونه ويعادونه دون أن يعرفوه .

* * *

(1) تضمين من سورة يسٓ : الآيات 26 و 27 .

بداية التحول

بقيت متحيراً ثلاثة أشهر مضطرباً حتى في نومي تتجاذبني الأفكار وتموج بي الظنون والأوهام خائفاً على نفسي من بعض الصحابة الذين أحقق في تاريخهم فأقف على بعض المفارقات المذهلة في سلوكهم ، لأنّ التربية التي تلقيتها طيلة حياتي تدعوني إلى احترام أولياء الله والصالحين من عباده وتقديسهم ، الذين (يؤذون) من يقول فيهم سوءاً أو يسيء إليهم الأدب حتى في غيابهم وإن كانوا موتى .

ولقد قرأت في ما سبق في كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدّميري : أنّ رجلاً كان يشتم عمر بن الخطاب ، وكان أصحابه في القافلة ينهونه ، فلمّا ذهب يتبوّل لدغه أسود سالخ فمات لحينه ، وحفروا له لدفنه فوجدوا في القبر أسود سالخاً ، ثم حفروا قبوراً أخرى وفي كل مرّة يجدون أسود سالخاً ، فقال لهم أحد العارفين : ادفنوه أنّى شئتم ، فلو حفرتم الأرض كلّها لوجدتم أسود سالخاً ذلك ليعذبه الله في الدنيا قبل الآخرة على شتمه سيدنا عمر[1] .

ولذلك وجدتني وأنا أقحم نفسي في هذا البحث العسير خائفاً محتاراً وخصوصاً لأنّني تعلّمت في الفرع الزيتوني ، بأنّ أفضل الخلفاء على التحقيق سيدنا أبو بكر الصّديق ثم يأتي بعده سيدنا عمر بن الخطاب الفاروق الذي يفرق الله به بين الحق والباطل ، ثم بعده سيدنا عثمان بن عفان ذو النورين

---

(1) كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري ج 1 ص 38 .

الذي استحت منه ملائكة الرحمن ، ثم بعده سيدنا علي باب مدينة العلم ، ثم يأتي بعد هؤلاء الأربعة ، الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنّة وهم ؛ طلحة ،الزبير وسعد وسعيد ، وعبد الرحمن ، وأبو عبيدة ، ثم يأتي بعد هؤلاء الصحابة جميعاً ، وكثيراً ما كانوا يعلّموننا الاستدلال بالآية الكريمة ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾[1] على وجوب النظر إلى بقية الصحابة بالمنظار نفسه دون خدش أي واحد منهم .

وعلى هذا خشيت على نفسي ، واستغفرت ربّي مرّات عديدة أردت فيها الانقطاع عن البحث في مثل هذه الامور التي تشككني في صحابة رسول الله ، وبالتالي تشككني في ديني ، ولكني وجدت من خلال الحديث مع بعض العلماء طيلة تلك المدة تناقضات لا يقبلها العقل ، وبدأوا يحذرونني من أنني إن واصلت البحث في أحوال الصحابة ، فسوف يسلب الله نعمته عني ويهلكني . ومن كثرة معاندتهم وتكذيبهم كل ما أقول دفعني فضولي العلمي وحرصي على بلوغ الحقيقة إلى أن أقحم نفسي من جديد في البحث ووجدت قوة داخلية تدفعني دفعاً .

* * *

(1) سورة البقرة : الآية 285 .

محاورة مع عالم

قلت لأحد علمائنا : إذا كان معاوية قتل الأبرياء وهتك الأعراض ، وتحكمون بأنّه اجتهد وأخطأ وله أجر واحد .

وإذا كان يزيد قتل أبناء الرسول وأباح المدينة لجيشه ، وتحكمون بأنّه اجتهد وأخطأ وله أجر واحد ، حتى قال بعضكم : (قُتل الحسين بسيف جدّه) لتبرير فعل يزيد .

فلماذا لا أجتهد أنا في البحث ، وهو ما يجرّني للشك في الصحابة وتعرية البعض منهم ، وهذا لا يقاس بالنسبة للقتل الذي فعله معاوية وابنه يزيد في العترة الطاهرة ، فإن أصبت فلي أجران ، وإن أخطأت فلي أجر واحد . على أنّ انتقاصي لبعض الصحابة لا أريد منه السبّ والشتم واللعن ، وإنّما أريد الوصول إلى الحقيقة لمعرفة الفرقة الناجية من بين الفرق الضّالة .

وهذا واجبي وواجب كل مسلم ، والله سبحانه يعلم السرائر وما تخفي الصدور .

أجابني العالم قائلاً :

ـ يا بني لقد أُغلق باب الإجتهاد من زمان .

ـ فقلت ومن أغلقه ؟

ـ قال الأئمة الأربعة .

ـ فقلت متحرّراً : الحمد لله إذ لم يكن الله هو الذي أغلقه ولا رسول الله

ولا الخلفاء الراشدون الذين أُمرنا بالإقتداء بهم فليس علي حرج إذا اجتهدت كما اجتهدوا .

ـ فقـال : لا يمكنك الإجتهـاد ، إلاّ إذا عرفت سبعـة عشر علماً ، منها علم التفسير ، واللّغة ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والأحاديث ، والتاريخ وغير ذلك .

ـ وقاطعته قـائلاً : أنـا لن أجتهد لأبـينّ للناس أحكـام القرآن والسنّـة ، أو لأكون صاحب مذهب في الإسلام ، كلا ، ولكن لأعرف من على الحق ومن على الباطل ، ولمعرفة إن كـان الإمام عـلي على الحق ، أو معـاوية مثـلاً ، ولا يتطلّب ذلك الإحاطة بسبعة عشر علماً ، ويكفي أن أدرس حياة كل منهما وما فعلاه حتى أتبينّ الحقيقة .

ـ قال : وما يهمّك أن تعرف ذلك ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾[1] .

قلت : أتقرأ « ولا تسألون » بفتح التّاء أم بضمّها ؟ .

قال : تُسألون بالضمّ .

قلت : الحمـد لله لـو كـانت بـالفتـح لأمتنـع البحث ، ومـا دامت بـالضم فمعناها أنّ الله سبحانه سوف لن يحاسبنا عمّا فعلوا وذلك كقولـه تعالى : ﴿ **كـل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ و﴿ **أن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾[3] .

وقد حثّنا القرآن الكريم على استطلاع أخبار الأمم السابقة ولنستخلص منها العـبرة ، وقد حكى الله لنـا عن فرعـون وهـامـان ونمـرود وقـارون وعن الأنبيـاء السابقين وشعوبهم ، لا للتسلية ولكن ليعرفنا الحق من الباطل .

أمّا قولك : وما يهمني من هذا البحث ؟ .

فأجيب عليه بقولي : يهمني :

---

(1) سورة البقرة : الآية 141 .

(2) سورة المدثر : الآية 38 .

(3) سورة النجم : الآية 39 .

* **أولاً** : لكي أعرف ولي الله فأواليه ، وأعرف عدو الله فأعاديه ، وهـذا ما طلبه مني القرآن بل أوجبه علي .

* **ثـانيـاً** : يهمّني أن أعـرف كيف أعبـد الله وأتقـرّب إليـه بـالفـرائض التي افـترضها، وكما يريـدها هـو جـلّ وعـلا لا كـما يـريـدهـا مـالـك، أوأبـو حنيفـة، أو غيرهم من المجتهدين ؛ لأنّي وجدت مالكـاً يقول بكـراهة البسملة في الصّـلاة ، بينما يقول أبـو حنيفة بـوجوبهـا ، ويقول غـيره ببطلان الصـلاة بدونها ، وبمـا أنّ الصلاة هي عمود الدّين ، إن قبلت قبل ما سواهـا ، وإن رُدت ردّ ما سـواها ، فـلا أريد أن تكـون صلاتي بـاطلة ، كما أنّ الشيعـة يقولـون بمسح الـرجلين في الـوضوء ويقـول السنّة بغسلهما بينـما نقـرأ في القـرآن ﴿ **وامسحـوا بـرؤوسكم وأرجلكم** ﴾[1] وهي صريحة في المسح ، فكيف تريد يـا سيدي أن يقبـل المسلم العاقل قول هذا ويردّ قول ذاك بدون بحث ودليل ..

ـ قال : بإمكانك أن تأخذ من كل مذهب ما يعجبك لأنها مذاهب إسلامية وكلّهم من رسول الله ملتمس .

ـ قلت : أخاف أن أكون ممن قال الله فيهم : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هـواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديـه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾[2] . يا سيدي أنـا لا أعتقد بـأنّ المذاهب كلّهـا على حق ما دام الواحد منهم يبيح الشيء ويحرّمه الآخـر ، فلا يمكن أن يكـون الشيء حراماً وحلالاً في آن واحد والـرسول (ص) لم يتنـاقض في أحكامـه لأنّه (وحي من القرآن) ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختـلافاً كثيـراً** ﴾[3] . وبما أنّ المـذاهب الأربعة فيهـا اختلاف كثـير ، فليست من عنـد الله ، ولا من عنـد رسوله ، لأنّ الرسول لا يناقض القرآن .

ولما رأى الشيخ العالم كلامي منطقياً وحجتي مقبولة .

---

(1) سورة المائدة : الآية 6 .
(2) سورة الجاثية : الآية 23 .
(3) سورة النساء : الآية 82 .

ـ قال : أنصحك لوجه الله تعالى ، مهما شككت فلا تشك في الخلفاء الراشدين ، فهم أعمدة الإسلام الأربعة إذ هدّمت عموداً منها سقط البناء . . .

ـ قلت : أستغفر الله يا سيدي فأين رسول الله إذن إذا كان هؤلاء هم أعمدة الإسلام ؟ .

أجاب : رسول الله هو ذاك البناء ! هو الإسلام كلّه .

ابتسمت من هذا التحليل وقلت : استغفر الله مرة أخرى يا سيدي الشيخ فأنت تقول من حيث لا تشعر بأنّ رسول الله (ص) لم يكن ليستقيم إلاّ بهؤلاء الأربعة بينما يقول الله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾[1] .

فقد أرسل محمداً بالرسالة ولم يشركه فيها أحداً من هؤلاء الأربعة ولا من غيرهم وقد قال الله تعالى في هذا الصّدد : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[2] .

ـ قال : هذا ما تعلّمناه نحن من مشايخنا وأئمتنا ، ولم نكن نحن في جيلنا نناقش ولا نجادل العلماء مثلكم اليوم الجيل الجديد أصبحتم تشكون في كل شيء وتشكّكون في الدين ، وهذه من علامات الساعة فقد قال (ص) : « لن تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق » .

ـ فقلت : يا سيدي لماذا هذا التهويل ، أعوذ بالله أن أشكّ في الدين أو أشكك فيه ، فقد آمنت بالله وحده لا شريك له وملائكته وكتبه ورسله ، وآمنت بأنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين وخاتمهم ، وأنا من المسلمين ، فكيف تتّهمني بهذا ؟ .

ـ قال : أتّهمك بأكثر من هذا لأنّك تشكك في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وقد قال (ص) : « لو وزن إيمان أمّتي بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر » .

---

(1) سورة الفتح : الآية 28 .

(2) سورة البقرة : الآية 151 .

وقال في حقّ سيدنا عمر : « عرضت عليّ امتي وهي ترتدي قمصاً لم تبلغ الثدي ، وعرض عليّ عمر وهو يجرّ قميصه » قالوا ما أوّلته يا رسول الله ؟ قال : « الدين » .

وتأتي أنت اليوم في القرن الرابع عشر لتشكك في عدالة الصحابة وبالخصوص أبي بكر وعمر .

ألم تعلم بأنّ أهل العراق هم أهل الشقاق ، هم أهل الكفر والنفاق !! .

ـ ماذا أقول لهذا العالم المدّعي العلم الذي أخذته العزّة بالإثم ، فتحوّل من الجدال بالتي هي أحسن إلى التهريج والإفتراء وبثّ الإشاعات أمام مجموعة من الناس المعجبين به ، والذين احمرّت أعينهم ، وانتفخت أوداجهم ، ولاحظت في وجوههم الشر .

فما كان منّي إلاّ أن أسرعت إلى البيت وأتيتهم بكتاب (الموطأ) للإمام مالك و (صحيح البخاري) وقلت يا سيدي : إنّ الذي بعثني على هذا الشك هو رسول الله نفسه وفتحت كتاب الموطأ وفيه روى مالك أنّ رسول الله (ص) قال لشهداء أحد : هؤلاء أشهد عليهم ، فقال أبو بكر الصديق : ألسنا يا رسول الله إخوانهم أسلمنا كما أسلموا ، وجاهدنا كما جاهدوا ، فقال رسول الله (ص) : « بلى ولكن لا أدري ما تحدثون بعدي » ! فبكى أبو بكر ثم بكى ثم قال : إنّنا لكائنون بعدك[1] .

ثم فتحت (صحيح البخاري) وفيه ؛ دخل عمر بن الخطاب على حفصة وعندها أسماء بنت عميس فقال ـ حين رآها ـ من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ، قال عمر : الحبشية هذه ، البحرية هذه .

قالت أسماء : نعم ، قال : سبقناكم بالهجرة فنحن أحقّ برسول الله منكم .

فغضبت وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنّا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة وذلك في الله وفي

---

(1) موطأ الإمام مالك ج 1 ص 307 . المغازي للواقدي ص 310 .

رسوله وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر رسول الله (ص) ونحن كنّا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك للنبي أسأله والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه ، فلمّا جاء النبي (ص) قالت : يا نبي الله ، عمر قال كذا وكذا ؟ .

قال : « فما قلت له » قالت : كذا وكذا .

قال : « ليس بأحقّ بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث وما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم ما في أنفسهم ممّا قال لهم النبي (ص)[1] .

وبعد ما قرأ الشيخ العالم والحاضرون معه الأحاديث تغيّرت وجوههم وبدأوا ينظرون بعضهم إلى بعض ينتظرون ردّ العالم الذي صدم فما كان منه إلاّ أن رفع حاجبيه علامة التعجّب وقال : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾[2] .

فقلت : إذا كان رسول الله (ص) هو أوّل من شكّ في أبي بكر ولم يشهد عليه لأنّه لا يدري ماذا سوف يحدث من بعده ، وإذا كان رسول الله (ص) لم يقرّ بتفضيل عمر بن الخطّاب على أسماء بنت عميس بل فضّلها عليه ، فمن حقّي أن أشك وأن لا أفضّل أحداً حتى أتبيّن وأعرف الحقيقة ومن المعلوم أنّ هذين الحديثين يناقضان كل الأحاديث الواردة في فضل أبي بكر وعمر ويبطلانها ، لأنّهما أقرب إلى الواقع المعقول من أحاديث الفضائل المزعومة ؛ قال الحاضرون : وكيف ذلك ؟ .

قلت : إنّ رسول الله (ص) لم يشهد على أبي بكر وقال له : إنّني لا أدري ماذا تحدثون بعدي ! فهذا معقول جداً وقد قرّر ذلك القرآن الكريم والتاريخ يشهد أنّهم بدّلوا بعده ولذلك بكى أبو بكر وقد بدّل وأغضب فاطمة الزهراء بنت الرسول ـ كما سبق ـ وقد بدّل حتى ندم قبل وفاته وتمنى أن لا يكون بشراً .

أمّا الحديث الذي يقول : « لو وزن إيمان أمتي بإيمان أبي بكر لرجح إيمان

---

(1) صحيح البخاري ج 3 ص 53 باب غزوة خيبر .

(2) سورة طه : الآية 114 .

أبي بكر » فهو باطل وغير معقول ، ولا يمكن أن يكون رجل قضى أربعين سنة من عمره يشرك بالله ويعبد الأصنام أرجح إيماناً من أمّة محمّد بأسرها ، وفيها أولياء الله الصالحين والشهداء والأئمة الذين قضوا أعمارهم كلّها جهاداً في سبيل الله ، ثم أين أبو بكر من هذا الحديث ؟ لو كان صحيحاً لما كان في آخر حياته يتمنى أن لا يكون بشراً .

ولو كان إيمانه يفوق إيمان الأمة ما كانت سيدة النساء ، فاطمة بنت الرسول (ص) ، تغضب عليه وتدعو الله عليه في كل صلاة تصلّيها .

ولم يرد العالم بشيء ، ولكنّ بعض الجالسين قالوا : لقد بعث ـ والله ـ هذا الحديث الشك فينا ، عند ذلك تكلم العالم ليقول لي : أهذا ما تريده ؟ لقد شككت هؤلاء في دينهم وكفاني أحدهم الردّ عليه إذ قال : كلا ، إنّ الحق معه ، نحن لم نقرأ في حياتنا كتاباً كاملا ، واتّبعناكم واقتدينا بكم في ثقة عمياء بدون نقاش ، وقد تبيّن لنا الآن أنّ ما يقوله الحاج صحيح ، فمن واجبنا أن نقرأ ونبحث !! ووافقه على رأيه بعض الحاضرين ، وكان ذلك انتصاراً للحق والحقيقة ، ولم يكن انتصاراً بالقوة والقهر ولكنّه انتصار العقل والحجّة والبرهان و ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[1] .

ذلك ما دفعني وشجّعني على الدخول في البحث وفتح الباب على مصراعيه فدخلته باسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله ، راجياً منه سبحانه وتعالى التوفيق والهداية فهو الذي وعد بهداية كلّ باحث عن الحقّ وهو لا يخلف وعده .

قرأت كتاب (المراجعات) للإمام شرف الدين وراجعته عدّة مرات وقد فتح أمامي آفاقاً سبّبت هدايتي وشرحت صدري لحبّ أهل البيت ومودّتهم .

وقرأت كتاب (الغدير) للشيخ الأميني وأعدته ثلاث مرّات لما فيه من حقائق دامغة واضحة جلية وقرأت كتاب (فدك في التاريخ) للسيد محمد باقر الصدر وكتاب (السقيفة) للشيخ محمد رضا المظفر وفهمت منها أسراراً غامضة اتّضحت ، كما قرأت كتاب (النّص والإجتهاد) فازددت يقيناً ثم قرأت كتاب

---

(1) سورة البقرة : الآية 111 ، وسورة النمل : الآية 24 .

(أبي هـريرة) لشرف الـدين و (شيخ المضـيرة) للشيخ محمـود أبو ريّـة المصري وعرفت أنّ الصحابة الذين غيّروا بعد رسول الله قسمان ، قسم غـيّر الأحكام بمـا له من السلطة والقوة الحاكمة ، وقسم غيّر الأحكام بـوضع الأحـاديث المكذوبـة على رسول الله (ص) .

ثم قرأت كتاب (الإمام الصادق والمـذاهب الأربعة) لأسـد حيدر وعـرفت الفرق بين العلم المـوهوب والعلم المكسـوب عرفت الفـرق بين حكمـة الله التي يؤتيها من يشاء وبين التطفّل على العلم والإجتهـاد بالـرأي الذي أبعـد الأمة عن روح الإسلام .

وقـرأت كتباً أخـرى عديـدة للسيد جعفـر مرتضى العـاملي والسيـد مـرتضى العسكـري والسيد الخـوئي والسيد الـطباطبـائي والشيخ محمـد أمين زين الـدين وللفـيروز آبادي ولابن أبي الحـديد المعـتزلي في شرحـه لنهـج البـلاغـة و (الفتنـة الكبرى) لطه حسين ، ومن كتب التاريـخ قرأت (تـاريخ الـطبري) و (تاريـخ ابن الأثـير) و (تاريـخ المسعودي) و (تـاريـخ اليعقـوبي) وقـرأت الكثـير حتى اقتنعت بأنّ الشيعة الإمامية على حقّ فتشيّعت وركبت على بـركة الله سفينـة أهل البيت وتمسّكت بحبل ولائهم لأنّي وجدت بحمد الله البديل عن بعض الصحابة الـذين ثبت عندي أنّهم ارتـدوا على أعقـابهم القهقرى ولم ينـج منهم إلاّ القليل وأبـدلتهم بأئمـة أهـل البيت النبـوي الـذين أذهب الله عنهم الـرّجس وطهّـرهم تطهيراً وافترض مودّتهم على الناس أجمعين .

فالشيعة ليسوا كما يدّعي بعض علمائنا ، هـم الفرس والمجوس الـذين حطّم سيدنا عمـر كبريـاءهم ومجدهم وعـظمتهم في حرب القـادسية ولـذلك يبغضـونه ويكرهونه ! .

وأجبت هؤلاء الجاهلين بأنّ التشيّـع لأهل البيت النبـوي لا يختص بالفـرس بل الشيعة في العراق وفي الحجاز وفي سـوريا ولبنـان كل هؤلاء عـرب كما يـوجد الشيعة في الباكستان والهند وفي أفريقيا وأمريكا وكل هؤلاء ليسوا من العـرب ولا من الفرس .

ولو اقتصرنا على شيعة إيران فإنّ الحجـة تكون أبلغ إذ أنني وجـدت الفرس

يقولون بإمامة الأئمة الأثني عشر وكلّهم من العرب من قريش من بني هاشم عترة النبي ، .فلو كان الفرس متعصّبين ويكرهـون العرب كما يدّعي البعض لأتّخـذوا سلمان الفارسي إماماً لهم لأنّه منهم وهو صحابي جليل عرف قدره كلّ من الشيعة والسنّة على حدّ سواء .

بينما وجدت أهـل السنّة والجـماعة ينقـطعون في الإمـامة إلى الفـرس فأغلب أئمتهم من الفرس كأبي حنيفة والإمام النسائي والترمذي والبخاري ومسلم وابن ماجة والـرّازي والإمام الغـزالي وابن سينا والفـارابي وغيرهم كثـيرون يضيق بهم المقام فإذا كان الشيعة من الفرس يرفضون عمر بن الخطّاب لأنّه حطّم كبريـاءهم وعظمتهم فبماذا نفسّر رفض الشيعة له من العـرب وغير الفـرس فهذه دعـوى لا تقوم على دليل ، وإنّما رفض هؤلاء عمر للدّور الذي قام به في إبعاد أمير المؤمنين وسيّد الوصيين علي بن أبي طـالب عن الخلافـة بعد رسـول الله (ص) وما سبّب ذلك من فتن ومحن وقلاقل وانحلال لهذه الأمّة ويكفي أن يزاح الحجاب عن أي باحث حرّ وتكشف له الحقيقة حتى يرفضه بدون عداوة سابقة .

والحق أنّ الشيعة سواء كانوا من الفرس أم من العرب أم من غـير هؤلاء قد خضعوا للنصوص القرآنية والنصوص النبوية واتّبعوا إمام الهدى وأولاده مصابيح الدّجى ولم يرضوا بغيرهم رغم سيـاسة الـترغيب والترهيب التي قـادها الأمـويون ومن بعدهم العبّاسيون طيلة سبعة قـرون تتّبعوا خـلالها الشيعـة تحت كل حجـر ومدر وقتلوهم وشرّدوهم ومنعوهم العطاء ومحوا آثارهم وأثاروا حولهم الإشاعات والدعايات التي تنفر الناس منهم وبقيت هذه الآثار حتى اليوم .

ولكن الشيعـة ثبتوا وصمـدوا وصبروا وتمسّكـوا بالحق لا تـأخذهم في الله لـومة لائم وهم يدفعون حتى اليوم ثمن هذا الصمـود ، وإنّي أتحدى أي عـالم من علمائنا أن يجلس مع علمائهم ويجادلهم فلا يخرج إلاّ مستبصراً بالهدى الذي هم عليه .

نعم وجدت البديل والحمد لله الذي هداني لهـذا وما كنت لأهتـدي لولا أن هداني الله .

الحمد لله والشكر له على أن دلّني على الفرقـة الناجيـة التي كنت أبحث عنها بلهف ولم يبق عنـدي أي شك في أن المتمسـك بعلي وأهـل البيت ، قـد تمسك

بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والنصوص النبوية على ذلك كثيرة أجمع عليها المسلمون ، والعقل وحده خير دَليل لمن ألقى السمع وهو شهيد ، فعليّ كان أعلم الصحابة وأشجعهم على الإطلاق وذلك بإجماع الأمة ، وهذا وحده كاف للدلالة على أحقّيته (ع) للخلافة دون غيره ، قال الله تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾[1] .

وقد قال رسول الله (ص) :

« إنّ علياً منّي وأنا منه وهو وليّ كل مؤمن من بعدي »[2] .

وقال الإمام الزمخشري في أبيات له :

كثر الشك والخلاف وكل	يدّعي أنّه الصراط السّويّ
فتمسكت بلا إله إلاّ الله	وحبّي لأحمد وعلي
فاز كلب بحبّ أصحاب كهف	كيف أشقى بحبّ آل النّبي

نعم وجدت البديل بحمد الله ، وصرت أقتدي ـ بعد رسول الله ـ بأمير المؤمنين وسيد الوصيين وقائد الغرّ المحجّلين أسد الله الغالب الإمام علي بن أبي طالب وبسيدي شباب أهل الجنّة وريحانتي النبي من هذه الأمة الإمام أبي محمد الحسن الزكي والإمام أبي عبد الله الحسين وببضعة المصطفى سلالة النبوّة وأمّ الأئمة معدن الرسالة ومن يغضب لغضبها ربّ العزّة والجلالة سيدة النساء فاطمة الزهراء .

وأبدلت الإمام مالك بأستاذ الأئمة ومعلّم الأمّة الإمام جعفر الصادق .

وتمسكت بالأئمة التسعة المعصومين من ذريّة الحسين أئمة المسلمين وأولياء الله الصالحين .

---

(1) سورة البقرة : الآية 247 .

(2) صحيح الترمذي ج 5 ص 632 ، خصائص النسائي ص 164 ، مستدرك الحاكم ج 3 ص 111 .

وأبدلت الصحابة المنقلبين على أعقابهم أمثال معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وأبي هريرة ، وعكرمة ، وكعب الأحبار ، وغيرهم بالصحابة الشاكرين الذين لم ينقضوا عهد النبي أمثال عمّار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذرّ الغفاري والمقداد بن الأسود ، وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ، وأبي بن كعب ، وغيرهم والحمد لله على هذا الإستبصار .

وأبدلت علماء قومي ، الذين جمّدوا عقولنا واتّبع كثيرٌ منهم السلاطين والحكّام في كل زمان ، بعلماء الشيعة الأبرار الذين ما أغلقوا يوماً باب الإجتهاد ولا وهنوا ولا استكانوا للأمراء والسلاطين الظالمين .

نعم أبدلت أفكاراً متحجرة متعصّبة تؤمن بالتناقضات ، بأفكار نيّرة متحرّرة ومتفتّحة تؤمن بالدليل والحجّة والبرهان .

وكما يقال في عصرنا الحاضر : (غسلت دماغي) من أوساخ كثّفتها عليه - طوال ثلاثين عاماً - أضاليل بني أمية وطهّرته بعقيدة المعصومين ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، لما تبقى من حياتي .

اللّهم أحينا على ملّتهم وأمتنا على سنّتهم واحشرنا معهم ، فقد قال نبيّك (ص) : « يُحشر المرء مع من أحب »[1] .

وبذلك أكون قد رجعت إلى أصلي ، فقد كان أبي وأعمامي يحدثوننا حسب الشجرة التي يعرفونها ، أنّهم من السّادة الذين هربوا من العراق تحت الضغط العباسي ، ولجأوا إلى شمال أفريقيا حيث أقاموا في تونس وبقيت آثارهم حتى اليوم .

وهناك في شمال أفريقيا كثيرون مثلنا يسمّون الأشراف ، لأنّهم من السلالة الطاهرة ، ولكنّهم تاهوا في ضلالات الأمويين والعبّاسيين ، ولم يبق عندهم من الحقيقة شيء إلّا ذلك الإحترام والتقدير الذي يكنّه لهم الناس ، فالحمد لله على هدايته والحمد لله على استبصاري وفتح بصري وبصيرتي على الحقيقة .

* * *

(1) سنن الترمذي ج 4 ص 596 .



أسباب الإستبصار

أمّا الأسباب التي دعتني للإستبصار فكثيرة جداً ، ولا يمكن لي في هذه العجالة إلّا ذكر بعض الأمثلة منها :

١ ـ النصّ على الخلافة

لقد آليت على نفسي عند الدخول في هذا البحث أنّ لا أعتمد إلّا ما هو موثوق عند الفريقين وأن أطرح ما انفردت به فرقة دون الأخرى ، وعلى ذلك أبحث في فكرة التفضيل بين أبي بكر وعلي بن أبي طالب وأنّ الخلافة إنّما كانت بالنص على علي كما يدّعي الشيعة أو بالإنتخاب والشورى كما يدّعي أهل السنّة والجماعة .

والباحث في هذا الموضوع إذا تجرّد للحقيقة فإنّه سيجد النص على علي بن أبي طالب واضحاً جلياً كقوله (ص) : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه » قال ذلك بعدما انصرف من حجة الوداع فعُقد لعلي موكب للتهنئة حتى أنّ أبا بكر نفسه وعمر كانا من جماعة المهنّئين للإمام يقولان : بخ بخ لك ياابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة[1] .

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج 4 ص 281 سرّ العالمين للإمام الغزالي ص 12 ، تذكرة الخواص لابن الجوزي ص 35 ، الرياض النضرة للطبري ج 2 ص 169 ، كنز العمال ج3662/10 ، البداية والنهاية لابن كثير ج 5 ص 212 ، تاريخ ابن عساكر ج 2 ص 50 ، تفسير الرّازي ج 12 ص 49 ، الحاوي للفتاوي للسيوطي ج 1 ص 112 .

وهـذا النص مجمع عليـه من الشيعـة والسنّـة ، ولم أُخـرّج أنـا في البحث ـ هذا ـ إلاّ مصادر أهل السنّة والجـماعة ، ومع ذلك لم أذكر المصادر كلهـا ، فهي أكثر بكثير ممـا ذكرت ، ولـلإطلاع عـلى مزيـد من التفصيل ، أدعـو القارىء إلى مطالعة كتاب الغدير للعلاّمة الأميني ، وقد طبع منه ثلاثة عشر مجلداً يحصي فيهـا المصنف رواة هذا الحديث من طريق أهل السنّة والجماعة .

أمّا الإجماع المدّعى على انتخاب أبي بكر يوم السقيفة ثم مبايعته بعد ذلك في المسجد ، فإنّه دعوى بدون دليل ، إذ كيف يكون الإجماع وقـد تخلّف عن البيعة علي والعبّاس وسائر بني هـاشم ، كما تخلّف أسـامة بن زيـد ، والزبـير ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد بن الأسود ، وعمّار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبـو بـريـدة الأسلمي ، والـبراء بن عازب ، وأُبي بن كعب ، وسهـل بن حنيف ، وسعـد بن عبـادة ، وقيس بن سعـد ، وأبـو أيـوب الأنصاري ، وجابر بن عبد الله ، وخالد بن سعيد وغير هؤلاء كثيرون[1] .

فأين الإجماع المزعوم يا عباد الله ؟ على أنّه لو كان عـلي بن أبي طالب وحـده تخلّف عن البيعـة ، لكان ذلـك كافياً للطعن في ذلك الإجمـاع ، إذ أنّه المـرشّح الوحيد للخلافة من قبل الرسول على فرض عدم وجود النصّ المباشر عليه .

وإنّما كانت بيعـة أبي بكر عن غـير مشورة ، بـل وقعت على حـين غفلة من الناس وخصوصاً أولي الحلّ والعقد منهم ـ كمّا يسمّيهم علماء المسلمين ـ إذ كانـوا مشغولين بتجهيز الرسول ودفنه ، وقد فوجىء سكّان المدينة المنكوبـة بموت نبيّهم وحُمِلَ الناس على البيعة بعد ذلك قهراً[2] . كما يشعرنا بـذلك تهـديدهم بحـرق بيت فاطمة إن لم يخرج المتخلفون عن البيعـة فكيف يجوز لنـا بعد هـذا أن نقول بأنّ البيعة كانت بالمشورة وبالإجماع .

وقـد شهد عمـر بن الخـطاب نفسـه بـأنّ تلك البيعـة كـانت فلتـة وقّى الله المسلمين شرّها ، وقال فمن عاد إلى مثلهـا فاقتلوه ؛ أو قـال فمن دعا إلى مثلهـا

---

(1) تاريخ الطبري ، تاريخ ابن الأثير ، تـاريخ الخلفـاء ، تاريخ الخميس ، الإستيعاب ، وكـل من ذكر بيعة أبي بكر .

(2) الإمامة والسياسة ج 1 ص 28 .

فلا بيعة له ولا لمن بايعه[1] .

ويقول الإمام علي في حقّها : (أمّا والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة ، وإنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرّحى ، ينحدر عنّي السّيل ولا يرقى إليّ الطير)[2] .

ويقول سعد بن عبادة سيد الأنصار الذي هاجم أبا بكر وعمر يوم السقيفة ، وحاول بكلّ جهوده أن يمنعهم ويبعدهم عن الخلافة ، ولكنّه عجز عن مقاومتهم لأنّه كان مريضاً لا يقدر على الوقوف ، وبعدما بايع الأنصار أبا بكر قال سعد : والله لا أبايعكم أبداً حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي من نبل ، وأخضب سناني ورمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي ولا والله لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ، ما بايعتكم حتى أعرض على ربّي ، فكان لا يصلّي بصلاتهم ، ولا يجتمع بجمعتهم ، ولا يفيض بإفاضتهم ، ولو يجد عليهم أعواناً لطال بهم ، ولو بايعه أحد على قتالهم لقاتلهم ، ولم يزل كذلك حتى قتل بالشام في خلافة عمر[3] .

فإذا كانت هذه البيعة فلتة وقّى الله المسلمين شرّها على حدّ تعبير عمر الذي شيّد أركانها وعرفت ما آلت إليه أمور المسلمين بسببها .

وإذا كانت هذه الخلافة تقمصاً ـ من قبل أبي بكر ـ كما وصفها الإمام علي إذ قال بأنّه هو صاحبها الشرعي .

وإذا كانت هذه البيعة ظلماً كما اعتبرها سعد بن عبادة سيد الأنصار الذي فارق الجماعة بسببها .

وإذا كانت هذه البيعة غير شرعية لتخلّف أكابر الصحابة والعباس عمّ النبي عنها .

---

(1) صحيح البخاري ج 4 ص 179 .
(2) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ص 33 الخطبة الشقشقية .
(3) الإمامة والسياسة ج 1 ص 27 .

فما هي إذن الحجّة في صحة خلافة أبي بكر ؟ والجواب لا حجّة هناك عند أهل السنّة والجماعة .

فقول الشيعة إذن هو الصحيح في هذا الموضوع ، لأنّه ثبت وجود النص على خلافة علي عند السنة أنفسهم ، وقد تأولوه حفاظاً على كرامة الصحابة ، فالمنصف العادل لا يجد مناصاً من قبول النص وبالأخص إذا عرف ملابسات القضية[1] .

٢ ـ خلاف فاطمة مع أبي بكر

وهذا الموضوع أيضاً مجمع على صحّته من الفريقين فلا يسع المنصف العاقل إلاّ أن يحكم بخطأ أبي بكر إن لم يعترف بظلمه وحيفه على سيدة النساء .

لأنّ من يتتبع هذه المأساة ويطّلع على جوانبها يعلم علم اليقين أنّ أبا بكر تعمّد إيذاء الزهراء وتكذيبها لئلا تحتج عليه بنصوص الغدير وغيرها على خلافة زوجها وابن عمّها علي ونجد قرائن عديدة على ذلك ، منها : ما أخرجه المؤرخون من أنّها (سلام الله عليها) خرجت تطوف على مجالس الأنصار وتطلب منهم النصرة والبيعة لابن عمّها ، فكانوا يقولون : يا ابنة رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أنّ زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به ، فيقول علي كرّم الله وجهه : (أفكنت أدع رسول الله (ص) في بيته لم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه) ؟ فقالت فاطمة : (ما صنع أبو الحسن إلاّ ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم)[2] .

ولو كان أبو بكر مخطئاً عن حسن نيّة أو على اشتباه ، لأقنعته فاطمة الزهراء ولكنّها غضبت عليه ولم تكلّمه حتى ماتت ، لأنّه ردّ في كل مرة دعواها ولم يقبل شهادتها ولا شهادة زوجها ، ولكل هذا اشتدّ غضبها عليه حتى أنّها لم تأذن له بحضور جنازتها حسب وصيّتها لزوجها الذي دفنها في الليل سرّاً[3] .

---

(1) راجع : السقيفة والخلافة لعبد الفتاح عبد المقصود ، والسقيفة للشيخ محمد رضا المظفر .

(2) تاريخ الخلفاء لابن قتيبة ج 1 ص 29 ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (بيعة أبي بكر) .

(3) صحيح البخاري ج 3 ص 60 ، صحيح مسلم ج 12 ص 76 باب لا نورث ما تركناه صدقة .

وعلى ذكر دفنها (سلام الله عليها) سرّاً في الليل فقد سافرتُ خلال سنوات البحث إلى المدينة المنوّرة لأطّلع بنفسي على بعض الحقائق ، واكتشفت .

أولاً : أنّ قبر الزهراء مجهول لا يعرفه أحد فمن قائل بأنّه في الحجرة النبوية ومن قائل بأنّه في بيتها مقابل الحجرة النبوية ، وثالث يقول : إنّه في البقيع وسط قبور أهل البيت بدون تحديد .

هذه الحقيقة الأولى التي استنتجت منها أنّها (سلام الله عليها) أرادت بهذا أن يتساءل المسلمون عبر الأجيال عن السبب الذي دعاها أن تطلب من زوجها أن يدفنها في الليل سرّاً ولا يُحضر جنازتها منهم أحد !!! وبذلك يمكن لأي مسلم أن يصل إلى بعض الحقائق المثيرة من خلال مراجعة التاريخ .

ثانياً : اكتشفت أنّ الزائر الذي يريد زيارة قبر عثمان بن عفان يمشي مسافة طويلة حتى يصل إلى آخر البقيع فيجده تحت الحائط بينما يجد أغلب الصحابة مدفونين في بداية البقيع قرب المدخل وحتى مالك بن أنس صاحب المذهب وهو من تابعي التابعين مدفون قرب زوجات الرسول ، وتحقّق لدي ما قاله المؤرخون من أنّه دفن بحش كوكب وهي أرض يهودية لأنّ المسلمين منعوا دفنه في بقيع رسول الله ، ولّما استولى معاوية بن أبي سفيان على الخلافة اشترى تلك الأرض من اليهود وأدخلها في البقيع ليدخل بذلك قبر ابن عمّه عثمان فيها والذي يزور البقيع حتى اليوم سيرى هذه الحقيقة بأجلى ما تكون .

وإنّ عجبي لكبير حين أعلم أنّ فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) أوّل من لحق بأبيها فبينها وبينه ، ستّة أشهر على أكثر الإحتمالات ثم لا تدفن إلى جانب أبيها .

وإذا كانت فاطمة الزهراء هي التي أوصت بدفنها سرّاً ، فلم تدفن بالقرب من قبر أبيها كما ذكرت ، فما بال ما حصل مع جثمان ولدها الحسن لم يدفن قرب قبر جده ؟! فقد منعت هذا (أم المؤمنين) عائشة وقد فعلت ذلك عندما جاء الحسين بأخيه الحسن ليدفنه إلى جانب جدّه رسول الله ، فركبت عائشة بغلة وخرجت تنادي وتقول : لا تدفنوا في بيتي من لا أحب .

واصطفّ بنو أميّة وبنو هاشم للحرب ولكنّ الإمام حسين قال لها : (إنّه سيطوف بأخيه على قبر جدّه ثم يدفنه في البقيع لأنّ الإمام الحسن أوصاه أن لا يهرقوا من أجله ولو محجمة من دم)[1] .

وقال لها ابن عباس أبياتاً مشهورة :

تجمّلتِ[2] تبغّلتِ[3] ولو عشت تفيّلت
لكِ التسع من الثمن وبالكل تصرّفتِ

وهذه حقيقة أخرى من الحقائق المخيفة ، فكيف ترث عائشة كل البيت من بين أزواج النبي المتعدّدات وهنّ تسع نساء حسب ما قاله ابن عباس :

وإذا كان النبي لا يورّث كما شهد بذلك أبو بكر نفسه ومنع ذلك ميراث الزهراء من أبيها فكيف ترث عائشة ؟ فهل هناك في كتاب الله آية تعطي الزوجة حق الميراث وتمنع البنت ؟ أم أنّ السياسة هي التي أبدلت كل شيء فحرمت البنت من كل شيء وأعطت الزوجة كل شيء ؟ .

وبالمناسبة أذكر هنا قصّة طريفة ذكرها بعض المؤرخين ولها علاقة بموضوع الإرث .

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة : جاءت عائشة وحفصة ودخلتا على عثمان أيام خلافته ، وطلبتا منه أن يقسم لهما إرثهما من رسول الله (ص) .

وكان عثمان متكئاً فاستوى جالساً وقال لعائشة :

أنت وهذه الجالسة جئتما بأعرابي يتطهّر ببوله وشهدتما أنّ رسول الله (ص) قال : نحن معشر الأنبياء لا نورّث ، فإذا كان الرسول حقيقةً لا يورّث فماذا تطلبان بعد هذا ؟ وإذا كان الرسول يورّث لماذا منعتم فاطمة حقّها ؟ فخرجت

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 212 .
(2) إشارة إلى ركوبها الجمل في حرب الجمل المشهورة .
(3) إشارة إلى ركوبها البغلة يوم منعت دفن الحسن بجانب جدّه .

عائشة من عنده غاضبة وقالت : أقتلوا نعثلاً فقد كفر[1] .

٣ ـ علي أولى بالإتّباع

ومن الأسباب التي دعتني للإستبصار وترك سنّة الآباء والأجداد ، الموازنة العقلية والنقلية بين علي بن أبي طالب وأبي بكر .

وكما ذكرت في الأبواب السابقة من هذا البحث إنّي أعتمد على الإجماع الذي يوافق عليه أهل السنّة والشيعة .

وقد فتّشت في كتب الفريقين فلم أجد إجماعاً إلاّ على علي بن أبي طالب ، فقد أجمع على إمامته الشيعة والسنّة في ما ورد من نصوص ثبتتها مصادر الطرفين ، بينما لا يقول بإمامة أبي بكر إلاّ فريق من المسلمين ، وقد كنّا ذكرنا ما قاله عمر عن بيعة أبي بكر ؛ كما أنّ الكثير من الفضائل والمناقب التي يذكرها الشيعة في علي بن أبي طالب ، لها سند ووجود حقيقي ثابت في كتب أهل السنّة المعتمدة عندهم ، ومن عدّة طرق لا يتطرّق إليها الشك ، فقد روى الحديث في فضائل الإمام علي جمع غفير من الصحابة ، حتى قال أحمد بن حنبل :

ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله (ص) من الفضائل ، كما جاء لعلي بن أبي طالب[2] .

وقال القاضي إسماعيل والنسائي وأبو علي النيسابوري : لم يرد في حقّ أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما جاء في علي[3] .

هذا مع ملاحظة أنّ الأمويين حملوا الناس في مشارق الأرض ومغاربها على سبّه ولعنه وعدم ذكر فضيلة له ، حتى منعوا أن يتسمّى أحد باسمه ، ومع كل ذلك خرجت فضائله ومناقبه (سلام الله عليه) رغم الجحود ؛ وفي ذلك يقول

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 16 ص 220 .

(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم ج 3 ص 107 ، المناقب للخوارزمي ص 3 و19 ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 185 ، الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ص 72 ، تاريخ ابن عساكر ج 3 ص 63 ، شواهد التنزيل للحسكاني الحنفي ج 1 ص 19 .

(3) الرياض النضرة للطبري ج 2 ص 282 ، الصواعق المحرقة لابن حجر ص 72 وص 118 .

الإمام الشافعي : عجبت لرجل كتم أعداؤه فضائله حسداً ، وكتمها محبّوه خوفاً ، وخرج ما بين ذين ما طبق الخافقين .

أمّا بشأن أبي بكر ، فقد فتّشت أيضاً في كتب الفريقين ، فلم أجد له في كتب أهل السنّة والجماعة القائلين بتفضيله ما يوازي أو يعادل فضائل الإمام علي ، على أنّ فضائل أبي بكر المذكورة في الكتب التاريخية ، مروية إمّا عن ابنته عائشة وقد عرفنا موقفها من الإمام علي ، فهي تحاول بكل جهدها دعم أبيها ولو بأحاديث موضوعة ، أو عن عبد الله بن عمر ، وهو أيضاً من البعيدين عن الإمام علي وقد رفض مبايعته بعدما أجمع الناس على ذلك ، وكان يحدث أن أفضل الناس بعد النبي أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم لا تفاضل والناس بعد ذلك سواسية[1] . يعني هذا الحديث أن عبد الله بن عمر جعل الإمام علي من سوقة الناس كأي شخص عادي ليس له فضل ولا فضيلة .

فأين عبد الله بن عمر من الحقائق التي ذكرها أعلام الأمة وأئمتها ؛ بأنّه لم يرد في أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما جاء في علي بن أبي طالب ، هل أنّ عبد الله بن عمر لم يسمع بفضيلة واحدة لعلي ؟ بلى والله لقد سمع ووعى ، ولكنّ السياسة وما أدراك ما السياسة فهي تقلب الحقائق وتصنع الأعاجيب .

كذلك يروي فضائل أبي بكر ، كلّ من عمرو بن العاص وأبو هريرة وعروة وعكرمة وهؤلاء كلّهم يكشف التاريخ أنّهم كانوا متحاملين على الإمام علي وحاربوه إمّا بالسلاح وإمّا بالدسّ واختلاق الفضائل لأعدائه وخصومه .

قال الإمام أحمد بن حنبل : إنّ علياً كان كثير الأعداء ففتّش أعداؤه عن شيء يعيبونه به فلم يجدوا ، فجاؤوا إلى رجل قد حاربه وقاتله ، فأطروه كيداً منهم له[2] .

ولكن الله يقول : ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم

---

(1) صحيح البخاري ج 2 ص 297 .

(2) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج 7 ص 83 ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 185 ، الصواعق المحرقة لابن حجر ص 125 .

رويداً ﴾[1] .

وإنّه لمن معجزات الله سبحانه أن تخرج فضائل الإمام علي بعد ستة قرون من الحكم الجائر الظالم له ولأهل بيته ، إذ لم يكن العبّاسيون أقلّ بغضاً وحسداً ونكاية وتقتيلاً لأهل البيت النبوي من أسلافهم الأمويين حتى قال أبو فراس الحمداني في ذلك :

ما نال منهم بنو حرب وإن عظمت	تلك الجرائر إلّا دون نيلكم
كم غدرة لكم في الدين واضحة	وكم دم لرسول الله عندكم
أنتم له شيعة في ما ترون وفي	أظفاركم من بنيه الطاهرين دمُ

فإذا خلصت بعد كل ذلك تلكم الأحاديث وخرجت من تلكم الظلمات فلتكن لله الحجة البالغة ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد ذلك .

ورغم أنّ أبا بكر كان هو الخليفة الأول وله من النفوذ ما قد عرفنا ورغم أنّ الدولة الأموية كانت تجعل عطاءً خاصّاً ورشوة لكل من يروي في حق أبي بكر وعمر وعثمان ورغم أنّها اختلقت لأبي بكر من الفضائل والمناقب الكثير مما سُوّدت بها صفحات الكتب ، مع ذلك فلم يبلغ معشار عشر حقائق الإمام علي وفضائله ، أضف إلى ذلك أنّك إذا حلّلت الأحاديث المروية في فضائل أبي بكر وجدتَها لا تتماشى مع مَا سجّله له التاريخ من أعمال تناقض ما قيل فيه ولا يقبلها عقل ولا شرع وقد تقدم شرح ذلك في حديث : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أمتي لرجح إيمان أبي بكر ، ولو كان يعلم رسول الله أنّ أبا بكر على هذه الدرجة من الإيمان ما كان ليؤمّر عليه أسامة بن زيد ولا ليمتنع من الشهادة له كما شهد على شهداء أحد وقال له إنّي لا أدري ماذا تحدث من بعدي حتى بكى أبو بكر[2] ، وما كان ليُرسل خلفه علي بن أبي طالب ليأخذ منه سورة براءة فيمنعه من تبليغها[3] ، وما كان قال يوم إعطاء الراية في خيبر : « لأعطين رايتي غداً

---

(1) سورة الطارق : الايات 15 ـ 17 .

(2) موطأ الإمام مالك ج 1 ص 307 ، مغازي الواقدي ص 310 .

(3) صحيح الترمذي ج 5 ص 336 ، مسند أحمد بن حنبل ج 1 ص 151 ، مستدرك الحاكم ج 3 ص 51 .

رجلاً يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّاراً ليس فرّاراً امتحن الله قلبه بالإيمان » فأعطاها إلى علي ولم يعطها إليه[1] .

ولو علم الله أنّ أبا بكر على هذه الدرجة من الإيمان ، وأنّ إيمانه يفوق إيمان أمة محمد بأسرها ، فلم يكن الله سبحانه ليهدّده بإحباط عمله ، عندما رفع صوته فوق صوت النبي[2] . ولو علم علي بن أبي طالب والصحابة الذين اتّبعوه أنّ أبا بكر على هذه الدرجة من الإيمان ، ما جاز لهم أن يتخلّفوا عن بيعته ، ولو علمت فاطمة الزهراء سيدة النساء أنّ أبا بكر على هذه الدرجة من الإيمان ، ما كانت لتغضب عليه وتمتنع عن الكلام معه وعن ردّ السلام عليه ، وتدعو الله عليه في كل صلاة[3] ، ثم لا تأذن له ـ حسب ما ورد في وصيتها ـ حتى بحضور جنازتها .

ولو علم أبو بكر أنّه على هذه الدرجة من الإيمان ، ما كان ليتمنى عند احتضاره ؛ أنّه لو لم يكن يكشف بيت فاطمة عليها السلام .

وأنّه لو لم يكن أحرق الفجاءة السلمي ، ولكان يوم السقيفة قذف الأمر في عنق أحد الرجلين عمر أو أبي عبيدة[4] .

فالذي هو على هذه الدرجة من الإيمان ، ويرجح إيمانه على إيمان كل الأمة لا يندم في آخر لحظات حياته على ما فعله مع فاطمة ، وعلى حرقه الفجاءة السلمي ، وعلى تولّيه الخلافة ، كما لا يتمنى أن لا يكون من البشر ، ويكون شعرة أو بعرة ، أفيعادل إيمان مثل هذا الشخص إيمان الأمة الإسلامية بل يرجح عليها ؟! .

وإذا أخذنا حديث : لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً[5] .

---

(1) صحيح مسلم باب فضائل علي بن أبي طالب ج 15 ص 176 .
(2) صحيح البخاري ج 4 ص 205 .
(3) الإمامة والسياسة ج 1 ص 24 ، رسائل الجاحظ ص 310 ، أعلام النساء ج 3 ص 1215 .
(4) تاريخ الطبري ج 4 ص 54 ، الإمامة والسياسة ج 1 ص 28 ، مروج الذهب ج 3 ص 46 .
(5) صحيح البخاري ج 2 ص 289 .

فهو كسابقه ، إذ أين كان أبو بكر يوم المؤاخاة الصغرى في مكة قبل الهجرة ويوم المؤاخاة الكبرى في المدينة بعد الهجرة وفي كلتيهما اتّخذ رسول الله (ص) عليّاً أخاً له وقال له : « أنت أخي في الدنيا والآخرة »[1] ولم يلتفت إلى أبي بكر فحرمه من مؤاخاة الآخرة كما حرمه من الخلّة ، وأنا لا أريد الإطالة في هذا الموضوع وأكتفي بهذين المثلين اللذين أوردتهما من كتب أهل السنّة والجماعة ، أما عند الشيعة فلا يعترفون بتلك الأحاديث مطلقاً ولديهم الأدلّة الواضحة على أنّها وضعت في زمن متأخر عن زمن أبي بكر .

هذا وإذا تركنا الفضائل وبحثنا في المساوىء فإنّنا لا نحصي لعلي بن أبي طالب سيئة واحدة من كتب الفريقين ، بينما نجد لغيره مساويء كثيرة في كتب أهل السنّة كالصحاح وكتب السِّيَرْ والتاريخ .

وبهذا يكون الإجماع من الفريقين يختصّ بعلي وحده كما يؤكد التاريخ أنّ البيعة الصحيحة لم تكن إلّا لعلي وحده .

فقد امتنع هو وأصرّ عليها المهاجرون والأنصار وقعد عن بيعته نفر فلم يجبرهم عليها ، بينما كانت بيعة أبي بكر فلتة وقّى الله المسلمين شرَّها ـ كما يقول عمر بن الخطاب ـ وكانت خلافة عمر بعهدٍ عهده إليه أبو بكر وكانت خلافة عثمان مهزلة تاريخية ، ذلك أنّ عمر رشّح ستة للخلافة وألزمهم أن يختاروا من بينهم واحداً وقال إذا اتّفق أربعة وخالف إثنان فاقتلوهما وإذا انقسم الستة إلى فريقين ثلاثة في كل جهة فخذوا برأي الثلاثة الذين يقف معهم عبد الرحمن بن عوف ، وإذا مضى وقت ولم يتّفق الستّة فاقتلوهم[2] ، والقصة طويلة وعجيبة ، والمهم أنّ عبد الرحمن بن عوف اختار عليّاً واشترط عليه أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنّة رسوله وسنّة الشيخين أبي بكر وعمر فرفض علي هذا الشرط ، وقبله عثمان فكان هو الخليفة ، وخرج علي من البيعة وهو يعلم مسبقاً النتيجة وقد

---

(1) تذكرة الخواص للسبط ابن الجوزي ص 31 ، تاريخ دمشق لابن عساكر ج 1 ص 107 ، المناقب للخوارزمي ص 7 ، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص 21 ، العمدة لابن بطريق ص 107 .

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 1 ص 185 وما بعدها .

تحدّث عن ذلك في خطبته المعروفة بالشقشقية .

وبعد علي استولى معاوية على الخلافة فأبدلها قيصرية ملكية يتداولها بنو أمية ومن بعدهم بنو العباس إبناً عن أب ، ولم يكن هناك خليفة إلّا بنص السابق على اللّاحق ، أو بقوّة السيف والسلاح والإستيلاء ، فلم تكن هناك بيعة صحيحة[1] في التاريخ الإسلامي من عهد الخلفاء وحتى عهد كمال أتاتورك الذي قضى على الخلافة الإسلامية إلّا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

٤ ـ الأحاديث الواردة في علي توجب اتّباعه

من الأحاديث التي أُخذت بها ودفعتني للإقتداء بالإمام علي ، تلك التي أخرجتها صحاح أهل السنّة والجماعة وأكّدت صحتها والشيعة عندهم أضعافها ولكن ـ وكالعادة ـ سوف لا أستدلّ ولا أعتمد إلّا الأحاديث المتّفق عليها من الفريقين . ومن هذه الأحاديث :

أ ـ حديث « أنا مدينة العلم وعلي بابها »[2] .

وهذا الحديث وحده كاف لتشخيص القدوة الذي ينبغي اتباعه بعد الرسول (ص) ، لأنّ العالم أولى بالإتّباع ، أي أولى أن يُقتدى به من الجاهل .

قال تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[3] .

وقال أيضاً : ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾[4] ومن المعلوم أنّ العالم هو الذي يهدي والجاهل يستحق الهداية وهو أحوج إليها من أيٍّ أحد .

وفي هذا الصدد سجّل لنا التاريخ أنّ الإمام عليّاً هو أعلم الصحابة على الإطلاق وكانوا يرجعون إليه في أمهات المسائل ولم نعلم أنّه (ع) رجع إلى واحد منهم قط فهذا أبو بكر يقول : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، وهذا

---

(1) أي بإجماع المسلمين لم يفرضها عليهم أحد ولم تكن فتنة صحيح مسلم ج 2 ص 637 .

(2) مستدرك الحاكم ج 3 ص 127 ، تاريخ ابن كثير ج 7 ص 358 .

(3) سورة الزمر : الآية 9 .

(4) سورة يونس : الآية 35 .

عمر يقول : لولا علي لهلك عمر[1] .

وهذا ابن عباس يقول : ما علمي وعلم أصحاب محمد في علم علي ، إلّا كقطرة في سبعة أبحر[2] .

وهذا الإمام علي نفسه يقول : (سلوني قبل أن تفقدوني ، والله لا تسألونني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلّا أخبرتكم به ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلّا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل)[3] .

بينما يقول أبو بكر عندما سئل عن معنى الأب في قوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[4] قال أبو بكر : أي سماء تظلّني وأي أرض تقلّني أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم .

وهذا عمر بن الخطاب يقول : كل الناس أفقه من عمر حتى ربّات الحجال ، ويُسأل عن آية من كتاب الله فينتهر السائل ويضربه بالدرة حتى يدميه ويقول : لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم[5] ، وقد سئل عن الكلالة فلم يعلمها .

أخرج الطبري في تفسيره عن عمر أنّه قال : لئن أكون أعلم الكلالة أحبّ إليّ من أن يكون لي مثل قصور الشام .

كما أخرج ابن ماجة في سننه عن عمر بن الخطاب قال : ثلاث لئن يكون رسول الله بيّنهنّ أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها : الكلالة والرّبا والخلافة[6] .

---

(1) الإستيعاب ج 3 ص 39 ، مناقب الخوارزمي ص 48 ، الرياض النضرة ج 2 ص 194 .

(2) لقد أجمعت صحاح أهل السنّة وكتبهم على أفضلية علي (ع) وتقدّمه في العلم على كل الصحابة . راجع ـ على سبيل المثال ما جاء في الإستيعاب ج 3 ، ص 38 ـ 45 من أقوال الصحابة أنفسهم فيه وتقديمهم له عليهم .

(3) المحب الطبري في الرياض النضرة ج 2 ص 198 ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 203 ، الإتقان ج 2 ص 319 ، فتح الباري ج 8 ص 485 ، تهذيب التهذيب ج 7 ص 338 .

(4) سورة عبس : الآيات 31 و32 .

(5) سنن الدارمي ج 1 ص 54 ، تفسير ابن كثير ج 2 ص 105 ، الدرّ المنثور ج 6 ص 111 .

(6) هذا الحديث من أشهر الأحاديث الواردة في كتب الفريقين في قصة الغدير .

سبحان الله ! حاشى لرسول الله أن يكون سكت عن هذه الأشياء ولم يبيّنها .

ب ـ حديث « يا علي أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي » :

وهذا الحديث كما لا يخفى على أهل العقول فيه ما فيه من اختصاص أمير المؤمنين علي بالوزارة والوصاية والخلافة .

فكما كان هارون وزيراً ووصيّاً ، وخليفة موسى في غيابه عندما ذهب لميقات ربّه ، كذلك أيضاً منزلة الإمام علي (ع) فهو كهارون عليه وعلى نبيّنا السلام وصورة طبق الأصل عنه ما عدا النبوّة التي استثناها نفس الحديث ، وفيه أيضاً أنّ الإمام علياً هو أفضل الصحابة والحديث كما هو معلوم مجمعٌ عليه عند عامة المسلمين .

ت ـ حديث « من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحقّ معه حيث دار » :

وهذا الحديث وحده كاف لردّ مزاعم تقديم أبي بكر وعمر وعثمان على من نصّبه رسول الله (ص) وليّاً للمؤمنين من بعده ، ولا عبرة بمن أوّل الحديث إلى معنى المحبّ والنّصير لصرفه عن معناه الأصلي الذي قصده الرسول وذلك حفاظاً على كرامة الصحابة ، لأنّ رسول الله (ص) عندما قام خطيباً في ذلك الحرّ الشديد وقال: «ألستم تشهدون بأنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؟ قالوا : بلى يا رسول الله فقال عندئذٍ : « فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه . . . » وهذا نصّ صريح في استخلافه على أمّته ، ولا يمكن للعاقل المنصف العادل إلاّ قبول هذا المعنى ، ورفض تأويل البعض المتكلّف ، والحفاظ على كرامة الرسول قبل الحفاظ على كرامة الصحابة ، لأنّ في تأويلهم هذا استخفافاً واستهزاء بحكمة الرسول الذي يجمع حشود الناس في الحرّ والهجير الذي لا يطاق ليقول لهم بأنّ علي هو محبّ المؤمنين وناصرهم .

وبماذا يُفسرّ هؤلاء الذين يؤولون النصوص حفاظاً على كرامة كبرائهم وساداتهم ؛ موكب التهنئة الذي عقده له رسول الله (ص) .

وبدأ بزوجاته أمهات المؤمنين وجاء أبو بكر وعمر يقولان : بخ بخ لك ياابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ، والواقع والتاريخ يشهدان أنّ المتأوّلين لكاذبون فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكتبون قال تعالى : ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] .

ث ـ حديث : « علي مني وأنا من علي ، ولا يؤدّي عني إلاّ أنا أو علي »[2] .

وهذا الحديث الشريف هو الآخر صريح في أنّ الإمام عليّاً هو الشخص الوحيد الذي أهّله صاحب الرسالة ليؤدّي عنه وقد قاله عندما بعثه بسورة براءة يوم الحج الأكبر عوضاً عن أبي بكر ، ورجع أبو بكر يبكي ويقول : يا رسول الله أنزل فيّ شيء ؟ فقال (ص) : « إنّ الله أمرني أن لا يؤدّي عنّي إلاّ أنا أو علي » .

وهذا نظير ما قاله رسول الله (ص) لعلي في مناسبة أخرى عندما قال له : « أنت يا علي تبينّ لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي »[3] .

فإذا كان لا يؤدّي عن رسول الله إلاّ علي ، وهو الذي يبينّ للأمة ما اختلفوا فيه بعده ، فكيف يتقدم عليه من لا يعرف معنى الأب ، ومن لا يعرف معنى الكلالة . وهذا لعمري من المصائب التي أصابت هذه الأمة وأعاقتها عن أداء المهمّة التي رشحها الله لها ، وليست الحجّة على الله ولا على رسول الله ولا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وإنّما الحجّة البالغة على الذين عصوا وبدّلوا ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾[4] .

---

(1) سورة البقرة : الآية 146 .

(2) سنن ابن ماجة ج 1 ص 44 ، خصائص النسائي ص 43 ، صحيح الترمذي ج 5 ص 336 ، جامع الأصول لابن كثير ج 8 ص 652 ، الجامع الصغير للسيوطي ج 2 ص 56 ، الرياض النضرة ج 2 ص 229 .

(3) تاريخ دمشق لابن عساكر ج 2 ص 488 ، كنوز الحقائق للمناوي ص 203 ، كنز العمال ج 32983/11 .

(4) سورة المائدة : الآية 104 .

ج - حديث الدار يوم الإنذار :

قال رسول الله (ص) مشيراً إلى علي :

« إنّ هذا أخي ، ووصيي ، وخليفتي من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا »[1] .

وهذا الحديث هو أيضاً من الأحاديث الصحيحة التي نقلها المؤرخون لبداية البعثة النّبوية وعدّوها من معجزات النبي ، ولكنّ السياسة هي التي أبدلت وزيّفت الحقائق والوقائع ، ولا عجب من ذلك لأنّ ما وقع في ذلك الزمان المظلم يتكرّر اليوم في عصر النور فهذا محمد حسين هيكل أخرج الحديث بكامله في كتابه (حياة محمد) في صفحة 104 من الطبعة الأولى سنة 1354 هجرية وفي الطبعة الثانية وما بعدها حذف من الحديث قوله (ص) : (وصيي وخليفتي من بعدي) ؛ كذلك حذفوا من (تفسير الطبري) الجزء 19 صفحة 121 قوله : (وصيي وخليفتي) وأبدلوها بقوله إنّ هذا أخي وكذا وكذا . . . !! وغفلوا عن أن الطبري ذكر الحديث بكامله في تاريخه الجزء 2 صفحة 319 .

أنظر كيف يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقلّبون الأمور ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره** ﴾[2] . . .

وخلال البحث الذي قمت به أردت الوقوف على جلية الحال فبحثت عن الطبعة الأولى لكتاب « حياة محمد » وتحصّلت عليها بحمد الله بعد عناء ومشقّة وقد كلفني ذلك كثيراً ، والمهم أنّني اطّلعت على ذلك التحريف وزادني ذلك يقيناً بأن أهل السوء يحاولون جهدهم أن يمحوا الحقائق الثابتة لأنّها حجة قوية لدى (خصومهم) ! .

ولكنّ الباحث المنصف عندما يقف على شيء من هذا التحريف والتزييف يزداد عنهم بعداً ويعرف بلا شك أنّهم لا حجّة لديهم غير التضليل والدسّ

---

(1) تاريخ الطبري ج 2 ص 321 ، تاريخ ابن الأثير ج 2 ص 62 ، السيرة الحلبية ج 1 ص 334 ، شواهد التنزيل للحسكاني ج 1 ص 371 ، كنز العمال ج 15 ص 15 ، تاريخ ابن عساكر ج 1 ص 85 ، تفسير الخازن لعلاء الدين الشافعي ج 3 ص 372 ، حياة محمد لحسين هيكل الطبعة الأولى باب وأنذر عشيرتك الأقربين .

(2) تضمين من سورة التوبة : الآية 32 .

وقلب الحقائق بأي ثمن ، ولقد استأجروا كتّاباً كثيرين وأغدقوا عليهم الأموال كما أغدقوا عليهم الألقاب والشهادات الجامعية المزيّفة ليكتبوا لهم ما يريدون من الكتب والمقالات التي تشتم الشيعة وتكفّرهم وتدافع بكل جهد وإن كان باطلاً عن كرامة بعض الصحابة المنقلبين على أعقابهم والذين بدّلوا بعد رسول الله الحقّ بالباطل **﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾**[1] صدق الله العظيم .

* * *

(1) سورة البقرة : الآية 118 .



الأحاديث الصحيحة
التي توجب أتباع أهل البيت

١ ـ حديث الثقلين

قال رسول الله (ص) :

« يـا أيها النـاس إنّي تركت فيكم مـا إن أخذتم بـه لن تضلّوا ؛ كتـاب الله وعترتي أهل بيتي » وقال أيضاً :

« يوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب وإنّي تارك فيكم الثقلين أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنـور وأهل بيتي ، أذكّـركم الله في أهل بيتي ، أذكـركم الله في أهل بيتي »[1] .

وإذا أمعنا النظر في هذا الحديث الشريف الذي أخرجـه صحاح أهـل السنّة والجماعة وجدنا أنّ الشيعة وحدهم هم الذين اتّبعوا الثقلين (كتاب الله ، والعترة النبـوية الـطاهرة) بينـما اتّبع أهـل السنّة والجـماعة قـول عمر : (حسبنـا كتـاب الله) .

وليتهم اتّبعوا كتاب الله بغير تأويـل حسب أهوائهم فـإذا كان عمـر نفسه لم يفهم منه معنى الكلالة ولا عرف منه آية التيمم وعـدة أحكام أُخـرى فكيف بمن

(1) صحيح مسلم باب فضائل علي ج 15 ص 180 ، صحيح الترمذي ج 5 ص 662 . مستدرك الحاكم ج 3 ص 148 مسند الامام أحمد بن حنبل ج ص 17 .

جاء بعده وقلّده بدون اجتهاد أو اجتهد برأيه في النصوص القرآنية ، وبطبيعة الحال سوف يردّون عليّ بالحديث المروي عندهم وهو « تركت فيكم كتاب الله وسنّتي »[1] .

وهذا الحديث إن صحّ وهو صحيح في معناه ، لأنّ معنى العترة بقوله (ص) في حديث الثقلين المتقدّم هو الرجوع إلى أهل بيتي ليعلّموكم - أولاً - سنّتي ، أو لينقلوا إليكم الأحاديث الصحيحة لأنّهم منزّهون عن الكذب وإنّ الله سبحانه عصمهم بآية التطهير .

وثانياً : لكي يفسّروا لكم معانيها ومقاصدها ، لأنّ كتاب الله وحده لا يكفي للهداية فكم من فرقة تحتج بكتاب الله وهي في الضّلالة كما ورد ذلك عن رسول الله (ص) عندما قال : « كم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه » .

فكتاب الله صامت ، وحمّال أوجه ، وفيه المحكم والمتشابه ، ولا بدّ لفهمه من الرجوع إلى الرّاسخين في العلم حسب التعبير القرآني ، وإلى أهل البيت حسب التفسير النّبوي .

فالشيعة يرجعون كل شيء إلى الأئمة المعصومين من أهل البيت النبوي ولا يجتهدون إلاّ في ما لا نصّ فيه .

ونحن نرجع في كل شيء إلى الصّحابة سواء في تفسير القرآن أو في إثبات السنّة وتفسيرها ، وقد علمنا أحوال الصحابة وما فعلوه وما استنبطوه واجتهدوا فيه بآرائهم مقابل النصوص الصريحة وهي تعدّ بالمئات فلا يمكن الركون إلى مثلهم بعدما حصل منهم ما حصل .

وإذا سألنا علماءنا ، أي سنّة تتبعون ؟ لأجابوا قطعاً : سنّة رسول الله (ص) .

والواقع التاريخي لا ينسجم مع ذلك ، فقد رووا أنّ الرسول نفسه قال : « عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ » إذاً

---

(1) أخرج مسلم في صحيحه والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبي داوود في سننهم الحديث المذكور .

فالسنّة التي يتبعونها هي في أغلب الأحيان سنّة الخلفاء الراشدين وحتى سنّة الرسول التي يقولون بها فهي المروية عن طريق هؤلاء .

على أنّنا نروي في صحاحنا أنّ الرسول منعهم من كتابة سننه لئلا تختلط بالقرآن ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر إبّان خلافتيهما ، فلا يبقى بعد هذا حجّة في قولنا : « تركت فيكم سنّتي »[1] .

والذي ذكرته في هذا البحث من الأمثلة ـ وما لم أذكره هو أضعاف ذلك . كاف لردّ هذا الحديث لأنّ من سنّة أبي بكر وعمر وعثمان ما يناقض سنّة النبي ويبطلها ، كما لا يخفى .

وإذا كانت أول حادثة وقعت بعد وفاة رسول الله مباشرة وسجّلها أهل السنّة والجماعة والمؤرخون : هي مخاصمة فاطمة الزهراء لأبي بكر الذي احتجّ بحديث : نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

هذا الحديث الذي كذّبته فاطمة الزهراء وأبطلته بكتاب الله ، واحتجّت على أبي بكر بأنّ أباها رسول الله (ص) لا يمكنه أن يناقض كتاب الله الذي أنزل عليه إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين** ﴾[2] .

وهي عامّة تشمل الأنبياء وغير الأنبياء ، واحتجّت عليه بقوله تعالى : ﴿ **وورث سليمان داوود** ﴾[3] وكلاهما نبي .

وقوله عزّ من قائل : ﴿ **فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً** ﴾[4] .

---

(1) ورد بلفظ (كتاب الله وعترتي) مسنداً إلى رسول الله (ص) . أمّا لفظ سنتي فلم يرد في أيّ من الصحاح الست ؛ وقد أخرج الحديث بهذا اللفظ مالك بن أنس في موطئه ونقله مرسلاً غير مسند ، وأخذ عنه بعد ذلك البعض كالطبري وابن هشام ونقلوه مرسلاً كما ورد عن مالك .

(2) سورة النساء : الآية 11 .

(3) سورة النمل : الآية 16 .

(4) سورة مريم : الآيات 5 و 6 .

والحادثة الثانية التي وقعت لأبي بكر في أول أيام خلافته وسجّلها المؤرخون من أهل السنّة والجماعة اختلف فيها مع أقرب الناس إليه وهو عمر بن الخطّاب تلك الحادثة التي تتلخّص في قراره بمحاربة مانعي الزكاة وقتلهم فكان عمر يعارضه ويقول له لا تقاتلهم لأنّي سمعت رسول الله (ص) يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه وحسابه على الله » .

وهذا نصّ أخرجه مسلم في صحيحه جاء فيه : « أنّ رسول الله (ص) أعطى الراية إلى علي يوم خيبر فقال علي : يا رسول الله على ماذا أقاتلهم ؟ فقال (ص) : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ، فإن فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله »[1] ولكن أبا بكر لم يقتنع بهذا الحديث وقال : والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة فإنّ الزكاة حقّ المال ؛ أو قال : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه ، واقتنع عمر بن الخطاب بعد ذلك وقال : ما إن رأيت أبا بكر مصمّماً على ذلك حتى شرح الله صدري ؛ ولست أدري كيف يشرح الله صدور قوم بمخالفتهم سنّة نبيّهم ! .

وهذا التأويل منهم ، لتبرير قتال المسلمين الذين حرّم الله قتلهم إذ قال في كتابه العزيز .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[2] . صدق الله العظيم .

على أنّ هؤلاء الذين منعوا إعطاء أبي بكر زكاتهم لم ينكروا وجوبها ؛ ولكنّهم تأخّروا ليتبيّنوا الأمر ويقول الشيعة : إنّ هؤلاء فوجئوا بخلافة أبي بكر

---

(1) صحيح مسلم ج 8 ص 51 كتاب الايمان .

(2) سورة النساء : الآية 94 .

وفيهم من حضر مع رسول الله حجة الوداع وسمع منه النصّ على علي بن أبي طالب ، فتريّثوا حتى يفهموا الحقيقة ، ولكن أبا بكر أراد إسكاتهم عن تلك الحقيقة ، وبما أنّني لا أستدلّ ولا أحتجّ بما يقوله الشيعة ، فسأترك هذه القضية لمن يهمّه الأمر ليبحث فيها .

على أنّني لا يفوتني أن أسجّل هنا أن صاحب الرسالة (ص) وقعت له في حياته قصة ثعلبة الذي طلب منه أن يدعوا له بالغنى وألحّ في ذلك وعاهد الله أنّه يتصدق ، ودعا له رسول الله (ص) وأغناه الله من فضله ، وضاقت عليه المدينة وأرجاؤها من كثرة إبله وغنمه حتى ابتعد ولم يعد يحضر صلاة الجمعة ، ولمّا أرسل إليه رسول الله (ص) العاملين على الزكاة ، رفض أن يعطيهم شيئاً منها ، قائلاً : إنّما هذه جزية أو أخت الجزية ، ولم يقاتله رسول الله (ص) ، ولا أمر بقتاله وأنزل فيه قوله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين فلمّا أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون** ﴾[1] .

وجاء ثعلبة بعد نزول الآية وهو يبكي ، وطلب من رسول الله (ص) قبول زكاته وامتنع الرسول حسب ما تقول الرّواية .

فإذا كان أبو بكر وعمر يتّبعان سنّة الرسول ، فلماذا هذه المخالفة وإباحة دماء المسلمين الأبرياء لمجرّد منع الزكاة ؟ على أنّ المعتذرين لأبي بكر والذين يريدون تصحيح خطئه بتأويله بشأنّ الزكاة هي حقّ المال ، لا يبقى لهم ولا له عذر بعد قصة ثعلبة الذي أنكر الزكاة واعتبرها جزية ، ومن يدري لعلّ أبا بكر أقنع صاحبه عمر بوجوب قتل من منعوه الزكاة خوفاً أن تسري دعوتهم في البلاد الاسلامية لاحياء نصوص الغدير التي نصّبت علياً للخلافة ، ولذلك شرح الله صدر عمر بن الخطاب لقتالهم ، وهو الذي هدّد بقتل المتخلّفين في بيت فاطمة وحرقهم بالنار من أجل أخذ البيعة لصاحبه .

أمّا الحادثة الثالثة التي وقعت لأبي بكر في أول خلافته وخالفه فيها عمر بن

---

(1) سورة التوبة : الآيات 75 ـ 76 .

الخطاب ، وقد تأوّل فيها النصوص القرآنية والنّبوية : فهي قصّة خالد بن الوليد الذي قتل مالك بن نويرة صبراً ونزا على زوجته فدخل بها في نفس الليلة .

وكان عمر يقول لخالد : يا عدوّ الله قتلت امرءاً مسلماً ، ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنّك بالأحجار[1] .

ولكن أبا بكر دافع عنه وقال : هبه يا عمر ، تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد .

وهذه فضيحةٌ أُخرى سجّلها التاريخ لصحابي من الأكابر !! إذا ذكرناه ، ذكرناه بكل احترام وقداسة ، بل ولقّبناه بـ (سيف الله المسلول) !!

ماذا عساني أن أقول في صحابي يفعل مثل تلك الأفعال ، يقتل مالك بن نويرة الصحابي الجليل وسيد بني تميم وبني يربوع ، وهو مضرب الأمثال في الفتوة والكرم والشجاعة .

وقد حدّث المؤرخون أنّ خالداً غدر بمالك وأصحابه بعد أن وضعوا السّلاح وصلّوا جماعة ، فأوثقوهم بالحبال ، وفيهم ليلى بنت المنهال زوجة مالك ، وكانت من أشهر نساء العرب بالجمال ، ويقال إنّها لم يُرَ أجمل منها وفتن خالد بجمالها ، وقال له مالك : يا خالد ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا ، وتدخّل عبد الله بن عمر ، وأبو قتادة الأنصاري وألحّا على خالد أن يبعثهم إلى أبي بكر فرفض خالد وقال : لا أقالني الله إن لم أقتله ، فالتفت مالك إلى زوجته ليلى وقال لخالد : هذه التي قتلتني ، فأمر خالد بضرب عنقه ، وقبض على ليلى زوجته ودخل بها في تلك الليلة[2] .

ماذا عساني أن أقول في هؤلاء الصحابة ، الذين يستبيحون حرمات الله ويقتلون النفوس المسلمة من أجل هوى النفس ، ويستبيحون الفروج التي

---

(1) تاريخ الطبري ج 3 ص 280 تاريخ أبي الفداء ج 2 ص 65 ، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 110 الاصابة في معرفة الصحابة ج 6 ص 37 .

(2) تاريخ أبي الفداء ج 2 ص 65 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 110 . ، تاريخ ابن شحنة بهامش الكامل ج 11 ص 114 وفيات الأعيان ج 6 ص 14 .

حـرّمها الله ، ففي الاسـلام لا تنكح المرأة المتـوفى زوجهـا إلاّ بعـد العـدّة التي حدّدها الله في كتابه العـزيز ، ولكنّ خـالداً اتّخـذ إلهه هـواه فتردّى ، وأي قيمـة للعدّة عنده بعـد أن قتل زوجهـا صبراً وظلماً ، وقتـل قومـه أيضاً وهم مسلمـون بشهادة عبد الله بن عمـر وأبي قتادة الـذي غضب غضباً شـديداً ممّـا فعلـه خالـد وانصرف راجعـاً إلى المدينـة وأقسم أن لا يكـون أبـداً في لـواءٍ عليـه خـالـد بن الوليد[1] .

وحسبنا في هذه القضية المشهورة أن ننقـل اعتراف الاستـاذ هيكل في كتـابه (الصدّيق أبو بكر) إذ قال تحت عنوان (رأي عمر وحجّته في الأمر) :

(أمّا عمر ، وكـان مثال العـدل الصارم ، فكـان يرى أنّ خـالداً عـدا على امـرىء مسلم ونزا على امرأتـه قبل انقضـاء عدّتهـا ، فلا يصـحّ بقاؤه في قيـادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسيء إلى مكانتهم بـين العرب قال : ولا يصحّ أن يترك بغير عقاب على ما أتمّ مع ليلى .

ولو صحّ أنّه تأوّل فأخطأ في أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، وحسبه مـا صنع مع زوجته ليقام عليـه الحدّ ، فليس ينهض عـذراً له إنّـه سيف الله ، وإنّه القائد الذي يسير النصر في ركابه ، فلو أنّ مثل هذا العـذر يقبل لأبيحت لخـالد وأمثـاله المحـارم ، ولكان أسـوأ مثل يضرب للمسلمـين في احـترام كتـاب الله ، لـذلك لم يفتـأ عمر يعيـد على أبي بكـر ، ويلحّ عليـه ، حتى استـدعى خـالـداً وعنّفه . . . .)[2] .

وهل لنا أن نسأل الاستاذ هيكل وأمثاله من علمائنا الـذين يراوغـون حفاظـاً على كرامة الصحابة ، هل لنا أن نسألهم ، لماذا لم يقم أبو بكر الحدّ على خالـد ؟ وإذا كان عمر كما يقول هيكل مثال العدل الصارم فلماذا اكتفى بعـزله عن قيـادة الجيش ولم يقم عليـه الحـدّ الشرعي حتى لا يكـون ذلـك أسـوأ مثـل يضرب

(1) تاريخ الطبري ج 3 ص 280 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 110 ، تاريخ أبي الفداء ج 2 ص 60 ، الاصابة ج 6 ص 37 .

(2) كتاب « الصديق أبو بكر » للاستاذ هيكل ص 151 .

للمسلمين في احترام كتاب الله كما ذكر ؟ وهل احترموا كتاب الله وأقاموا حدود الله ؟ كلاّ إنّها السياسة وما أدراك ما السياسة ؟ تصنع الأعاجيب وتقلب الحقائق ، وتضرب بالنصوص القرآنية عرض الجدار .

وهل لنا أن نسأل بعض علمائنا الذين يروون في كتبهم ؛ أنّ رسول الله (ص) غضب غضباً شديداً عندما جاء أسامة ليشفع لامرأةٍ شريفة سرقت .

فقال (ص) : « ويحك أتشفع في حدّ من حدود الله ، والله لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، إنّما أهلك من كان قبلكم إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحدّ »[1] .

فكيف يسكتون عن قتل المسلمين الأبرياء والدخول بنسائهم في نفس الليلة وهنّ منكوبات بموت أزواجهنّ ويا ليتهم يسكتون ! ولكنهم يحاولون تبرير فعل خالد باختلاق الأكاذيب وبخلق الفضائل والمحاسن له حتى لقّبوه بسيف الله المسلول .

ولقد أدهشني بعض أصدقائي وكان مشهوراً بالمزح وقلب المعاني ، فكنت أذكر له مزايا خالد بن الوليد في أيام جهالتي وقلت له أنّه سيف الله المسلول ، فأجابني : إنّه سيف الشيطان المشلول ، واستغربت يومها ، ولكن بعد البحث فتح الله بصيرتي وعرّفني قيمة هؤلاء الذين استولوا على الخلافة وبدّلوا أحكام الله وعطّلوها وتعدّوا حدود الله واخترقوها .

وخالد بن الوليد له في حياة النبي قصة مشهورة ، إذ بعثه النبي إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الاسلام ولم يأمره بقتالهم .

فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فقالوا : صبأنا ، صبأنا ، فجعل خالد يقتل ويأسر بهم ودفع الأسرى إلى أصحابه وأمرهم بتقلهم ، وامتنع البعض من قتلهم لما تبين لهم أنّهم أسلموا ولما رجعوا وذكروا ذلك للنبي (ص) .

---

(1) صحيح الترمذي ج 4 ص 37 ، صحيح البخاري ج 4 ص 173 باب إذا قضىٰ الحاكم بجور فهو ردّ .

قال : « اللهمّ إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » قالها مرتين وبعث علي بن أبي طالب إلى بني جذيمة ومعه مال فودّى لهم الدّماء وما أصيبت لهم من أموال ، حتى ودّى لهم مليغة الكلب . وقام رسول الله (ص) فاستقبل القبلة قائماً رافعاً يديه إلى السماء حتى أنّه ليرى ما تحت منكبيه ، وهو يقول : « اللهم إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات[1] .

فهل لنا أن نسأل أين هي عدالة الصحابة المزعومة التي يدّعونها ، وإذا كان خالد بن الوليد وهو عندنا من عظمائنا حتى لقبناه بسيف الله ، أفكان ربّنا يسلّ سيفه ويسلّطه على المسلمين والأبرياء وعلى المحارم فيهتكها ، ففي ذلك تناقض لأنّ الله ينهى عن قتل النفس وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ولكنه - أي خالد - في نفس الوقت يسلّ سيف البغي ليفتك بالمسلمين ويهدر دماءهم وأموالهم ويسبي نساءهم وذراريهم ، إنّ هذا زور من القول وبهتان مبين ، سبحانك ربّنا وبحمدك تباركت وتعاليت عن ذلك علواً كبيراً **﴿ سبحانك ما خلقت السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾**[2] .

كيف جاز لأبي بكر وهو خليفة المسلمين أن يسمع بتلكم الجرائم الموبقة ويسكت عنها ، بل ويدعو عمر بن الخطاب بأن يكفّ لسانه عن خالد ، ويغضب على أبي قتادة لإنكاره فعل خالد ، أكان مقتنعاً حقّاً بأنّ خالداً تأوّل فأخطأ ، فأي حجة بعد هذا على المجرمين والفاسقين في هتكهم الحرمات وادّعائهم التأويل .

أمّا أنا فلا أعتقد بأنّ أبا بكر كان متأوّلاً في أمر خالد الذي سمّاه عمر بن الخطّاب بـ (عدوّ الله) وكان من رأيه أن يقتل خالد ، لأنه قتل أمرءاً مسلماً وأن يرجم بالحجارة لأنّه زنى بزوجة مالك (ليلى) ، ولم يقع شيء من ذلك للقاتل الجاني بل خرج منها منتصراً على عمر بن الخطاب ، لأنّ أبا بكر وقف إلى جانبه

---

(1) سيرة ابن هشام ج 4 ص 71 - 72 طبقات ابن سعد ، أسد الغابة ج 2 ص 94 ، تاريخ الطبري ج 3 ص 67 .

(2) تضمين من سورة ص : الآية 27 .

وهو يعلم حقيقة خالد أكثر من أيِّ أحد ، فقد سجّل المؤرخون أنّه بعثه بعد تلك الواقعة المشينة إلى اليمامة التي خرج منها منتصراً ، وتزوّج في أعقابها بنتاً كما فعل مع ليلى ولمّا تجف دماء المسلمين بعدُ ولا دماء أتباع مسيلمة ، وقد عنّفه أبو بكر على فعلته هذه بأشدّ ممّا عنّفه على فعلته مع ليلى[1] ، ولا شك أنّ هذه البنت هي الأخرى ذات بعل فقتله خالد ونزا عليها ، كما فعل بليلى زوجة مالك .

وإلّا لما استحقّ أن يعنّفه أبو بكر بأشدّ ممّا عنّفه على فعلته الأولى ، على أنّ المؤرخين يذكرون نصّ الرسالة التي بعث بها أبو بكر إلى خالد بن الوليد وفيها يقول : لعمري يا بن أم خالد إنّك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد[2] .

ولما قرأ خالد هذا الكتاب قال : هذا عمل الأعسر يقصد بذلك عمر بن الخطاب .

فهذه من الأسباب القوية التي جعلتني أنفر من أمثال هؤلاء الصحابة ، ومن تابعيهم الذين يتأوّلون النصوص ويختلقون الروايات الخيالية لتبرير أعمال أبي بكر وعمر وعثمان وخالد بن الوليد ومعاوية وعمرو بن العاص وإخوانهم ، اللهم إنّي أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنّي أبرأ إليك من أفعال هؤلاء وأقوالهم التي خالفت أحكامك واستباحت حرماتك وتعدّت حدودك ، واغفر لي ما سبق من موالاتهم إذ كنتُ من الجاهلين ، وقد قال رسولك : « لا يعذر الجاهل بجهله » ، اللهم إنّ ساداتنا وكبراءنا قد أضلونا السبيل وحجبوا عنّا الحقيقة وصوّروا لنا الصحابة المنقلبين بأنّهم أفضل الخلق بعد رسولك ، ولا شك إنّ آباءنا وأجدادنا كانوا ضحيّة الدسّ والغش الذي توخّاه الأمويون ومن بعدهم العباسيون اللهم فاغفر لهم ولنا فأنت تعلم السرائر وما تخفي الصدور وما كان حبّهم وتقديرهم واحترامهم لأولئك الصحابة إلّا عن حسن نيّة على أنّهم أنصار رسولك محمد صلواتك وسلامك عليه وأحباؤه . . . وأنت تعلم - يا سيدي - حبّهم وحبّنا

---

(1) الاستاذ هيكل في كتابه « الصديق أبو بكر » ص 151 وما بعدها .

(2) تاريخ الطبري ج 3 ص 254 ، تاريخ الخميس ج 343 .

للعترة الطاهرة ، الأئمة الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، وعلى رأسهم سيد المسلمين وأمير المؤمنين وقائد الغرّ المحجّلين وإمام المتقين سيدنا علي بن أبي طالب .

واجعلني اللهم من شيعتهم ومن المتمسّكين بحبل ولائهم والسائرين على مناهجهم ، والرّاكبين في سفينتهم والمستمسكين بعروتهم الوثقى والداخلين من أبوابهم والذّائبين في محبتهم ومودّتهم العاملين بأقوالهم وأفعالهم والشاكرين لفضلهم ونوالهم .

اللهم واحشرني في زمرتهم فقد قال نبيّك صلواتك عليه وعلى آله : « يحشر المرء مع من أحبّ » .

٢ ـ حديث السّفينة

قال رسول الله (ص) :

« إنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح في قومه ، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق »[1] .

« وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل ، من دخله غُفر له »[2] .

وقد أورد ابن حجر في كتابه (الصواعق المحرقة) هذا الحديث ثم قال : ووجه تشبيههم بالسفينة أنّ من أحبّهم وعظّمهم شكراً لنعمة مشرّفهم ، وأخذاً بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات ، ومن تخلّف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم وهلك في مفاوز الطغيان ، ووجه تشبيههم بباب حطّة ، إنّ الله تعالى جعل دخول ذلك الباب الذي هو باب أريحا ، أو بيت المقدس مع التواضع ، والاستغفار سبباً للمغفرة ، وجعل لهذه الأمة مودّة أهل البيت سبباً للمغفرة والنجاة .

---

(1) المستدرك للحاكم ج 3 ص 151 تلخيص الذهبي ، ينابيع المودة ج 1 ص 26 ، الصواعق المحرقة لابن حجر ص 184 و 234 مجمع الزوائد ج 9 ص 168 .

(2) مجمع الزوائد للهيثمي ج 9 ص 168 .

ويا ليتني أسأل ابن حجر هل كان من الذين ركبوا السفينة ودخلوا الباب وأخذوا بهدي العلماء ، أم أنّه من الذين يقولون ما لا يفعلون ويخالفون ما يعتقدون ، وكثيرون هم أولئك الجهلة الذين عندما أسألهم واحتجّ عليهم يقولون لي : نحن أولى بأهل البيت وبالامام علي من غيرنا ، نحن نحترم أهل البيت ونقدّرهم وليس هناك من ينكر فضلهم وفضائلهم ! .

نعم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، أو أنّهم يحترمونهم ويقدرونهم ولكن يقتدون بأعدائهم ، ويقلّدونهم ومن قاتلهم وخالفهم .

أو أنّهم في أغلب الأحيان لا يعرفون من هم أهل البيت وإذا سألتهم من هم أهل البيت ؟ يجيبون على الفور : هم نساء النبي اللّاتي أذهب الله عنهن الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وقد كشف لي أحدهم عن هذا اللّغز عندما سألته وأجابني قائلاً : أهل السنّة والجماعة كلّهم يقتدون بأهل البيت ، وتعجّبت وقلت كيف ذلك ؟ فقال : قال رسول الله خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء يعني عائشة ، فنحن أخذنا نصف الدّين عن أهل البيت ، وعلى هذا الأساس يفهم كلامهم حول احترام وتقدير أهل البيت ، أمّا إذا سألتهم عن الأئمة الاثني عشر فلا يعرفون منهم غير علي والحسن والحسين مع أنّهم لا يقولون بإمامة الحسنين ، وهم يحترمون معاوية بن أبي سفيان الذي دسّ السم للحسن فقتله ، ويسمونه (كتاب الوحي) وعمرو بن العاص كاحترامهم الامام علي .

إنّه التناقض والخلط والتّلبيس تلبيس الحق بالباطل وتغليف الضياء بالظلام وإلّا كيف يجتمع في قلب المؤمن حبّ الله والشيطان معاً ، قال الله في كتابه المجيد .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1] .

---

(1) سورة المجادلة : الآية 22 .

وقال أيضاً عزّ من قائل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾[1] .

٢ ـ حديث من سرّه أن يحيا حياتي

قال رسول الله (ص) :

« من سرّه أن يحيا حياتي ، ويموت مماتي ، ويسكن جنّة عدن غرسها ربّي ، فليوال عليّاً من بعدي وليوال وليّه ، وليقتد بأهل بيتي من بعدي ، فإنّهم عترتي خلقوا من طينتي ، ورزقوا فهمي وعلمي ، فويل للمكذّبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي »[2] .

وهذا الحديث هو كما نرى ، من الأحاديث الصريحة التي لا تقبل التأويل ولا تترك للمسلم أي اختيار ؛ بل تقطع عليه كل حجّة ، وإذا لم يُوال عليّاً ويقتد بأهل البيت عترة الرسول ، فهو محروم من شفاعة جدّهم رسول الله (ص) .

وتجدر الاشارة هنا بأنّه خلال البحث الذي قمتُ به شككت في البدء في صحّة هذا الحديث واستعظمته ، لما فيه من تهديد ووعيد لمن كان على خلاف مع علي وأهل البيت ، وخصوصاً أنّ هذا الحديث لا يقبل التأويل ، وخفّت الوطأة عندما قرأت في كتاب (الاصابة) لابن حجر العسقلاني بعدما أخرج الحديث قوله : قلت في أسناده يحيى بن يعلى المحاربي وهو واهٍ ، وأزال ابن حجر بهذا القول بعض الإشكال الذي علق بذهني إذ تصوّرت أنّ يحيى بن يعلى المحاربي هو واضعُ الحديث وهو ليس بثقة ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يوقفني على

---

(1) سورة الممتحنة : الأية 1 .

(2) مستدرك الحاكم ج 3 ص 128 الطبراني في الجامع الكبير والاصابة لابن حجر العسقلاني ، كنز العمّال ج 12/ 34198 . المناقب للخوارزمي ص 34 ينابيع المودة ج 1 ص 126 ، حلية الأولياء ج 1 ص 86 تاريخ ابن عساكر ج 2 ص 95 .

الحقيقة بكاملها ، وقرأت يوماً كتاب (مناقشات عقائدية في مقالات إبراهيم الجبهان)[1] .

وأوقفني هذا الكتاب على جليّة الحال إذ تبينّ أنّ يحيى بن يعلى المحاربي هو من الثقاة الذين اعتمدهم الشيخان مسلم والبخاري ، وتتبّعت بنفسي فوجدت البخاري يخرّج له أحاديث في باب غزوة الحديبية من جزئه الثالث في صفحة عدد 44 ، كما أخرج له مسلم في صحيحه في باب الحدود من جزئه الحادي عشر في صفحة عدد 199 والذهبي نفسه ـ على تشدّده ـ أرسل توثيقه إرسال المسلمات وقد عدّه أئمة الجرح والتعديل من الثقات واحتجّ به الشيخان فلماذا هذا الدسّ والتزوير وتقليب الحقائق والطعن في رجل ثقة احتجّ به أهل الصحاح ؟ ألأنه ذكر الحقيقة الناصعة في وجوب الاقتداء بأهل البيت فكان جزاؤه من ابن حجر التوهين والتضعيف ، وقد فات ابن حجر أنّ من ورائه علماء جهابذة يحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة ويكشفون تعصّبه وجهله لأنّهم يستضيئون بنور النبوة ويهتدون بهدي أهل البيت .

وعرفت بعد ذلك أنّ بعض علمائنا يحاولون جهدهم تغطية الحقيقة لئلا ينكشف أمر الصحابة والخلفاء الذين كانوا أمراءهم وقدوتهم فتجدهم مرة يتأولون الأحاديث الصحيحة الثابتة ويحمّلونها غير معانيها ، مثال ذلك تأويلهم لمعنى المولى بدل الأَوْلَى إلى معنى المحب والنّاصر في حديث « من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه » ، فعلماء أهل السنّة يقولون بصحّة الحديث ولكن يجب تأويله إلى معنى المحبّ والناصر وذلك لتصحيح خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وإلاّ لوجب أن يكون علي كرّم الله وجهه أولى منهم جميعاً ، وهذا فيه ما فيه من تفسيق أكثر الصحابة الذين بايعوا أبا بكر وهو مُنكر من القول ؛ هذا قول علماء أهل السنّة والجماعة كما صرّح لي به كثير من علمائنا في تونس ! ولمّا قلتُ لهم أنّ رسول الله (ص) قبل الحديث وخلال الخطبة سألهم (ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : بلَى عند ذلك قال « من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه ») ، أجاب البعض بأنّ هذا من زيادات الشيعة ، وعندما سألتهم : أيُعقَلُ أن يجمع

(1) مناقشات عقائدية في مقالات إبراهيم الجبهان صفحة 29 .

رسول الله (ص) مائة ألف من الحجيج في حرّ الهجير ويحبسهم في الشمس المحرقة ليقول لهم بأنّ علياً محب وناصر المسلمين ؟ أهذا معقول ؟؟ فسكتوا ولم يجيبوا .

ومرة يكذّبون الأحاديث التي تناقض مذهبهم وإن وردت في صحاحهم وأسانيدهم ، مثال ذلك حديث « الخلفاء من بعدي إثنا عشر كلهم من قريش وفي رواية كلهم من بني هاشم » وقد أخرج الحديث كلّ من البخاري ومسلم وكل صحاح أهل السنّة والجماعة ، ومع ذلك فهم يكذّبون أن يكون هؤلاء هم الأئمة الاثنا عشر من أهل البيت الذين تقول بإمامتهم وولائهم الشيعة الامامية الاثنا عشرية ، وهم يعدّون الخلفاء الراشدين الأربعة ومنهم من يُلحق بهم الخليفة عمر بن عبد العزيز فيصبح العدد خمسة ويتوقّفون عند ذلك لأنّهم ، والحق معهم لا يعدّون معاوية وابنه يزيد ولا مروان بن الحكم وأولاده من الخلفاء الراشدين ، ويبقى العدد (اثنا عشر) بالنسبة إليهم لُغزاً ليس له حلّ اللّهم إلاّ إذا قالوا بقول الامامية ! .

ومرة يحذفون من الحديث نصفه أو ثلثيه ليبدلوه بـ (كذا وكذا) !! ومثال ذلك حديث « إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا » قاله وهو آخذ برقبة عليّ وقد أخرج هذا الحديث كل من الطبري في (تاريخه) وابن الأثير في (كامله) وكذلك (كنز العمال) و (مسند الامام أحمد) وصاحب (السيرة الحلبية) وابن عساكر ولكنّ الذي طبع كتاب تفسير الطبري ج 19 ص 74 لم يترك الحديث كاملاً كما نطق به رسول الله (ص) بل حذف منه كل معانيه وأبدلها بقوله « إنّ هذا أخي وكذا وكذا !! » وغفل عن أنّ الطبري أخرج الحديث كاملاً في تاريخه ج 2 ص 320 ؛ إنّها الأمانة العلمية ، ولعلّ هذا العالم لم تمكّنه الحيل من تكذيب الحديث ورأى أنّ فيه نصّاً صريحاً على خلافة علي بعد رسول الله (ص) فعمد إلى تغطية هذه النصوص وتبديلها بكذا وكذا وظنّ هذا المسكين بأنّه سوف يحجبُ نور الشمس عندما يُغمضُ هو عينيه ، أو أنه سوف يُقنع القرّاء والمثقفين بقوله : كذا وكذا ، كلّا إنّها كلمة هو قائلها !! .

ومرة يشككون في الرواة الثقاة ، لأنّهم حدّثوا بما لا تهوى أنفسهم ، مثال ذلك طعنهم في يحيى بن يعلى المحاربي ، وهو من الثقاة الذين احتجّ بهم

البخاري ومسلم في الصحاح ، ولكنّ ابن حجر العسقلاني طعن به ووصفه بأنّه واهٍ ، لا لشيء إلّا أنّه روى حديث الموالاة الذي أمر فيه رسول الله (ص) أصحابه بأن يوالوا من بعده عليّاً وأهل البيت ، وهذا الحديث لا يروق لابن حجر وأمثاله الذين يحاولون جهدهم طمس الحقائق التي أنفق معاوية بن أبي سفيان كل ما يملك من الذهب والفضّة في سبيل طمسها فلم يفلح ، فكيف يمكن لابن حجر أن يطمسها بطعنه في الرّواة الثقاة ، وقد كان لمعاوية زيادة على المال ، الحول والطول والسلطة والجاه ومع ذلك فشل فشلاً ذريعاً وطواه الزمان في خبر كان بينما بقي نور الامام علي يشع على مرّ الأيام ، فكيف يتسنّى لابن حجر وأضرابه أن يشكّكوا في حقيقة أهل البيت بمجرد الطعن في الرّواة الأمناء الثقاة ؟؟ فهيهات هيهات أن ينطفىء نور الله بالأفواه ! . . . .

ومرة يخرجون الحديث في الطبعة الأُولى ويحذفونه في الطبعات الأُخرى بدون أي إشارة إلى مبرر الحذف رغم أنّ المطلعين يدركون سبب ذلك !! مثال ذلك ما فعله محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) في الطبعة الأُولى ص 104 قال : عندما نزل قوله سبحانه ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[1] ثم أورد القصّة كما ذكرها المؤرخون وفي أخرها قال رسول الله (ص) « إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم . . !! » ولكنّه حذفها في الطبعة الثانية وما بعدها من الطبعات بدون إشارة ولا تعليق يشيران من قريب أو من بعيد لسبب حذفه هذه الفقرة من حديث الرسول (ص) وإن كان الشيخ محمد جواد مغنية ـ والعُهدة عليه ـ نقل في كتابه (الشيعة في الميزان) هذه الحادثة وقال : أنّ محمد حسين هيكل حذف هذه الفقرة مقابل آلاف الجنيهات ، وبما أنّ هيكل لم يُكذِّب الخبر ولم يعلّل حذفه للفقرة المذكورة ، فقد تبيّن صدق الشيخ محمد جواد مغنية ، واطّلاعه الواسع على مُجريات الأُمور !

على أننا نقول لهؤلاء وأمثالهم الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً : اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً وتذكروا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله

(1) سورة الشعراء : الآية 214 .

ويلعنهم اللاعنون ﴾[1] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً ، أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[2] .

فهل لهؤلاء أن يتوبوا إلى الله ويعترفوا بالحقّ عسى أن يتوب الله عليهم ، قبل فوات الأوان ؟؟؟

وقد تحقق لديّ كل هذا بعد البحث والتمحيص وعندي أدلة قاطعة على ما أقول ، فليتهم إذ يحاولون عبثاً كل هذه المحاولات لتبرير أعمال الصحابة الذين انقلبوا على الأعقاب ، فجاءت أقوالهم متناقضة بعضها مع بعض ومتناقضة مع التاريخ .

ليتهم اتّبعوا الحق ولو كان مرّاً إذاً لأراحوا واستراحوا ، ولكانوا سبباً في جمع شمل هذه الأمة المتمزقة والمتناحرة لا لشيء إلاّ لتأييد أقوالهم أو تفنيدها .

وإذا كان بعض الصحابة الأولين غير ثقاة في نقل الأحاديث النبوية الشريفة فيبطلون منها ما لا يتماشى وأهواءهم وخصوصاً إذا كانت هذه الأحاديث من الوصايا التي أوصى بها رسول الله (ص) عند وفاته ، فقد أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله أوصى عند موته بثلاث :

- أخرجوا المشركين من جزيرة العرب .
- أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم . . . ثم يقول الراوي :

ونسيت الثالثة[3] .

فهل يعقل أنّ الصحابة الحاضرين الذين سمعوا وصايا الرسول الثلاث عند موته ينسون الوصية الثالثة وهم الذين كانوا يحفظون القصائد الشعرية الطويلة

---

(1) سورة البقرة : الآية 159 .
(2) سورة البقرة : الآية 174 .
(3) صحيح البخاري ج 2 ص 178 باب جوائز الوفد من كتاب الجهاد والسير ، صحيح مسلم ج 11 ص 93 كتاب الوصية .

بعد سماعها مرةً واحدة ؟ كلا ولكن السياسة هي التي أجبرتهم على نسيانها وعدم ذكرها ، إنّها مهزلة أخرى من مهازل هؤلاء الصحابة ، ولأنّ الوصية الأولى لرسول الله كانت ـ بلا شك ـ استخلاف علي بن أبي طالب فلم يذكرها الراوي .

مع أنّ الباحث في هذه المسألة يجد رائحة الوصية لعلي تفوح رغم كتمانها وعدم ذكرها فقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الوصايا كما أخرج مسلم أيضاً في صحيحه في كتاب الوصية أنّه ذكر عند عائشة ؛ أن النبي (ص) أوصى إلى علي[1] ، انظر كيف يظهر الله نوره ولو ستره الظالمون .

أعود فأقول إذا كان هؤلاء الصحابة غير ثقاة في نقل وصايا رسول الله (ص) ، فلا لوم بعد ذلك على التابعين وتابعي التابعين .

وإذا كانت عائشة أم المؤمنين لا تطيق ذكر اسم علي ولا تطيب لها نفساً بخير كما ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته[2] ، والبخاري في صحيحه (باب مرض النبي ووفاته) ، وإذا كانت تسجد لله شكراً عندما سمعت بموته ، فكيف يرجى منها ذكر الوصية لعلي ، وهي من عرفت لدى الخاص والعام بعدائها وبغضها لعلي وأولاده ولأهل بيت المصطفى .

فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

* * *

---

(1) صحيح البخاري ج 3 ص 93 باب مرض النبي ووفاته ، صحيح مسلم ج 11 ص 89 من كتاب الوصيّة .

(2) طبقات ابن سعد القسم الثاني من الجزء 2 ص 29 .

مصيبتنا في الإجتهاد مقابل النصوص

استنتجت من خلال البحث أنّ مصيبة الأمة الإسلامية انجرّت عليها من الإجتهاد الذي دأب عليه الصحابة مقابل النصوص الصريحة فاخترقت بذلك حدود الله ومحقت السنة النبوية وأصبح العلماء والأئمة بعد الصحابة يقيسون على اجتهادات الصحابة ويرفضون بعض الأحيان النص النبوي إذا تعارض مع ما فعله أحد الصحابة ، أو حتى النص القرآني ولست مبالغاً وقد قدّمت كيف أنّهم رغم وجود النصّ على التيمم في كتاب الله وسنّة الرسول الثابتة رغم كل ذلك اجتهدوا ، فقالوا بترك الصلاة مع فقد الماء وقد علّل عبد الله بن عمر اجتهاده بالنحو الذي أشرنا إليه في مكان آخر من بحثنا .

ومن أول الصحابة الذين فتحوا هذا الباب على مصراعيه هو الخليفة الثاني الذي استعمل رأيه مقابل النصوص القرآنية بعد وفاة الرسول (ص) فعطّل سهم المؤلّفة قلوبهم الذين فرض الله لهم سهماً من الزكاة وقال : لا حاجة لنا فيكم .

أما اجتهاده في النصوص النبوية فلا يحصى وقد اجتهد في حياة الرسول نفسه وعارضه عدّة مرات .

وقد أشرنا في ما سبق إلى معارضته في صلح الحديبية وفي منع كتابة الكتاب وقوله (حسبنا كتاب الله) وقد وقعت له حادثة أخرى مع رسول الله (ص) ، لعلّها تعطينا صورة أوضح لنفسية عمر الذي أباح لنفسه أن يناقش ويجادل

ويعارض صاحب الرسالة ، تلك هي حادثة التبشير بالجنة إذ بعث رسول الله (ص) أبا هريرة وقال له : « من لقيته يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبه فبشّره بالجنة » فخرج ليبشّر فلقيه عمر ومنعه من ذلك وضربه حتى سقط على أسته ، فرجع أبو هريرة إلى رسول الله (ص) وهو يبكي ، وأخبره بما فعل عمر ، فقال رسول الله (ص) لعمر : « ما حملك على ما فعلت » ؟ قال : هل أنت بعثته ليبشّر بالجنة من قال لا إلّه إلا الله مستيقناً بها قلبه ؟ قال رسول الله (ص) : نعم . قال عمر : لا تفعل ، فإنّي أخشى أن يتّكل الناس على لا إله إلّا الله[1] ! .

وهذا ابنه عبد الله بن عمر يخشى أن يتّكل الناس على التيمم ، فيأمرهم بترك الصلاة ، ويا ليتهم تركوا النصوص كما هي ولم يبدّلوها باجتهاداتهم العقيمة التي تؤدي إلى محو الشريعة ، وانتهاك حرمات الله ، وتشتيت الأمة في متاهات المذاهب المتعددة والآراء المتشعبة والفرق المتناحرة .

ومن مواقف عمر المتعددة تجاه النبي وسنته نفهم بأنّه ما كان يعتقد يوماً بعصمة الرسول بل كان يرى أنّه بشر يخطىء ويصيب .

ومن هنا جاءت الفكرة لعلماء أهل السنّة والجماعة ، بأنّ رسول الله (ص) معصوم في تبليغ القرآن فقط وما عدا ذلك فهو يخطيء كغيره من البشر ، ويستدلّون على ذلك بأنّ عمر صوّب رأيه في العديد من القضايا .

وإذا كان رسول الله (ص) - كما يروي البعض من الجهلة - يقبل مزمارة الشيطان في بيته وهو مستلق على ظهره والنسوة يضربن الدفوف والشيطان يلعب ويمرح إلى جانبه حتى إذا دخل عمر بن الخطاب هرب الشيطان وأسرع النسوّة فخبأن الدفوف تحت استهن وقال رسول الله (ص) لِعمر : « ما رآك الشيطان سالكاً فجّاً حتى سلك فجاً غير فجك »[2] .

فلا غرابة إذاً أن يكون لعمر بن الخطاب رأي في الدين وأن يسمح لنفسه بمعارضة النبي في الأمور السياسية وحتى في الأمور الدينية كما تقدم في تبشير المؤمنين بالجنة .

---

(1) كنز العمال : ج 40231/15 .

(2) سنن الترمذي : ج 5 ص 621 .

ومن فكرة الإجتهاد واستعمال الرأي مقابل النصوص نشأت أو تكونت مجموعة من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب وقد رأيناهم يوم الرزية كيف ساندوا وعضدوا رأي عمر مقابل النصّ الصريح .

ومن ذلك أيضاً نستنتج أنّ هؤلاء لم يقبلوا يوماً نصوص الغدير التي نصب بها النبي (ص) علياً خليفة له على المسلمين ، وتحيّنوا الفرصة السانحة لرفضها عند وفاة النبي فكان اجتماع السقيفة وانتخاب أبي بكر من نتيجة هذا الإجتهاد ، ولما استتب لهم الأمر وتناسى الناس نصوص النبي بشأن الخلافة ، بدأوا يجتهدون في كل شيء حتى استطالوا على كتاب الله فعطّلوا الحدود وأبدلوا الأحكام فكانت مأساة فاطمة الزهراء بعد مأساة زوجها وإبعاده عن منصة الخلافة ، ثم كانت مأساة قتل مانعي الزكاة ، وكل ذلك من الإجتهاد مقابل النصوص ، ثم كانت خلافة عمر بن الخطاب نتيجة حتمية لذلك الإجتهاد إذ أنّ أبا بكر اجتهد برأيه وأسقط الشورى التي كان يستدلّ بها هو نفسه على صحّة خلافته وزاد عمر في الطين بلّة عندما ولي أمور المسلمين فأحلّ ما حرّم الله ورسوله[1] وحرّم ما أحلّ الله ورسوله[2] .

ولما جاء عثمان بعده ذهب شوطاً بعيداً في الإجتهاد فبالغ أكثر ممن سبقوه حتى أثّر اجتهاده في الحياة السياسية والدينية بوجه عام فقامت الثورة ودفع حياته ثمن اجتهاده .

ولمّا ولي الإمام علي أمور المسلمين وجد صعوبة كبيرة في إرجاع الناس إلى السنّة النبوية الشريفة وحظيرة القرآن وحاول جهده أن يزيل البدع التي أدخلت في الدين ولكن بعضهم صاح واسنة عمراه ! وأكاد أعتقد وأجزم بأنّ الذين حاربوا الإمام علياً وخالفوه ، إنّما فعلوا ذلك لأنّه (سلام الله عليه) حملهم على الجادة وأرجعهم إلى النصوص الصحيحة مميتاً بذلك كل البدع والإجتهادات التي

---

(1) كقضية إمضائه الطلاق الثلاث صحيح مسلم باب الطلاق الثلاث سنن أبي داوود ج 1 ص 344 .

(2) كتحريمه متعة الحج ومتعة النساء صحيح مسلم كتاب الحج صحيح البخاري كتاب الحج باب التمتع .

ألصقت بالدين طوال ربع قرن وقد ألفها الناس وخاصة منهم أصحاب الأهواء والأطماع الدنيوية الذين اتّخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً وكدّسوا الذهب والفضة وحرموا المستضعفين من أبسط الحقوق التي شرعها الإسلام .

وقد نجد أن المستكبرين في كل عصر يميلون إلى الإجتهاد ويطبّلون له لأنّه يفسح لهم المجال للوصول إلى مآربهم من كل طريق . أمّا النصوص فتقطع عليهم وجهتهم وتحول بينهم وبين ما يرومون .

ثم أنّ الإجتهاد وجد له أنصاراً في كل عصر ومصر حتى من المستضعفين أنفسهم لما فيه من سهولة التطبيق وعدم الإلتزام .

ولأنّ النّص فيه التزام وعدم حرية وقد يسمّى عند رجال السياسة الحكم الثيوقراطي يعني حكم الله ولأنّ الإجتهاد فيه حرية وعدم إلتزام بالقيود وربما يسمونه الحكم الديمقراطي يعني حكم الشعب فالذين اجتمعوا في السقيفة بعد وفاة النبي (ص) ألغوا الحكومة الثيوقراطية التي أسسها رسول الله على مبدأ النصوص القرآنية ، وأبدلوها بحكومة ديمقراطية يختار الشعب فيها من يراه صالحاً لقيادته ، على أنّ أولئك الصحابة لم يكونوا ليعرفوا كلمة (الديمقراطية) لأنّها ليست عربية ولكنهم يعرفون نظام الشورى[1] .

فالذين لا يقبلون النص على الخلافة - اليوم - هم أنصار (الديمقراطية) ويفتخرون بذلك مدّعين أنّ الإسلام هو أول من ارتأى هذا النظام ، وهم أنصار الإجتهاد والتجديد وهم اليوم أقرب ما يكونون من النظم الغربية ولذلك نسمع اليوم من الحكومات الغربية تمجيداً لهؤلاء وتسميتهم بالمسلمين المتطورين والمتسامحين .

---

(1) رغم أنّه في الواقع لم يحصل حتى هذا النوع من الإنتخاب ، إذ أنّ الذين انتخبوا لا يملكون حق تمثيل الأمة بأي وجه من الوجوه ، علاوة على غياب الكثيرين من وجوه المسلمين الذين لهم حق الإنتخاب فكانت كما جاء في الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين يخاطب أبا بكر :

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم ... فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم ... فغيرك أولى بالنبي وأقرب

أمّا الشيعة أنصار (الثيوقراطية)أو حكومة الله والذين يرفضون الإجتهاد مقابل النصّ ويفرّقون بين حكم الله والشورى ، فالشورى عندهم لا علاقة لها بالنصوص وإنّما الإجتهاد والشورى في ما لا نصّ فيه ، أفلا ترى أنّ الله سبحانه هو الذي اختار رسوله محمداً ومع ذلك قال له : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾[1] .

أمّا في ما يتعلق باختيار القادة الذين يقودون البشرية فقال : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾[2] .

فالشيعة إذ يقولون بخلافة الإمام علي بعد رسول الله إنّما يتمسّكون بالنّص وهم إذ يطعنون في بعض الصحابة إنّما يطعنون في الذين أبدلوا النّص بالإجتهاد فضيعوا بذلك حكم الله ورسوله ، وفتحوا في الإسلام رتقاً لم يلتئم حتى اليوم .

ومن أجل هذا أيضاً نجد الحكومات الغربية ومفكريهم ينبذون الشيعة وَيسمونهم بالتعصب الديني ويُسمّونهم رجعيين لأنّهم يريدون الرجوع إلى القرآن الذي يقطع يد السارق ويرجم الزاني ويأمر بالجهاد في سبيل الله وكل ذلك عندهم عنجهية بربرية .

وفهمت خلال هذا البحث لماذا أغلق بعض علماء أهل السنّة والجماعة باب الإجتهاد منذ فقهاء القرن الثالث للهجرة فربما كان ذلك لما جرّه هذا الإجتهاد على الأمّة من ويلات ومصائب وخطوب وحروب دامية أكلت الأخضر واليابس وقد أبدل الإجتهاد خير أمّة أُخرجت للناس أمّةً متناحرة متقاتلة تسودها الفوضى وتحكم فيها القبلية وتنقلب من الإسلام إلى الجاهلية .

بعكس الشيعة الذين بقي عندهم باب الإجتهاد مفتوحاً ما دامت النصوص قائمة ولا يمكن لأي أحد تبديلها وأعانهم على ذلك وجود الأئمة الإثني عشر الذين ورثوا علم جدّهم فكانوا يقولون ليس هناك مسألة إلاّ ولله حكم فيها وقد بيّنه رسول الله (ص) .

ونفهم أيضاً أنّ أهل السنّة والجماعة لما اقتدوا بالصحابة المجتهدين الذين

---

(1) سورة آل عمران : الآية 159 .

(2) سورة القصص : الآية 68 .

منعوا كتابة السنّة النبوية وجدوا أنفسهم مضطّرين أمام غياب النصوص للإجتهاد بالرأي والقياس والإستصحاب وسدّ باب الذرائع إلى غير ذلك . . .

ونفهم أيضاً من كل ذلك أنّ الشيعة التّفوا حول الإمام علي وهو باب مدينة العلم والذي كان يقول لهم : سلوني عن كل شيء فقد علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لكل باب ألف باب[1] . بينما التفّ غير الشيعة حول معاوية بن أبي سفيان الذي لم يكن يعرف من سنّة النبي إلاّ قليلاً . وأصبح إمام الفئة الباغية أميراً للمؤمنين ، بعد وفاة الإمام علي فعمل في دين الله برأيه أكثر من الذين سبقوه ، وأهل السنّة والجماعة يقولون إنّه كاتب الوحي وإنّه من العلماء المجتهدين ، كيف يحكمون باجتهاده وقد دسّ السمّ للحسن بن علي سيد شباب أهل الجنّة فقتله ؟ ولعلّهم يقولون : هذا أيضاً من اجتهاده فقد اجتهد وأخطأ ! .

كيف يحكمون باجتهاده وقد أخذ البيعة من الأمّة بالقوة والقهر لنفسه ثم لابنه يزيد من بعده وحوّل نظام الشورى إلى الملكية القيصرية .

كيف يحكمون باجتهاده ويعطونه أجراً وقد حمل الناس على لعن علي وأهل البيت ذرية المصطفى من فوق المنابر وأصبحت سنّة متبعة طوال ستين عاماً .

بل كيف يسمّونه (كاتب الوحي) . . . وقد نزل الوحي على رسول الله (ص) طيلة ثلاثة وعشرين عاماً ، كان معاوية مدّة أحد عشر عاماً منها مشركاً بالله . . . ولمّا أسلم بعد الفتح لم نعثر على رواية تقول أنّه سكن المدينة في حين أنّ رسول الله (ص) لم يسكن مكة بعد الفتح . . . فكيف تسنى لمعاوية كتابة الوحي يا ترى ؟! .

فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ! والسؤال يعود دائماً : أي الفريقين على الحق وأيهما على الباطل ، فإمّا أن يكون علي وشيعته ظالمين وعلى غير الحق ، وإمّا أن يكون معاية وأتباعه ظالمين وعلى غير الحق .

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر ج 2 ص 484 ، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ، مقتل الحسين للخوارزمي ج 1 ص 44 ، الغدير للأميني ج 3 ص 120 .

وقد أوضح رسول الله (ص) كل شيء غير أنّ بعض مدّعي أتّباع السنّة يبغونها عوجاً وقد اتّضح لي من خلال البحث ومن خلال الوقوف على الدفاع عن معاوية إنّ المدافعين عنه هم أتباعه وأتباع بني أمية وليسوا كما يدّعون أتباع السنّة النبوية ؛ وخصوصاً إذا تتبعت مواقفهم فهم يكرهون شيعة علي ويحتفلون بيوم عاشوراء عيداً ويدافعون عن الصحابة الذين آذوا رسول الله في حياته وبعد وفاته ويصحّحون أخطاءهم ويبررون أعمالهم .

تُرى ؛ كيف تحبون علياً وأهل البيت وترضون في نفس الوقت على أعدائهم وقاتليهم ؟ كيف تحبّون الله ورسوله وتدافعون عمّن بدّل أحكام الله ورسوله واجتهد وتأوّل برأيه في أحكام الله ؟ .

كيف تحترمون من لم يحترم رسول الله بل يرميه بالهجر ويطعن في إمارته ؟ ! .

كيف تقلدون أئمة نصّبتهم الدولة الأموية أو الدولة العباسية لأمور سياسية وتتركون الأئمة الذين نصّ عليهم رسول الله بعددهم[1] وبأسمائهم[2] . كيف تقلدون من لم يعرف النبي حق معرفته وتتركون باب مدينة العلم ومن كان منه بمنزلة هارونِ من موسى ؟!

* مِن الذي أطلق مصطلح أهل السنّة والجماعة ؟!

لقد بحثت في التاريخ فلم أجد إلاّ أنّهم اتّفقوا على تسمية العام الذي استولى فيه معاوية على الحكم (عام الجماعة) ، وذلك أنّ الأمّة انقسمت بعد مقتل عثمان إلى قسمين : (شيعة علي) و (أتباع معاوية) ولما استشهد الإمام علي واستولى معاوية على الحكم بعد الصلح الذي أبرمه مع الإمام الحسن ، وأصبح معاوية هو أمير المؤمنين ، سُمّيَ ذلك العام بـ (عام الجماعة) ، إذاً فتسمية (أهل السنّة والجماعة) دالّة على اتباع سنّة معاوية والإجتماع عليه ، وليست تعني اتّباع سنّة رسول الله ، فالأئمة من ذرّيته وأهل بيته ، أدرى وأعلم

(1) صحيح البخاري ج 4 ص 164 .

(2) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي .

بسنّة جدّهم من الطلقاء ، وأهل البيت أدرى بما فيه ، وأهل مكة أدرى بشعابها ، ولكننا خالفنا الأئمة الإثني عشر الذين نصّ عليهم رسول الله (ص) واتّبعنا أعداءهم .

ورغم اعترافنا بالحديث الذي ذكر فيه رسول الله اثني عشر خليفة كلّهم من قريش إلاّ أنّنا نتوقف دائماً عند الخلفاء الأربعة ولعلّ معاوية الذي سمّانا (أهل السنّة والجماعة) كان يقصد الإجتماع على السنّة التي سنّها بسبّ علي وأهل البيت والتي استمرّت ستين عاماً ولم يقدر على إزالتها إلاّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقد يحدّثنا بعض المؤرخين أنّ الأمويين تآمروا على قتل عمر بن عبد العزيز وهو منهم لأنّه أمات السنّة وهي لعن علي بن أبي طالب .

يا أهلي وعشيرتي لنتجه ـ على هدى الله تعالى ـ إلى البحث عن الحق وننبذ التعصّب جانباً فنحن ضحايا بني أمية وبني العباس وضحايا التاريخ المظلم وضحايا الجمود الفكري الذي ضربه علينا الأوائل ، إنّنا لا شك ضحايا الدهاء والمكر الذي اشتهر به معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وأضرابهم ؛ ابحثوا في واقع تاريخنا الإسلامي لتبلغوا الحقائق الناصعة وسيؤتيكم الله أجركم مرّتين فعسى أن يجمع الله بكم شمل هذه الأمة التي نكبت بعد موت نبيّها وتمزّقت إلى ثلاث وسبعين فرقة ، هلّموا لتوحيدها تحت راية لا إله إلاّ الله محمد رسول الله والإقتداء بأهل البيت النبوي الذين أمرنا رسول الله (ص) باتّباعهم فقال : « لا تتقدّموهم فتهلكوا ، ولا تتخلّفوا عنهم فتهلكوا ، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم »[1] .

لو فعلنا ذلك ، لرفع الله مقته وغضبه عنّا ، ولأبدلنا من بعد خوفنا أمناً ، ولمكننا في الأرض واستخلفنا فيها ، ولأظهر لنا وليه الإمام المهدي (ع) الذي وعدنا به رسول الله ليملأ أرضنا قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً وليتم به الله نوره في كل المعمورة .

---

(1) الدر المنثور للسيوطي ج 2 ص 60 ، أسد الغابة ج 3 ص 137 ، الصواعق المحرقة لابن حجر ص 148 و226 ، ينابيع المودة ج 1 ص 35 ، كنز العمال ج 33845/12 ، مجمع الزوائد ج 9 ص 163 .

دعوة أصدقاء للبحث

كان التحوّل بداية السّعادة الرّوحية ، إذ أحسست براحة الضّمير وانشرح صدري للمذهب الحق الذي اكتشفته ، أو قل للاسلام الحقيقي الذي لا شك فيه ؛ وغمرتني فرحة كبيرة واعتزاز بما أنعم الله عليّ من هداية ورشاد .

ولم يسعني السّكوت والتكتم على ما يختلج في صدري وقلت في نفسي : لا بدّ لي من إفشاء هذه الحقيقة على الناس ﴿ وأمّا بنعمة ربّك فحدث ﴾[1] وهي من أكبر النعم أو هي النّعمة الكبرى في الدنيا وفي الآخرة ، و (الساكت عن الحق شيطان أخرس) (وليس بعد الحق إلّا الضلال) .

والذي زاد شعوري يقيناً بوجوب نشر هذه الحقيقة هو براءة أهل السّنة والجماعة الذين يحبّون رسول الله (ص) وأهل بيته ويكفي أن يزول الغشاء الذي نسجه التاريخ حتى يتبعوا الحقّ وهذا ما وقع لي شخصياً .

قال تعالى : ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾[2] .

ودعوت أربعة أصدقاء من الأساتذة العاملين معي في المعهد ، كان اثنان منهم يُدَرّسان التربية الدينيّة ، والثالث يدرّس مادّة العربية ، والرابع كان أستاذ الفلسفة الإسلامية . لم يكن أربعتهم من قفصة بل كانوا من تونس ومن جمّال

---

(1) سورة الضحى : الاية 11 .

(2) سورة النساء : الآية 94 .

وسوسة ، دعوتهم إلى البحث معي في هذا الموضوع الخطير ، وأشعرتهم بأنّي قاصر عن إدراك بعض المعاني وقد اضطربت وتشككت في بعض الأمور ، وقبلوا المجيء إلى بيتي بعد إنهاء العمل ، وتركتهم يقرؤون كتاب (المراجعات) على أنّ مؤلّفه يدّعي أشياء عجيبة وغريبة في الدّين ، وقد استهوى الكتاب ثلاثة منهم أمّا الرابع الذي يدرّس اللغة العربية فقد قاطعنا بعد أربع جلسات أو خمس قائلاً : إنّ الغرب الآن يغزو القمر وأنتم ما زلتم تبحثون عن الخلافة الاسلامية .

وما أن أتممنا الكتاب خلال شهر واحد حتّى استبصر ثلاثتهم وقد أعنتهم كثيراً للوصول إلى الحقيقة من أقرب الطّرق بما تكوّن عندي من سعة الاطّلاع خلال سنوات البحث وذقت حلاوة الهداية واستبشرت بالمستقبل وأخذت أدعو في كل مرّة بعض الأصدقاء من قفصة والذين كانت تربطني بهم حلقات الدرس في المسجد أو العلاقات المنجرّة من الطرق الصوفية وبعض تلاميذي الذين كانوا يلازمونني وما مرّت سنة واحدة حتّى أصبحنا بحمد الله عدداً كبيراً نوالي أهل البيت ، نوالي من والاهم ونعادي من عاداهم ، نفرح في أعيادهم ونحزن في عاشوراء ونعقد مجالس تعزية .

وكانت أولى رسائلي التي تحمل خبر استبصاري إلى السيد الخوئي والسيد محمد باقر الصدر بمناسبة عيد الغدير إذ احتفلنا به أوّل مرّة في قفصة ، وقد اشتهر أمري لدى الخاصّ والعامّ بأنّي تشيّعت وأنّي أدعو إلى التشيّع لآل بيت الرسول (ص) ، وبدأت الاتّهامات والاشاعات تروج في البلاد ، على أنّني جاسوس لاسرائيل أعمل على تشكيك الناس في دينهم ، وبأنّني أسبّ الصحابة ، وبأنّني صاحب فتنة إلى غير ذلك .

وفي تونس العاصمة اتّصلت بالصديقين راشد الغنّوشي وعبد الفتّاح مورو وكانت معارضتهما لي عنيفة جدّاً وفي حديث دار بيننا في بيت عبد الفتّاح ، قلت يجب علينا كمسلمين مراجعة كتبنا ومراجعة تاريخنا وضربت لذلك مثلاً (صحيح البخاري) الذي فيه أشياء لا يقبلها عقل ولا دين .

وثارت ثائرتهما قائلين لي : من أنت حتى تنتقد البخاري ؟ وبذلت كل

جهدي من أجل إقناعهما بالدخول في البحث العلمي الموضوعي فرفضا ذلك .

ازدادت على أثره حملة الاشاعات ضدّنا من قبل البعض ، وبثوا في أوساطهم إشاعات غريبة بغية إبعاد الناس عني وإحاطتي بطوق من العزلة - سامحهم الله تعالى - .

وبدأت العزلة من بعض الشبّان ومن الشيوخ الذين يتّبعون الطرق الصوفية وعشنا فترات قاسية غرباء في ديارنا وبين إخواننا وعشيرتنا ، ولكنّ الله سبحانه أبدلنا خيراً منهم ، فكان بعض الشبّان يأتون من مدن أخرى يسألون عن الحقيقة فكنت أبذل قصارى ما في وسعي لاقناعهم بحقيقة منهج أهل البيت (ع) وبالواقع التاريخي فاستبصر عدد من الشبّان في العاصمة ، وفي القيروان وفي سوسة وسيدي بوزيد ، وكنت خلال رحلتي الصيفية إلى العراق مررت بأوروبا حيث التقيت بعض الأصدقاء في فرنسا وفي هولندا وتحدّثت معهم في الموضوع فاستبصروا والحمد لله .

وكم كانت فرحتي عظيمة عندما قابلت السيد محمد باقر الصدر في النجف الأشرف ، وكان في بيته نخبة من العلماء ، وأخذ السيد يقدّمني إليهم بأنّي بذرة التشيّع لآل بيت النبي (ص) في تونس ، كما أعلمهم بأنّه بكى تأثراً عندما وصلته رسالتي مهنّئة تحمل إليه بشرى احتفالنا أول مرة بعيد الغدير السعيد وشكوت إليه ما نلاقيه من مقاومة ومن بثّ الاشاعات ضدّنا والعزلة التي نواجهها .

وقال السيد في معرض كلامه : لا بدّ من تحمّل المشاق لأن طريق أهل البيت صعب وعسر ، وقد جاء رجل إلى النبي (ص) فقال له : إني أحبّك يا رسول الله (ص) ! فقال له : أبشر بكثرة الابتلاء ، فقال : وأحبّ ابن عمّك علياً ! فقال : أبشر بكثرة الأعداء . فقال : وأحب الحسن والحسين ! فقال له : فاستعدّ للفقر وكثرة البلاء . وماذا قدّمنا نحن في سبيل دعوة الحقّ التي دفع ثمنها أبو عبد الله الحسين (ع) بنفسه وأهله وذرّيته وأصحابه ، كما دفع ثمنها الشيعة على مرّ التاريخ وما زالوا حتّى اليوم يدفعون ثمن ولائهم لأهل البيت ، فلا بدّ يا أخي من تحمّل بعض الأتعاب والتضحية في سبيل الحقّ ،

فلئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها .

كما نصحني السيد الصدر بعدم الانزواء ، وأمرني بأن أتقرّب أكثر من إخواني أهل السنّة كلّما حاولوا الابتعاد عنّي ، وأمرني أن أصلّي خلفهم حتى لا تكون القطيعة ، وأن أعتبرهم أبرياء فهم ضحايا الاعلام والتاريخ المزيّف ، والناس أعداء ما جهلوا .

وقد نصحني السيد الخوئي بالشيء نفسه تقريباً ، كما كان السيد محمد علي الطباطبائي الحكيم يبعث لنا دائماً بنصائحه في رسائل متعدّدة كان لها أثر كبير في سيرة الأخوة المستبصرين على المدى .

هذا وقد تعدّدت زياراتي للنجف الأشرف ولعلماء النجف في مناسبات كثيرة ، ثم آليت على نفسي أن أقضي العطلة الصيفية من كل عام في رحاب الامام علي أحضر دروس السيد محمد باقر الصدر التي استفدت منها كثيراً ، ونفعتني أيّما نفع ، كما آليت على نفسي أن أزور مقامات الأئمة الاثني عشر وقد حقّق الله أمنيتي بأن وفّقني حتى لزيارة الامام الرضا الذي يوجد مرقده في مشهد وهي مدينة قرب الحدود الروسية في إيران وهناك تعرّفت على أبرز العلماء واستفدت منهم كثيراً .

كما أعطاني السيد الخوئي الذي كنّا نقلّده وكالة للتصرّف في الخمس والزكاة وإفادة المجموعة المستبصرة عندنا بما تحتاجه من كتب وإعانات وغير ذلك ، وقد كوّنت مكتبة مفيدة بها أهمّ المصادر التي تخصّ البحث وتجمع كتب الفريقين وتحمل اسم مكتبة أهل البيت (عليهم السلام) وقد أفادت الكثيرين والحمد لله .

وزاد الله فرحتنا فرحتين وسعادتنا سعادتين فقبل حوالي خمسة عشر عاماً سخّر لنا الله الكاتبَ العام لبلدية قفصة فوافق على تسمية الشارع الذي أسكن فيه باسم شارع الامام علي بن أبي طالب (ع) ، فلا يفوتني هنا أن أشكر له هذه اللفتة المشرّفة ، فهو من المسلمين العاملين وله ميل كبير ومحبّة فائقة لشخص الامام علي وقد أهديته كتاب (المراجعات) ، وهو يبادل مجموعتنا حبّاً وتقديراً واحتراماً فجزاه الله خيراً وأعطاه ما يتمنّى .

وقد عمل بعض الحاقدين على إزالة اللّوحة وأعيتهم الحيل وشاء الله تثبيتها وأصبحت الرّسائل ترد علينا من كل أنحاء العالم وعليها اسم شارع الامام علي بن أبي طالب (ع) ؛ الذي بارك اسمه الشريف مدينتنا الطيبة العريقة .

وعملاً بنصائح الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) وكذلك بنصائح علماء النجف الأشرف عمدنا إلى التقرّب من إخواننا من المذاهب الأخرى ولازمنا الجماعة فكنّا نصلّي معاً ، وخفّت بذلك حدّة التوتر وتمكّنا من إقناع بعض الشبّان من خلال تساؤلاتهم عن كيفية صلاتنا ووضوئنا وعقائدنا .

* * *

هدى الحق

في أحدى قرى الجنوب التونسي وخلال حفل زفاف كانت النساء يتحدّثن عن فلانة زوجة فلان ، واستغربت العجوز الكبيرة التي كانت تجلس وسطهن وتسمع حديثهنّ أن تكون فلانة قد تزوجت فلاناً ولمّا سألنها عن سبب استغرابها أخبرتهن أنّها أرضعت الاثنين فهما أَخَوانِ من الرضاعة ، ونقل النسّوة هذا النبأ العظيم إلى أزواجهن وتثبّت الرجال فشهد والد المرأة بأنّ ابنته أرضعتها تلك العجوز المعروفة لدى الجميع بأنّها مرضعة كما شهد والد الزوج بأنّ ابنه أرضعته نفس المرضعة ، وقامت قيامة العشيرتين وتقاتلوا بالعصي كلّ منهما تتّهم الأخرى بأنّها سبب الكارثة التي سوف تجرّهم إلى سخط الله وعقابه ؛ وخصوصاً لأنّ هذا الزواج مرّ عليه عشرة أعوام أنجبت المرأة خلالها ثلاثة أطفال ، وقد هربت الزوجة عند سماعها الخبر إلى بيت أبيها وامتنعت عن الأكل والشرب وأرادت الانتحار لأنّها لم تتحمّل الصدمة ، وكيف أنها تزوجت من أخيها وولدت منه وهي لا تعلم ، وسقط عدد من الجرحى من العشيرتين وتدخّل أحد الشيوخ الكبار وأوقف المعارك ونصحهم بأن يطوفوا على العلماء ليستفتوهم في هذه القضيّة عسى أن يجدوا حلاً .

فصاروا يتجوّلون في المدن الكبرى المجاورة يسألون علماءها عن حلّ لقضيّتهم ، وكلّما اتّصلوا بعالم وأطلعوه على الأمر أخبرهم بحرمة الزواج وضرورة تفريق الزوجين إلى الأبد وتحرير رقبة أو صيام شهرين إلى غير ذلك من الفتاوى .

ووصلوا إلى قفصة وسألوا علماءها فكان الجواب نفسه ، لأنّ المالكية كلهم يحرّمون الرضاعة ولو من قطرة واحدة اقتداء بالامام مالك الذي قاس الحليب على الخمر إذ أنّ (ما أسكر كثيره فقليله حرام) ، فتحرم الرضاعة ولو من قطرة واحدة من الحليب ، والذي وقع أن أحد الحاضرين اختلى بهم ودلّهم على بيتي قائلاً لهم : اسألوا التيجاني في مثل هذه القضايا فإنّه يعرف كل المذاهب ، وقد رأيته يجادل هؤلاء العلماء عدّة مرّات فيبزّهم بالحجّة البالغة .

هذا ما نقله إليّ زوج المرأة حرفيّاً عندما أدخلته إلى المكتبة وحكى لي كل القضيّة بالتفصيل من أوّلها إلى آخرها وقال : يا سيدي إنّ زوجتي تريد الانتحار وأولادي مهملون ، ونحن لا نعرف حلاً لهذه المشكلة ، وقد دلّونا عليك وقد استبشرت خيراً لمّا رأيت عندك هذه الكتب التي لم أشهد في حياتي مثلها فعسى أن يكون الحلّ عندك .

أحضرت له قهوة وفكرت قليلاً ثم سألته عن عدد الرضعات التي رضعها هو من المرأة فقال : لا أدري غير أنّ زوجتي رضعت منها مرّتين أو ثلاثاً وقد شهد أبوها بأنّه حملها مرّتين أو ثلاث مرّات إلى تلك العجوز المرضعة ، فقلت إذا كان هذا صحيحاً فليس عليكما شيء والزواج صحيح وحلال محلّل ، وارتمى المسكين عليّ يقبّل رأسي ويديّ ويقول : بشّرك الله بالخير لقد فتحت أبواب السكينة أمامي ، ونهض مسرعاً ولم يكمل قهوته ولا استفسر منّي ولا طلب الدّليل غير أنّه استأذن للخروج حتى يسرع فيبشّر زوجته وأولاده وأهله وعشيرته .

ولكنه رجع في اليوم التالي ومعه سبعة رجال ، وقدّمهم إليّ قائلاً : هذا والدي وهذا والد زوجتي ، والثالث هو عمدة القرية ، والرابع إمام الجمعة والجماعة ، والخامس هو المرشد الدّيني ، والسادس شيخ العشيرة ، والسابع هو مدير المدرسة ، وقد جاؤوا يستفسرون عن قضية الرضاعة وبماذا حلّلتها ؟

وأدخلت الجميع إلى المكتبة وكنت أتوقّع جدالهم وأحضرت لهم القهوة ورحّبت بهم : قالوا إنّما جئناك نناقشك في تحليلك الرّضاعة وقد حرّمها الله في القرآن ، وحرّمها رسوله بقوله : يحرم بالرضاعة ما يحرم بالنّسب » وكذلك حرّمها الامام مالك .

قلت : يا سادتي أنتم ما شاء الله ثمانية وأنا واحد فإذا تكلّمت مع الجميع فسوف لن أقنعكم وتضيع المناقشة في الهامشيات ، وإنّما اقترح عليكم اختيار أحدكم حتّى أتناقش معه وأنتم تكونون حكماً بيني وبينه ! .

وأعجبتهم الفكرة واستحسنوها ، وسلّموا أمرهم إلى المرشد الديني قائلين إنّه أعلمهم وأقدرهم ، وبدأ السيد يسألني كيف أحلّل ما حرّم الله ورسوله والأئمة ؟ ! .

قلت : أعوذ بالله أن أفعل ذلك ! ولكنّ الله حرّم الرضاعة بآية مجملة ولم يبيّن تفصيل ذلك ، وإنّما أوكل ذلك إلى رسوله فأوضح مقصود الآية بالكيف والكم .

قال : فإنّ الامام مالك يحرّم الرّضاعة من قطرة واحدة .

قلت : أعرف ذلك ، ولكنّ الامام مالك ليس حجّة على المسلمين ، وإلاّ فما هو قولك بالأئمة الآخرين ؟

أجاب : رضي الله عنهم وأرضاهم فكلّهم من رسول الله ملتمس .

قلت : فما هي إذن حجّتك عند الله في تقليدك الامام مالك الذي يخالف رأيه نصّ الرسول (ص) ؟

قال محتاراً : سبحان الله أنا لاأعلم أنّ الامام مالكاً إمام دار الهجرة يخالف النصوص النبويّة ، وتحيّر الحاضرون من هذا القول ، واستغربوا منّي هذه الجرأة على الامام مالك والتي لم يعهدوها من قبل في غيري ، واستدركت قائلاً : هل كان الامام مالك من الصحابة ؟ قال : لا ، قلت : هل كان من التابعين ؟ قال : لا ، وإنّما هو من تابعي التابعين .

قلت : فأيّهما أقرب هو أم الامام علي بن أبي طالب ؟

قال : الامام علي أقرب فهو من الخلفاء الرّاشدين ، وتكلّم أحد الحاضرين قائلاً : سيدنا علي كرّم الله وجهه هو باب مدينة العلم .

فقلت : فلماذا تركتم باب مدينة العلم واتّبعتم رجلاً ليس من الصحابة ولا

من التابعين وإنّما ولد بعد الفتنة ، وبعدما أبيحت مدينة رسول الله لجيش يزيد وفعلوا فيها ما فعلوا وقتلوا خيار الصحابة وانتهكوا فيها المحارم ، وغيّروا سنّة الرّسول ببدع ابتدعوها ؟ فكيف يطمئنَ الانسان بعد ذلك إلى هؤلاء الأئمّة الذين رضيت عنهم السلطة الحاكمة لأنّهم أفتوها بما يلائم أهواءهم .

وتكلّم أحدهم وقال : سمعنا أنّك شيعي تعبد الامام علياً ، فلكزه صاحبه الذي كان بجانبه لكزة أوجعته وقال له : أسكت أمّا تستحي أن تقول مثل هذا القول لرجل فاضل مثل هذا ، وقد عرفت العلماء وحتّى الآن لم تر عيني مكتبة مثل هذه المكتبة ، وهذا الرجل يتكلّم عن معرفة ووثوق بما يقول ! .

أجبته قائلاً : أنا شيعي هذا صحيح ، ولكنّ الشيعة لا يعبدون علياً ، وإنّما عوض أن يقلّدوا الامام مالكاً فهم يقلّدون الامام علياً ؛ لأنّه باب مدينة العلم حسب شهادتكم ، قال المرشد الديني : وهل حلّل الامام علي زواج الرضيعين ؟

قلت : لا ، ولكّنه يحرّم ذلك إذا بلغت الرضاعة خمس عشرة رضعة مشبعات ومتواليات ، أو ما أنبت لحماً وعظماً .

وتهلّل وجه والد الزوجة وقال : الحمد لله فابنتي لم ترضع إلاّ مرتين أو ثلاث مرّات فقط ، وإنّ في قول الامام علي هذا مخرجاً لنا من هذه الورطة ورحمة لنا من الله بعد أن يئسنا .

فقال المرشد : أعطنا الدّليل على هذا القول حتّى نقتنع ، فأعطيتهم كتاب (منهاج الصالحين) للسيد الخوئي ، وقرأ هو بنفسه عليهم باب الرضاعة ، وفرحوا بذلك فرحاً عظيماً وخصوصاً الزوج الذي كان خائفاً أن لا يكون لديّ الدليل المقنع . وطلبوا منّي إعارتهم الكتاب حتّى يحتجّوا به في قريتهم فسلّمته إليهم وخرجوا مودّعين داعين معتذرين .

وبمجرّد خروجهم من بيتي التقى بهم أحد المناوئين وحملهم إلى بعض علماء السّوء فخوّفوهم وحذّروهم بأنّي عميل لإسرائيل وأنّ كتاب (منهاج الصالحين) الذي أعطيتهم إيّاه كلّه ضلالة وأنّ أهل العراق هم أهل الكفر والنّفاق وأنّ الشيعة مجوس يبيحون نكاح الأخوات ، فلا غرابة إذن في إباحتي لهم نكاح

الأخت من الرضاعة إلى غير ذلك من التّهم والأراجيف وما زال بهم يحذّرهم حتّى ارتدّوا على أعقابهم وانقلبوا بعد اقتناعهم ، وأجبروا الزوج على أن يتقدم بدعوى عدلية للطلاق لدى المحكمة الإبتدائية في قفصة وطلب منهم رئيس المحكمة أن يذهبوا إلى العاصمة ويتّصلوا بمفتي الجمهورية ليحلّ هذا الإشكال . وسافر الزوج وبقي هناك شهراً كاملاً حتّى تمكن من مقابلته وقصّ عليه قصّته من أولها إلى آخرها وسأله مفتي الجمهورية عن العلماء الذين قالوا بحلّية الزواج وصحّته ، فأجاب الزوج : بأنّه ليس هناك من قال بحلّيته غير شخص واحد هو التيجاني السماوي . وسجّل المفتي إسمي وقال للزوج : إرجع أنت وسوف أبعث أنا برسالة إلى رئيس المحكمة في قفصة ، وبالفعل جاءت الرسالة من مفتي الجمهورية واطّلع عليها وكيل الزوج وأعلمه بأنّ مفتي الجمهورية حرّم ذلك الزواج .

هذا ما قصّه عليّ زوج المرأة الذي بدا عليه الضعف والإرهاق من كثرة التعب وهو يعتذر إليّ ممّا سبّبه لي من إزعاج وحرج ، فشكرته على عواطفه متعجّباً كيف يُبطل مفتي الجمهورية الزواج القائم في مثل هذه القضية ، وطلبت منه أن يأتيني برسالته التي بعثها إلى المحكمة حتى أنشرها في الصحف التونسية وأبيّن أنّ مفتي الجمهورية يجهل المذاهب الإسلامية ولا يعرف اختلافهم الفقهي في مسألة الرضاعة .

فقال الزوج : أنّه لا يمكنه أن يطّلع على ملفّ قضيته فضلاً عن أن يأتيني برسالة منه ، وافترقنا .

وبعد بضعة أيام جاءتني دعوة من رئيس المحكمة يأمرني فيها بإحضار الكتاب والأدلّة على عدم بطلان ذلك الزواج بين (الرضعين) ! وذهبت محمّلاً بعدّة مصادر انتقيتها مسبّقاً ووضعت في كلّ منها بطاقة في باب الرضاعة ليسهل تخريجه في لحظة واحدة ، وذهبت في اليوم والساعة المذكورين ، واستقبلني كاتب المحكمة وأدخلني إلى مكتب الرّئيس ، وفوجئت برئيس المحكمة الإبتدائية ، ورئيس محكمة الناحية ، ووكيل الجمهورية ومعهم ثلاثة أعضاء وكلهم يرتدون لباسهم الخاص للقضاء وكأنّهم في جلسة رسمية ، ولاحظت أيضاً أنّ زوج المرأة

يجلس في آخر القاعة قبالهم ، وسلّمت على الجميع ، فكـانوا كلّهم ينـظرون إليّ باشمئزاز واحتقار ، ولمّا جلست خاطبني الرئيس بلهجة خشنة قائلاً :

ـ أنت هو التيجاني السماوي ؟ قلت : نعم .

ـ قال : أنت الذي أفتيت بصحّة الزواج في هذه القضية ؟ .

ـ قلت : لا لست أنا بمفتٍ ، ولكنّ الأئمة وعلماء المسلمين هم الذين أفتـوا بحلّيته وصحّته ! .

ـ قـال : ومن أجل ذلـك دعونـاك ، وأنت الآن في قفص الإتّهام ، فـإذا لم تثبت دعواك بالدّليل فسوف نحكم بسجنك ، وسـوف لن تخرج من هنـا إلاّ إلى السّجن .

وعـرفت وقتهـا أنّني بـالفعـل في قفص الإتّهـام ، لا لأنّني أفتيت في هـذه القضية ، ولكن لأنّ بعض علماء السّوء حدّث هؤلاء الحكّام بـأنّني صاحب فتنـة وأنّني أسبّ الصحـابـة وأبثّ التشيّـع لآل البيت النبـوي ، وقـد قـال لـه رئيس المحكمة : إذا أتيتني بشاهدين ضدّه فسألقيه في السجن .

أضف إلى ذلـك أنّ جمـاعـة من الإخـوان المسلمـين استغلّوا هـذه الفتـوى وروّجوا لدى الخاص والعام ؛ أنّني أبيح نكاح الأخوات ، وهو قول الشيعة عـلى زعمهم ! .

كل ذلك عرفته من قبل وتيقّنته عندما هدّدني رئيس المحكمة بالسجن ، فلم يبق أمامي إلاّ التحدّي والدفاع عن نفسي بكل شجاعة فقلت للرئيس :

ـ هل لي أن أتكلّم بصراحة وبدون خوف ، قال :

ـ نعم تكلّم فأنت ليس لك محام . . . قلت :

ـ قبل كل شيء أنا لم أنصّب نفسي للإفتاء . ولكـن هاهو زوج المرأة أمـامكم فاسألوه ، فهو الذي جاءني إلى بيتي يـطرق بابي ويسـألني ، فكان واجبـاً عليّ أن أجيبه بما أعلم ، وقد سألته بدوري عن عدد الرضعات ، ولمّا أعلمني بأنّ زوجته لم ترضع غير مرّتين أعطيته وقتها حكم الإسلام فيها ، فلست أنـا من المجتهدين ولا من المشرّعين .

قال الرئيس : عجباً ، أنت الآن تدّعي أنّك تعرف الإسلام ونحن نجهله !
قلت : أستغفر الله أنا لم أقصد هذا ، ولكن كل الناس هنا يعرفون مذهب الإمام مالك ويتوقّفون عنده ، وأنا فتّشت في كلّ المذاهب ووجدت حلاًّ لهذه القضية .

قال الرئيس : أين وجدت الحلّ ؟ قلت :
ـ قبل كل شيء هل لي أن أسألكم سؤالاً يا سيدي الرئيس ؟ .
ـ قال : إسأل ما تريد .
ـ قلت : ما قولكم في المذاهب الإسلامية ؟ .
ـ قال : كلّها صحيحة ، فكلّهم من رسول الله ملتمس ، وفي اختلافهم رحمة .
ـ قلت : فارحموا إذن هذا المسكين « مشيراً إلى زوج المرأة » الذي قضى الآن أكثر من شهرين وهو مفارق لزوجه وولده بينما هناك من المذاهب الإسلامية من حلّ مشكلته .

فقال الرئيس مغضباً :
ـ هات الدّليل وكفاك تهريجاً ، نحن سمحنا لك بالدفاع عن نفسك فأصبحت محامياً لغيرك .

فأخرجت له من حقيبتي كتاب (منهاج الصالحين) للسيد الخوئي وقلت : هذا مذهب أهل البيت وفيه الدّليل ، فقاطعني قائلاً : دعنا من مذهب أهل البيت فنحن لا نعرفه ولا نؤمن به .

كنت متوقعاً هذا ولذلك أحضرت معي بعد البحث والتنقيب عدّة مصادر لأهل السنّة والجماعة كنت رتّبتها حسب علمي فوضعت (البخاري) في المرتبة الأولى ثم (صحيح مسلم) وبعده كتاب (الفتاوى) لمحمود شلتوت وكتاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) لابن رشد ، وكتاب (زاد المسير في علم التفسير) لابن الجوزي وعدّة مصادر أخرى من كتب (أهل السنّة) ، ولمّا رفض الرئيس أن ينظر في كتاب السيد الخوئي سألته عن الكتب التي يثق بها ، قال : البخاري ومسلم .

وأخرجت صحيح البخاري وفتحته على الصفحة المعينة وقلت : تفضّل يا سيدي إقرأ .

ـ قال : إقرأ أنت ؟ وقرأت : حدّثنا فلان عن فلان عن عائشة أم المؤمنين قالت : توفيّ رسول الله (ص) ولم يحرّم من الرضعات إلاّ خمساً فما فوق .

وأخذ الرئيس منّي الكتاب وقرأ بنفسه وأعطاه إلى وكيل الجمهورية بجانبه فقرأ هو الآخر وناوله لمن بعده في حين أخرجت صحيح مسلم وأطلعته على نفس الأحاديث ثم فتحت كتاب الفتاوى لشيخ الأزهر شلتوت وقد ذكر هو الآخر اختلافات الأئمة في مسألة الرضاعة ، فمنهم من ذهب إلى القول بأنّ المحرّم ما بلغ خمس عشرة رضعة ومنهم من قال بسبعة ومنهم من حرّم فوق الخمسة عدا مالك الذي خالف النصّ وحرّم من قطرة واحدة ثم قال شلتوت : وأنا اميل إلى أوسط الآراء فأقول سبعاً فما فوق ، وبعد ما اطّلع رئيس المحكمة على كل ذلك قال : يكفي . ثم التفت إلى زوج المرأة وقال له : إذهب الآن وأئتني بوالد زوجتك ليشهد أمامي بأنّها رضعت مرتين أو ثلاثاً وسوف تأخذ زوجتك معك هذا اليوم . . .

وطار المسكين فرحاً ، واعتذر وكيل الجمهورية وبقية الأعضاء الحاضرين للإلتحاق بأعمالهم وأذن لهم الرئيس ، ولمّا خلاّ بنا المجلس التفت إليّ معتذراً وقال : سامحني يا أستاذ ، لقد غلّطوني فيك وقالوا فيك أشياءً غريبة وأنا الآن عرفت أنّهم حاسدون ومغرضون يريدون بك شرّاً .

وطار قلبي فرحاً بهذا التحوّل السّريع وقلت : الحمد لله الذي جعل نصري على يديك يا سيدي الرّئيس ، فقال : سمعت بأنّ عندك مكتبة عظيمة فهل يوجد فيها كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري ؟ .

قلت : نعم ، فقال : هل تعيرني إيّاه ، فقد مضى عامان وأنا أبحث عنه : قلت : هو لك يا سيدي متى أردت ، قال : هل عندك وقت يسمح لك بالمجيء إلى مكتبتي لنتحدث وأستفيد منك .

قلت : أستغفر الله فأنا الذي أستفيد منك . فأنت أكبر مني سنّاً وقدراً ،

وعندي أربعة أيام راحة في الأسبوع وأنا رهن إشارتك .

واتّفقنا على يوم السبت من كل أسبوع لأنّه ليس له جلسات للمحكمة في ذلك اليوم .

وبعدما طلب منّي أن أترك له كتابي (البخاري) و (مسلم) وكتاب (الفتاوى) لمحمود شلتوت لكي يحرّر منها النّص ، قام بنفسه وأخرجني من مكتبه مودّعاً .

وخرجت فرحاً أحمد الله سبحانه على هذا النّصر وقد دخلت خائفاً مهدّداً بالسجن وخرجت وقد انقلب رئيس المحكمة إلى صديق حميم يحترمني ويطلب منّي مجالسته ليستفيد منّي . إنّها بركات طريق أهل البيت الذين لا يخيب من تمسّك بهم ويأمن من لجأ إليهم .

وتحدّث زوج المرأة في قريته وشاع الخبر في كلّ القرى المجاورة بعدما رجعت المرأة إلى بيت زوجها وانتهت القضية بحلّية الزواج ، فأصبح الناس يقولون : بأنّي أعلم من الجميع وأعلم حتى من مفتي الجمهورية .

وقد جاء زوج المرأة إلى البيت ومعه سيارة كبيرة ودعاني إلى القرية أنا وكل عائلتي وأعلمني أنّ كل الأهالي ينتظرون قدومي وسيذبحون ثلاثة عجول لإقامة الفرح ، واعتذرت إليه بسبب انشغالي في قفصة وقلت له : سوف أزوركم مرّة أخرى إن شاء الله .

وتحدّث رئيس المحكمة إلى أصدقائه واشتهرت القضية ، ورد الله كيد الكائدين ، وجاء بعضهم معتذرين وقد فتح الله بصيرة البعض منهم فاستبصروا وأصبحوا من المخلصين ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

« مصادر التحقيق »

ـ أ ـ

القرآن الكريم

١ ـ الإستيعاب في معرفة الصحابة لابن عبد ربه .

٢ ـ أسد الغابة لابن الأثير ، من منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٣ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، من منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت .

٤ ـ أعلام النساء .

٥ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، من منشورات دار الأضواء ، بيروت ، ١٤١٠ هـ .

ـ ب ـ

1 ـ البداية والنهاية لابن الأثير ، من منشورات مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1402 هـ .

ـ ت ـ

1 ـ تاريخ ابن الشحنة .

2 ـ تاريخ أبي الفداء (كتاب المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء ، من منشورات دار الفكر ودار النجار ، بيروت .

3 ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، من منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت .
4 ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ، من منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
5 ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ، من منشورات دار الثقافة ، بيروت .
6 ـ تاريخ الطبري ، من منشورات دار سويدان ، بيروت .
7 ـ تاريخ اليعقوبي لأحمد بن أبي يعقوب الكاتب العباسي .
8 ـ تذكرة الخواص للسبط ابن الجوزي ، من منشورات مؤسسة أهل البيت (ع) ، بيروت ، 1401 هـ .
9 ـ تفسير ابن كثير ، من منشورات دار إحياء الكتب العربية ، العيني البابي الحلبي وشركاؤه .
10 ـ تفسير التبيان للشيخ أبي جعفر الطوسي ، من منشورات مكتبة الأمين ، النجف .
11 ـ تفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ، من منشورات مكتبة المرعشي النجفي ، قم .
12 ـ تفسير الخازن لعلاء الدين الشافعي ، من منشورات دار المعرفة ، بيروت .
13 ـ تفسير الفخر الرازي ، من منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
14 ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .

- ج -

1 ـ جامع الأصول لابن كثير ، من منشورات مكتبة الحلواني ، مطبعة الملاح ، مكتبة دار البيان .
2 ـ الجامع الصغير للسيوطي ، من منشورات دار الفكر ، بيروت .
3 ـ الجامع الكبير للطبراني .

- ح -

1 ـ الحاوي للفتاوي للسيوطي .

2 ـ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني .
3 ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري ، من منشـورات دار إحياء الـتراث العربي ، بيروت ، 1048 هـ .

- خ -

1 ـ الخصائص للنسائي ، تحقيق محمّد باقر المحمودي ، 1403 هـ .
2 ـ الخلافة والملك لأبي الأعلى المودودي .

- ر -

1 ـ رسائل الجاحظ .
2 ـ الرياض النضرة للطبري .

- س -

1 ـ سر العالمين للغزالي .
2 ـ سنن ابن ماجة ، من منشورات دار إحياء الكتب العربية ، بيروت .
3 ـ سنن أبي داود ، مطبعة مصر ، الطبعة الأولى ، 1371 هـ .
4 ـ سنن الترمذي ، من منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
5 ـ سنن الدارمي .
6 ـ سنن النسائي ، من منشورات دار الحديث القاهرة ، أوفست دار الجيل .
7 ـ السقيفة للشيخ المظفر ، من منشورات دار الهادي ، بيروت .
8 ـ السقيفة والخلافة لعبد الفتاح عبد المقصود .
9 ـ السيرة الحلبية ، من منشورات مطبعة محمد أفندي مصطفى ، مصر .
10 ـ سـيرة المصـطفى لهـاشم معـروف الحسيني ، من منشـورات دار القلم ، بيروت .
11 ـ السـيرة النبويـة لابن هشام ، من منشـورات دار إحياء الـتراث العـربي ، بيروت .

- ش -

1 ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، من منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

2 ـ شواهد التنزيل للحسكاني .

- ص -

1 ـ الصحاح للجوهري ، من منشورات دار العلم للملايين ، بيروت .

2 ـ صحيح البخاري من منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1978 .

3 ـ صحيح مسلم من منشورات دار الفكر ، بيروت .

4 ـ الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل .

5 ـ الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي .

- ط -

1 ـ الطبقات الكبرىٰ لابن سعد .

- ع -

1 ـ العمدة لابن بطريق ، من منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، قم .

- غ -

1 ـ الغدير للأميني ، من منشورات دار الكتب الإسلامية ، إيران .

- ف -

1 ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، من منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

2 ـ فتوح البلدان للبلاذري ، من منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت .

3 ـ فدك في التاريخ للشهيد محمد باقر الصدر ، من منشورات دار التعارف ، بيروت .
4 ـ فرائد السمطين ، من منشورات مؤسسة الحموي .
5 ـ الفصول المهمة لابن الصباغ .

ـ ك ـ

1 ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ، من منشورات دار صادر ، بيروت .
2 ـ كنز العمال ، من منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت .
3 ـ كنوز الحقائق للمناوي .

ـ م ـ

1 ـ مجمع الزوائد للهيثمي ، من منشورات دار الفكر ، بيروت .
2 ـ المراجعات لعبد الحسين شرف الدين ، من منشورات دار العالم الإسلامي ، بيروت ، 1400 هـ .
3 ـ مروج الذهب للمسعودي ، من منشورات الجامعة اللبنانية .
4 ـ المستدرك للحاكم ، من منشورات مكتبة النصر الحديثة ، الرياض .
5 ـ مسند أحمد بن حنبل ، من منشورات دار صادر ، بيروت .
6 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي .
7 ـ المغازي للواقدي .
8 ـ مقتل الحسين للخوارزمي ، من منشورات مطبعة الزهراء ، النجف. 1367 هـ .
9 ـ المناقب للخوارزمي ، من منشورات مكتبة نينوى الحديثة ، طهران .
10 ـ مناقشات عقائدية في مقالات الجبهان .
11 ـ منتخب الأثر للطف الله الصافي ، طبع إيران .
12 ـ منهاج السنة لابن تيمية .
13 ـ الموطأ لمالك ، طبع في مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

- ن -

1 ـ النص والإجتهاد لعبد الحسين شرف الدين .

2 ـ نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ، من منشورات دار ومطابع الشعب .

- و -

1 ـ وفيات الأعيان لابن خلكان .

- ي -

1 ـ ينابيع المودة للقندوزي ، من منشورات مؤسسة الأعلمي ، بيروت .

2 ـ يوم الإسلام لأحمد أمين .

المحتويات

الموضوع ——— الصفحة

الموضوع ــــــــــــــــــــ الصفحة